قصة موت المسيح وقيامه
في
ميزان النقد العلمي والكتب المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم
قال تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح
عيسى ابن مريم رسول الله
وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم » (النساء ١٥٧)

تأليف

أ. د/ محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ — ١٩٨٩ م

دار الطباعة المحمدية ٣ درب الأتراك بالأزهر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اختلفت أنظار أهل الكتاب في معرفة حقيقة رسول الله المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – فقد أجمع رؤساء اليهود – قوم عيسى – على وجوب قتله ، ودبروا أمرهم مع السلطة الرومانية على تنفيذ المؤامرة بليل بزعامة أحد حوارييه، ولكن الله كرمه فرفعه حيا كما يليق بقدره ومكانته النبوية .

أما اليهود : وهم المجبولون على الاستهانة بكتب الله المنزلة على أنبيائه، والمطبوعون على قتل الأنبياء بغير حق – فقد ظنوا أنهم تمكنوا من نبي الله عيسى ، وأنهم حاكموه وقضوا عليه بالموت . وأنه صلب على خشبية – حاشاه – كما ظنوا أنهم بلغوا بذلك غاية مطلبهم ، في حرب الأنبياء « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله»(١) :

ولكن الله خيب أملهم، فطاش سهمهم ، ورد الله كيدهم إلى نحورهم فقال تعالى :« وما قتلوه وما صلبوه»(٢) .

أما النصارى : وهم الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح ، والمقيمون على دينه ، والمؤمنون برسالته فقد اختلفوا فيما بينهم إلى فرق شتى أهمها فرقتان :

الأولى منهما : ذهبت إلى أنه مات مصلوبا على خشبية ، وقالوا : إنه

(٢،١) سورة النساء /١٥٧

قام من الموت بعد ثلاث، ورفع إلى السموات، وهؤلاء هم الغالبية العظمى بعد قرار مجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادية، وهم الذين قالوا إنا نصارى.

الثانية: ذهبت إلى أن الذى قتل وصلب ليس هو المسيح — عليه السلام — وإنما اشتبه أعداؤه اليهود بإنسان آخر فقبضوا عليه، وحاكموه، وصلبوه ظنا منهم أنه المسيح — عليه السلام — وهم الغالبية قبل قرار المجمع المذكور ومن هؤلاء أتباع تلاميذه الحقيقين الذين سمعوه والذين منهم برنابا، والتابعون من أتباع آريوس، وفرق أخرى استمر وجودها بعد مجمع نيقية.

ومن هنا كانت حقيقة أمر المسيح فى نهايته على الأرض ضائعة بين اليهود وبين النصارى على اختلاف مذاهبهم، ولقد كشف القرآن عن اختلافهم هذا فى قوله تعالى: «وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن»(١).

ومضى على هذا الأمر ستة قرون، وخبر الصدق فيه مجهول، والعقول فيه حائرة، والقلوب عماء، والمذاهب متضاربة متناكرة، وصار الجدل فيه محتدما، إلى أن كانت مشيئة الله بكشف اللثام عن زعم النصارى موت المسيح وأنه من القبر قد قام، فأنزل الله على عبده الفرقان بكلمة الحق المبين، ليرشد الحيارى، ويهدى الضالين إلى حقيقة الأمر ومبلغ اليقين. فقال تعالى وهو أصدق القائلين: «وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما»(٢).

فكانت هذه الآية قولا فصلا، وهديا للباحثين عن هذه الحقيقة التائهة، وجلاء لسدف الظلام المتراكم على العقول. والران على القلوب «ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده»(٣).

---

(١) النساء / ١٥٧ (٢) النساء / ١٥٧، ١٥٨

(٣) الأنعام / ٧٨

وقضية صلب المسيح وموته وقيامه من الموت أساس دين النصارى ، وعليها تقوم عقيدة تأليه المسيح ، ولما أنكر القرآن هذه العقيدة ، وكفر أصحابها ، — والقرآن يهدى للتى هى أقوم — رأيت أن أقدم هذا الكتاب لبيان وجه الحق فى هذه القضية ، مستعينا بالله عز وجل ، ترسيخا لعقيدة المسلم ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وتبصيرا للنصرانى فى عقيدته لعله يكون نبراسا له على صراط الله المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة »(١).

وقد سميت هذا الكتاب : « قصة موت المسيح وقيامه فى ميزان النقد العلمى والكتب المقدسة ، وقد دعمت كشف القرآن عن زيف عقيدة الصلب والفداء النصرانية بنصوص من الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد ، مقوما ذلك بالبراهين العقلية فى غير فحش فى القول أو هجر من الكلام ، وجعلت نصوص الكتاب المقدس أساسا لبحث هذه القضية ومقدمات لاستخراج نتائجها .

جعله الله خالصا لوجهه الكريم ، نافعا للمتبصرين المهتدين ، ووسيلة لنيل رضا الله وفضله الكريم . والله من وراء القصد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

ربيع الأول ١٤١٠ هـ أكتوبر ١٩٨٩ م　　　　　　المؤلف

---

(١) الأنفال / ٤٢



الباب الأول

عقيدة الموت والقيام فى المسيحية

تمهيد :

لقد سجل العهد الجديد قصة موت المسيح على الصليب ثم قيامه من القبر بعد يوم وليلتين ، وتقاسمت أسفاره أدوار هذه القصة ، فاختصت أسفار الأناجيل بذكر حادثة القبض على المسيح ومحاكمته ، وبيان علة الحكم ، ورفعه على الصليب ، وموته وملابساته . ثم تكفينه ودفنه ، وأخيراً قيامه من الموت ، ولقائه بتلاميذه .

كل ذلك يفهم بظاهر القول — دون فقهه — من الإصحاحات الخاتمة لكل إنجيل من الأربعة أناجيل المسجلة فى العهد الجديد .

أما حظ رسائل « بولس » من هذه القضية فإنها تبنت فكرة أن موته على الصليب عمل إلهى قصد به تكفير خطيئة آدم المزمع سريانها بالوراثة من آدم — عليه السلام — إلى ذريته بنى البشر — فالجميع مخطئون بالوراثة بسبب سقوط أبيهم فى الخطيئة — كما أن نجاة آدم وذريته من الهلاك الأبدى الذى أوجبته الخطيئة وحياتهم مع المسيح فى ملكوته مرهون بالإيمان بعقيدة تجسيد الإله الإبن — المسيح — وموته مصلوباً على خشبة ، وقيامه من القبر ثم صعوده إلى السماء إلى نهاية الدنيا ، ولا يخفى على القارىء أن رسائل بولس من أسفار العهد الجديد .

أما دور أرباب الفكر والفلسفة من علية العقلاء وكتابهم من المسيحيين فهو فلسفة هذه الفكرة والتعليل والتحليل لربط التجسيد والموت

والقيام بالخطيئة المتوارثة توفيقاً بين عدل الله — الآب — ورحمته بآدم وبنيه .

وإذا كان لنا أن نكتب عن قصة موت المسيح وقيامه لبيان ما فيها من مزاعم باطلة ، فلم نجد أغزر مادة فى بيانها لدى أصحابها من العهد الجديد ، فهو أصدق إنباء وأقرب إلى فهم مراد أتباع النصرانية من أى مصدر آخر .

وهذا الباب قاعدة تأسيسية يبنى عليها أوجه النقض لهذه القضية فيما يذكر بعد هذا الباب إن شاء الله ، وبمشيئته الله تعالى سوف لا نجد أوفر مادة لبيان بطلانها من العهد القديم والعهد الجديد ثم القرآن الكريم ، والله المستعان .



الفصل الأول

نبـــذة تاريخية

عن مولد عيسى ونشأته من العهد الجديد

ميلاده تاريخياً ومكانياً :

لايعرف على وجه الدقة تاريخ مولد المسيح – عليه السلام – ولكن متى ولوقا يحددان ميلاده فى الزمان الذى كان فيه هيرودس ملكا على بلاد(١) اليهودية (فلسطين) من طرف الإمبراطورية الرومانية .

ذلك لأن هيرودس كان قد أصدر بسبب مولدالمسيح مرسوما يقضى بقتل جميع الأطفال دون الثانية من العمر(٢) ، حتى إن مريم خرجت بابنها عيسى من اليهودية إلى مصر خوفا عليه من هيرودس خشية أن يقتله ، وأنهما رجعا إلى الناصرة بعد علمها بموت هيرودس(٣) .

فإذا كان هيرودس كما يذكر التاريخ قد توفى سنة ٤ قبل الميلاد ، فإن مولده يكون قد سبق موت هيرودس ، ويستنتج من ذلك أنه ولد سنة ٤ قبل الميلاد ، وهذا هو أقل تقدير زمنى ، ويبدو أنه أرجح الأقوال ، إذ أن هناك من يذكر أنه ولد سنة ٦ قبل الميلاد ، وقيل سنة ٨ قبل الميلاد ، أما اليوم الذى ولد فيه فليس هناك من يعرفه بالتحديد .

أما مكان مولده ، فيقول متى ولوقا : إن مولد المسيح كان فى بيت لحم

---

(١) متى ١ : ١ ولوقا ١ : ٥ (٢) متى ٢ : ١٦
(٣) متى ٢ : ٢٠

القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل .

ومما تقدم نعلم أن تاريخ ميلاده ويوم مولده لم يحدده التاريخ بالدقة المطلوبة على وجه التحقيق .

يقول لوقا عن قصة الحمل بالمسيح : إن الملاك جبريل أرسل من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء ، واسم العذراء «مريم» وجاء لها الملك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليك ، ولما رأته انزعجت من كلامه ، وأخذت تفكر فيما عسى أن تكون هذه التحية ، وقال لها الملاك «لا تخافى يامريم فقد رضى الله عنك ، وانظرى فإنك سوف تحملين وتلدين ابناً وتسمينه عيسى المسيح ، وعندئذ قالت مريم : « كيف يكون هذا وأنا لم أعرف رجلا ؟ » فأجاب الملاك : ليس على الله شىء مستحيل ، وقالت مريم : ليكن لى حسبما قضت حكمة الله ، وفارقها الملاك(١) .

وكان الحمل الفجائى بعيسى ومولده مثار جدال كبير بين العلماء والمؤرخين حول أصله وحقيقته .

والأناجيل الأربعة مختلفة حول ذكر قصة الحمل، إذ أن (مرقس ويوحنا) صامتان حول هذه القضية ، وبين متى ومرقس تناقض كثير (٢) .

ولما جاء الإسلام أوضح بالوصف الجلى قصة الحمل به ومولده عليه السلام — وذلك فى سورتى آل عمران (٣) ، ومريم (٤) من القرآن الكريم ، ولم يتناقض القرآن حول الحمل به بلا دنس ، ومولده المعجزة ، والقرآن يرفض رفضاً باتاً ألوهية عيسى أوالقول ببنوته لله جل وعلا .

---

(١) إقرأ لوقا ١ : ٢٦—٣٨ .

(٢) راجع كتابنا / إنجيل المسيح بين وحى السماء ووضع البشر .

(٣) إقرأ الآيات ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ (٤) إقرأ الآيات من ٢٧ — ٣٥

نشأته عليه السلام :

إن البحث عن الجانب التاريخى لعيسى ابن مريم يعوزه المراجع المثبتة لليقين ، ولا يكاد يتوفر منها ما يغطى هذا الجانب ، فثمة وثائق سجلت عن تعاليمه وبعض أعماله ، ولكن لا يكاد يعرف شيء عن الكيفية التى عاشها — عليه السلام — بالفعل من لحظة إلى أخرى ، ومن يوم إلى يوم ، وكيف كان يصرف حياته اليومية مع الناس والبيئة بمعناها الشامل ، وكلما ازدادت جدية البحث لاكتشاف هوية عيسى على حقيقتها اتضح للباحثين قلة ما يعرفونه عنه ، اللهم إلا ما بنى على الظن والتخمين فى مجمله .

ومما لا شك فيه أن الصورة المبنية على معطيات مشوبة بالظن والتخمين عن عيسى — من هو ، وكيف نشأ ، وماذا كان يفعل فى يومه وليلته — هى صورة مشوهة ، وغير محدودة المعالم .

ومع أنه يوجد قدر من الحقيقة عن حياته فى الأناجيل ، إلا أنه قد تأكد أن الأناجيل الأربعة الرسمية لم تتعرض للتغيير والتبديل وحسب ، بل إنها لم تكن — بالتأكيد — روايات لشهود عيان ، وهذا ما يتفق عليه جميع العلماء والمحققين من أصحاب الملل ، إذ أن أقدم الأناجيل الأربعة هو إنجيل مرقس ، ومع ذلك فإن تدوينه كان ما بين عامى ٦٥ ، ٧٠ ميلادية ، ومعنى هذا أنه كتب بعد وفاة المسيح بأربعين سنة على أقل تقدير .

أما متى صاحب الإنجيل الأول فى ترتيب الأربعة ، فكان موظفا بسيطا يجبى الضرائب فى كفر ناحوم — أى أنه كان عشارا لحساب الحكومة الرومانية — وهو أقل ثقافة من أن يكتب الإنجيل المسمى باسمه ، لأنه يفترض أن كاتبه لا بد أن يكون عالما بمضامين الكتاب المقدس وخاصة منه العهد القديم ، ومثله ليس مؤهلا لذلك .

أما لوقا صاحب الإنجيل الثالث فلم يكن من قوم المسيح المكلفين باتباع رسالته ، وكان لوقا طبيب وتلميذ لبولس، ولم يجتمع هو وبولس بالمسيح ، واعتمد فى كتابة إنجيله على المصادر التى اعتمد عليها مرقس ومتى ، وعلى ما استخلصه من الروايات التى كانت تحكى عن المسيح كما أكد ذلك هو فى افتتاحية إنجيله .

أما إنجيل يوحنا : فيختلف كل الاختلاف عن هذه الثلاثة المذكورة، وقد دونه فى سنة ١٠٠ ميلادية ، وقو حدثت مناقشات حادة حول إعتماده ضمن الكتاب المقدس كرواية موثوق بها عن حياة المسيح — عليه السلام —

تلك أهم الوثائق التى تحمل لنا قدرا من حياة عيسى فى بعض حياته ، ولكنها لم تفصل لنا شيئا عن حياته فى نشأته وأعماله اليومية قبل اشتغاله بالرسالة وتكريزه —أى وعظه— بالإنجيل كنبى ورسول ، وبين هذه الوثائق الأربعة مفارقات فيما تذكره عن حياة المسيح يصعب على العقل الرشيد التوفيق بينها .

وقد حفظ التاريخ وثيقة أخرى تعرف باسم «إنجيل برنابا» تعطى الباحثين عن حياة المسيح صورة أوسع بكثير من معطيات الأناجيل الأربعة الرسمية ، ولكن الكنيسة تنكره .

هذا فضلا عن أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يعطياننا كشفا أكثر وأشمل عن حياة المسيح ، وتصورا أوضح عن حقيقته وطبيعته .

فالمسيح فى برنابا والمصادر الإسلامية لم يكن (ابن الله) لا بالمعنى الحرفى أو المجازى لهذه الكلمة ، وحكمت المصادر الإسلامية بالكفر على من اعتقد بنوته لله على الحقيقة ، بل إن برنابا والمصادر الإسلامية جعلته مثل إبراهيم وموسى وسائر الأنبياء من قبله ، ومحمد من بعده، يمشى

فى الأسواق ويأكل الطعام كسائر البشر ، وهو رسول كبقية الرسل ، غير أنه من أولى العزم منهم ، «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام »(١) .

كما أن هذه الوثائق جميعها تذكر أنه كان فى شقاق مع الذين دعاهم بدعوته — حاشا المؤمنين منهم — فقد كانت تعاليمه تتعارض مع مصالحهم، فهم إما لم يتقبلوا هدى الله الذى جاءهم به ، أو تجاهلوا تعاليمه رغم معرفتهم صدقها ، وذلك تفضيلا للسلطان ، والثراء ، والسمعة فى عيون الناس عن دعوته واتباع تعاليمه .

كما أننا نجد فى هذه الوثائق أن عيسى فى حياته على الأرض جزء لا يتجزأ من التاريخ اليهودى ، ومعرفة تاريخ اليهود هام جدا لمعرفة حياة المسيح — عليه السلام — فقد كان طيلة حياته يهوديا يعيش سيرة متوافقة مع السنة اليهودية ، والشريعة اليهودية ، وأنه جاء ليؤكد ويحيى تعاليم موسى الأصيلة التى كانت قد تغيرت ، وانحرف أتباعها بمرور السنين .

أما نهاية حياته — عليه السلام — فنجد أن الذى صلب شخص آخر يشبهه ، وإذا كنا نجد فى الأناجيل الأربعة الرسمية حكاية صلب المسيح إلا أن النصوص فى الاصحاحات التى تتكلم عن الصلب تنبىء بيقين أن الذى صلب شخص آخر قد شبه به .

من أوصاف المسيح عليه السلام :

لم يرد فى الأناجيل وصف تفصيلى لشخص المسيح ، ولكننا نجد فى بعض سجلات التاريخ المسيحى شيئا من أوصافه تناقلتها المراجع المختلفة

---

(١) المائدة / ٧٥

فمن ذلك ما ذكره صاحب كتاب « عيسى يبشر بالإسلام » : أما وصف المسيح فقد وصفه (لينتوس) أحد الموظفين الرومان لعيسى « كان شعره بنيا ، ينسدل إلى أذنيه مكونا تجاعيد ناعمة ، وممتدا على كتفيه في خصل متألقة .

وكان يفرق شعره من منتصف رأسه كما هو شأن أهل الناصرة ، وكان له جبين أملس وضاح ، ووجه ضارب إلى الحمرة دون بقع أو تجاعيد ، أما فمه وأنفه فليس فيهما أى مجال للانتقاد ، كما كانت لحيته مكتملة ، وغزيرة ، ومن نفس لون شعره ، ومفروقة من منتصفها ، وكانت عيناه زرقاوان ، رماديتان ، مع قدرة فائقة التنوع على التعبير ، أما طوله مكان معتدلا ، أو حوالى خمس عشرة قبضة ونصف القبضة ، وهو منشرح الصدر حتى فى أثناء حديثه ، وأحيانا يبكى ولكن لم يره أحد قط وهو يضحك .

وهناك رواية أخرى إسلامية تعطى صورة عن وصفه تختلف إختلافا طفيفا عن ذلك ، وبناء على هذا المصدر الإسلامى : « كان عيسى متورد اللون ضاربا إلى البياض ، ولم يكن شعره مسرفا فى طوله ، ولم يدهن شعره قط ، واعتاد أن يمشى حافى القدمين ، ولم يتخذ بيتا أو زينة ، أو بضاعة ، أو لباسا ، أو قوتا سوى قوت يومه ، وكان أشعث الرأس ، صغير الوجه ، كما كان زاهدا فى هذه الدنيا ، راغبا فى الآخرة ، تواقا إلى عبادة الله »(١) .



(١) محمد عطاء الرحيم / عيسى يبشر بالاسلام ص ٤٤ ، ٤٥ طبعة عمان بالأردن سنة ١٩٨٦ م ترجمة : فهمى شما .

الفصل الثاني

قصة الموت والقيام في العهد الجديد

(١) في الأناجيل :

قد وقعت حادثة الصلب في أورشليم سنة ٣٤ ميلادية في الزمن الذي كانت دولة الرومان الغربية محتلة لأرض فلسطين ، ومسيطرة سيطرة تامة على بلاد اليهودية ، وكان الوالي على فلسطين آنذاك رجل اسمه (بيلاطس البنطي) وكان مندوبا من قبل (طيباريوس) قيصر الروم ، وكان له التصرف المطلق في الحكم على هذه البلاد .

أما حكاية الصلب فقد كتبت في المصادر المسيحية بأساليب متباينة ، وروايات متناقضة ، وتناولتها كتب التاريخ من مؤرخي النصرانية وغيرهم .

وقد رأينا أن نأتي بملخص لهذه الحادثة اقتباسا من الأناجيل ، لأنها أغزر مادة ، وأسهل استطلاعا ، وأصدق تعبيرا عن عقيدتهم ، وأحسن بيانا للفرض الذي نسعى إلى تحقيقه ، وهو التحقق من شخصية الإنسان الذي صلب .

وإليك ملخص هذه الحكاية كما هي مفصلة في الأناجيل الأربعة :

أرسل الله عيسى ابن مريم بتبليغ رسالته في القرى أولا حيث كان يحضر المجامع فيها ، ثم صعد إلى أورشليم وصار يغشى الهيكل يعلم فيه ويعظ فاستاء منه رؤساء كهنة اليهود الذين كانوا أصحاب السلطة الدينية في أورشليم ، فحنقوا عليه ، وأنكروا نبوته حسدا منهم واستكبارا ،

وأخذوا يصدون الناس عنه، وينفرونهم منه، مدعين أن تعليمه مخالف لشريعة التوراة التى هى دستور دين اليهود. ولما رأوا كثرة ميول الناس إلى دعوته، وتعلق الناس بحبه، وأن أتباعه يزيدون يوما بعد يوم بسبب ما كان يبين لهم انحرافهم عن الدين الصحيح، وبسبب ما كانوا يرونه من الآيات البينات، وما يجريه الله على يديه من المعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء المرضى، حتى ازداد حنق الرؤساء تضجرهم، فكانوا يسألون أسئلة فى أصول الشريعة لإحراجه أمام الناس ظانين أنه يعجز عن معرفتها، فينفر الناس وينفضوا من حوله، مثل سؤالهم عن «أى وصية هى أعظم الكل» ومثل سؤالهم: «أيجوز أن نعطى جزية لقيصر» إلى غير ذلك، ولكن الله قد علمه الكتاب والحكمة، فكان يجيبهم بما يعلمون ويصدقون أنه الحق.

ولما عجزوا عن احتمال وجوده، وشعورهم بانحطاط مكانتهم الدينية فى نظر الشعب بسببه، أخذوا يتشاورون فى شأنه، حتى أجمعوا أمرهم على قتله، ثم اتفقوا على أن يأسروه ليلا، وقالوا فى أنفسهم: إننا إن قبضنا عليه نهارا فلا نأمن على أنفسنا من تعدى أتباعه الذين آمنوا به ويعززوه وينصروه، بل ربما ينقسم شعب اليهود على نفسه فتحدث فتنة تؤدى إلى تدخل الحكومة المحتلة، ثم يرجعون علينا بأضرار لا طاقة لنا بها.

إن عيسى — عليه السلام — فى أيام دعوته لم يكن له مكان معلوم يأوى إليه. وفى كل مساء كان يأوى إلى جهة من ضواحى المدينة يبيت فيها هو وتلاميذه، فإما فى بستان، أو فى سفينة، أو فى كرم، حيثما اتفق له ذلك، ومن هنا كان رؤساء اليهود لا يعرفون له مقرا محددا، ولا مكانا ثابتا، ولذلك كانوا فى حاجة إلى من يرشدهم إلى مكانه ليلا، وكان هناك واحد

من الحواريين يسمى «يهوذا الاسخريوطى» ذكرت الأناجيل أنه أحد الإثنى عشر الحواريين الذين آمنوا بعيسى، وقالوا له: «نحن أنصار الله آمنا بالله» ثم تحكى الأناجيل أن وساوس الشيطان قد استولت على هذا الرجل حتى غلبته فارتد عن دين المسيح، وصار ينافق عيسى فى صحبته له، فكان يتظاهر بالإيمان وهو يضمر الكفر فى قلبه، وتقول الأناجيل إنه ذهب يوما إلى رؤساء اليهود سرا، وعرض عليهم وعده بأن يكون لهم عونا ودليلا على عيسى فى ليلة ما، إذا هم جعلوا له أجرا على عونه لهم على ذلك.

وذلك لأنه كان رجلا محبا للمال، ففرحوا بوعده هذا وفرضوا له أجرة هى ثلاثون من الفضة، وصار من ذلك الوقت يتحين الفرصة ليحضر إليهم ويخبرهم عن مكان عيسى وتلاميذه لكى يرسلوا معه قوة تتمكن من القبض عليه.

وفى ليلة عيد الفصح تجمهر اليهود وحراس رئيس الكهنة وكل الذين جاؤا مع يهوذا ليدلهم على البستان الذى آوى إليه عيسى وتلاميذه الخصوصيون.

وبعد حوار دار بينهم وبين من قال لهم: أنا هو المسيح، أمسكوا به، وذهبوا به إلى دار رئيس الكهنة حيث مجلس القضاء الأعلى اليهودى واستجوبوه على ما أسندوا إليه من تهمة، ثم سيق إلى دار الولاية، ثم إلى الصليب، فكان الموت، ثم الإنزال من على الصليب، ودفنه ثم قيامته من الموت وخروجه من القبر، ولقائه بالتلاميذ ثم صعوده بعد أربعين يوما إلى السماء.

هذا مادون فى الأناجيل عن قصة نهاية المسيح على الأرض، دون أن تربط الأناجيل ذلك بحياة آدم فى الجنة أو خروجه منها، ودون أن تعلل هذه النهاية بأى علة تكون سببا لأطوار وجود المسيح ونهايته الأرضية.

(ب) عند بولس والفكر المسيحى :

كيان المسيح فى العقيدة المسيحية :

المسيح فى العقيدة المسيحية — كما صوره بولس وفلسفة الفكر المسيحى — له طبيعتان يتكون منهما كيانه .

الأول (لاهوت) وهو الجانب الإلهى فيه باعتباره ابن الله وابن الله لا يكون إلا إلها ، ومن هنا سمى هذا الجانب لاهوتا .

الثانى : (ناسوت) وهو الجانب الإنسانى فى طبيعته وهو مأخوذ من كلمة (الناس) وكلمتى اللاهوت والناسوت من الكلمات المنحوتة مثل : (الملكوت) من الملك ، و (الرحموت) من الرحمة .

المناسبة التى اتحد فيها اللاهوت بالناسوت :

الكيان الأول يعبرون عنه بالكلمة الإبن ، والإبن لما كان من طبيعة أبيه صار هو الله ، وصورة الله — أى وجوده(١) . هذا الكيان الإلهى لما كان الله قد قضى بالقصاص من آدم وبنيه الخطئين بالوراثة ، أرسل ابنه رحمة منه فى صورة جسد من أجساد الخطئين ليقوم بتقديم هذا الجسد للقصاص والعقاب ، فداء وكفارة عن جميع البشر المؤمنين(٢) بعقيدة الصلب والفداء .

فبسبب الخطيئة التى اكتسبها الجسد الآدمى كانت الخطيئة دينا يستوجب العقاب ، والقصاص من فاعلها ، فلأجل ذلك تجسد اللاهوت ، أى حل فى جسد بشرى من أجساد الناس(٣) ، ولما كان كذلك سمى ناسوتا نسبة

---

(١) إقرأ الرسالة إلى كولوس ١ : ١٥ ، والرسالة إلى فيليبى ٢ : ٦ ، ٧

(٢) إقرأ الرسالة إلى رومية ٨ : ٣

(٣) إقرأ الرسالة إلى كولوس ٢ : ٩

إلى الناس كما تقدم . فالإبن نزل من عند أبيه، وحل فى أحشاء مريم، واتحد بالناسوت اتحادا كاملا ، وخرج من بطنها إنسانا كاملا، ولاهوتا كاملا، ليعظ الناس برسالة الإنجيل ويدعوهم إلى التـــوبة واقتراب ملكوت السموات بعد مادعوا من قبل على ألسنة الأنبياء والرسل(١)، وكان نزوله للخلاص والرحمة والمحبة ، وذلك بإعلانه مشيئة الآب . لكن لم يطعه إلا قليل من الناس «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله»(٢).

فكرة الخطيئة وموت المسيح على الصليب فداء وكفارة :

إن فكرة تجسيد ابن الله — وهى من بنات أفكار بولس — فى العقيدة المسيحية ترتبط بقصة خلق آدم — عليه السلام — البشر — عليه السلام — وأكله من الشجرة المحرمة ، فقد زعم المسيحيون أن المسيح مات صلبا لينوب عن آدم وبنيه :

ذلك أن الله خلق آدم وأسكنه جنة عدن وأوصاه قائلا : (من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت)(٣) .

ولكن آدم أمام الضعف البشرى وإغواء الشيطان أكل من الشجرة المحرمة بإيعاز من زوجه حواء ، فكان جزاؤه كما قال الله : (موتا يموت) وموته عبارة عن هلاك أبدى يستوجب الخلود فى الجحيم ، ويعبرون عنه بالموت الحكمى(٤) .

والله سبحانه بمقتضى كماله الذاتى يتحتم تنفيذ عدله المتمثل فى إيقاع العقاب الموعود به على آدم حتى لا يحصل خلف فى وعده ، ولكن

---

(١) يوحنا ١ : ١٢ (٢) إقرأ الرسالة إلى العبرانيين ١ : ١ ، ٢ والرسالة إلى فيليبى ٢ : ٧ (٣) يوحنا ١ : ١١ (٤) تكوين ٢ : ١٦ : ١٧
(٤) جاء فى الرسالة الى رومية ٦ : ٢٣ (لأن أجرة الخطيئة هى موت)

بمقتضى رحمته تعالى وكمال ذاته أيضا ينبغى أن يعفو عن زلة آدم، ويصفح عن عصيانه .

وفى تنفيذ مقتضى المطلبين تناقض وتضاد ، فإنه إن عفا برحمته فقد بطلت وظيفة العدل الإلهى، وإن أقام القصاص بالموت لعدله ، فقد بطلت وظيفة الرحمة ، وتولدت بسبب ذلك مشكلة فى نظرهم ليس بالهين حلها ، وبينما كان الله يدبر ما يحقق به رحمته بآدم ، ويقيم به عدله فيه ، جمعا بين المطلبين ، من غير تضاد أو تناقض ، كان آدم يتناسل ويتعاقب ، فوجدت بذلك ذرية تحمل نفس الخطيئة، قد سرت إليها بطريق الوراثة الفطرية ، لأن هذه الذرية نتاج الدم الموبوء بالخطيئة .

يقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية : « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع)(١) .

وهكذا استوجبت البشرية الموت كآدم ، فهم بذلك مبعدون عن رحمة الله وملكوته ، ولكن الرحمة أوقفت التنفيذ . زعموا فقالوا : وأخيراً اهتدى الله — تعالى علوا كبيرا — إلى طريقة للحل يتحقق بها على ما زعموا فداء الإنسانية من أثر الخطيئة ، وفى الوقت نفسه يقيم عدله بتلك الطريقة وتنال الإنسانية رحمة الله ، هذه الطريقة هى أن يتقدم فاد عن البشر ، وبالضرورة يكون بشريا ، إذ لا توجد مغفرة بدون سفك دم كما قالوا — وتلك شعيرة فى اليهودية والوثنية — وإنما كان الفادى بشريا ليتجانس الفادى والمفدى ، ولكن البشر جميعا مدنسون بالخطيئة الموروثة ، ولا طاهر إلا ذات الله ، فلا يصلح للفدية إلا هو ، والله ليس جسداً ، وهنا نشأة مشكلة أخرى هى تجسد الذات الأقدس . فلأجل ذلك أنزل الله ابنه ، واتخذ الابن لنفسه — باعتباره إلها — جسد إنسان فى بطن مريم الطاهرة البتول ،

(١) رومية ٥ : ١٢

وهكذا اقتضت رحمة الله بالبشرية ولتنفيذ عدله أن يقيم عنهم نائبا شرعيا هو ابنه الوحيد — يسوع المسيح — الذى قام بتسليم نفسه للصلب مختارا كفارة لخطاياهم، وبذلك قد تم فداؤهم، وتحقق خلاصهم، وتوافق العدل والرحمة، كما جاء فى رسالة رومية: «ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن خطاة مات المسيح لأجلنا (١)» (رومية ٥ : ٨).

ويقول القس إبراهيم لوقا تحت عنوان «الفدية» (إن المسيحية تعلم أن الله — لكى يجمع بين عدله ورحمته فى تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه — دبر طريقة فدائه بتجسيد ابنه الحبيب، وموته على الصليب نيابة عنا، وبهذا أخذ العدل حقه، وتكملت الرحمة، فنال البشر العفو والغفران، وهذه هى نظرية الفدية(١)...».

هذا، وسوف نأتى بالنقض والإبطال على فكرة توارث الخطيئة بعد مناقشتها بنصوص مقدسة، وبيان وجه الحق فى خطيئة آدم، وذلك فى موضع يأتى فى هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى.

وزعموا قيام المسيح من الموت :

إن الأمر لم يقف عند موت المسيح على الصليب، بل يرون أنه قام من بين الأموات بعد ثلاثة أيام بقوة لاهوته من القبر، والتقى ببعض النساء من أتباعه، واجتمع بالتلاميذ، وأراهم معجزة القيام وقهر المسيح للموت، وأوصاهم بالدعوة بالثالوث إلى الأمم، وأعطاهم سلطان المعجزات وكل ما كان مخولا له فى أيام جسده، ثم صعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه (٢) ... (نهاية متى).

(١) إبراهيم لوقا المسيحية فى الإسلام ص ١٧٩ .

(٢) يلاحظ أن المسيح نفسه لم يدع بهذه الدعوة أثناء دعوته قبل وفاته، والجنون فنون .

وزعموا أن النجاة من الهلاك ومن الدينونة يتمثل فى الإيمان بذلك عن يقين ، وإتماما لدعواهم وتحرراً من التعصب أذكر مستندهم على الصلب والقيام من الإنجيل ، قال متى : « وبعدما استهزأوا به نزعوا منه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به إلى الصلب ، ولما صلب اقتسموا ثيابه ... وجعلوا فوق رأسه(١) علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود... ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إيلى إيلى لما شبقتنى ، أى إلهى إلهى لماذا تركتنى ... فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح... وأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقى، ووضعه فى قبره الجديد، الذى كان قد نحته فى الصخرة ، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى ... وفى الغد بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : يا سيد تذكر أن ذلك المضل قال وهو حى إنى بعد ثلاثة أيام أقوم ، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتى تلاميذه ليلا ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى ، فقال لهم بيلاطس عندكم حراس اذهبوا واضبطوه كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر .

وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر... فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا أنتما وإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب ، ليس هو ههنا لأنه قام كما قال ... ثم تقدم يسوع وكلم تلاميذه قائلا رفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض(٢) ... » .

وقال يوحنا : « هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان لكيلا يهلك من

---

(١) أى سبب الحكم عليه .

(٢) متى ٢٧ : ٣١ — ٦٦ و ٢٨ : ١ — ١٨ !

يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية(١) » وقال إبراهيم لوقا : « إن المسيح كفارة قد مات وكابن الله قد قام من الأموات وصعد إلى السموات (٢) » .

هذا ، ولعل القارىء يلاحظ أنى شرحت عقيدة النصارى فى الصلب والقيام شرحا وافيا، وذكرت دليلهم على هذه العقيدة من الإنجيل ومن أقوال علمائهم ومفكريهم حتى يثبت أننا فى عرضنا لها غير متحيزين ولا متعصبين حتى إذا أتينا عليها بالنقض يكون نقضنا لها موضوعيا ومؤسسا على العرض الصريح لعقيدتهم دون خفاء وليكون القارىء على علم بالقضية المراد كشف اللثام عن مزاعمها ، والله يشرح صدورنا للحق والصواب .

(ح) كيف دونت قصة الصلب والقيام فى الأناجيل ؟

كان هناك صنفان من التلاميذ الذين تلقوا عن المسيح مبادىء الدين وقضاياه .

ألصنف الأول : منهم هم خاصته الخصوصيون المتمثلون فى الأحد عشر إذا أخرجنا منهم (يهوذا الأسخريوطى) الذى نافق فكان من الهالكين .

ألصنف الثانى : هم باقى التلاميذ الذين كانوا غائبين عن أورشليم يوم الصلب والموت والدفن ، فلم يشهدوا هذه الحادثة ، لتغيبهم عن هذه المدينة، وكان عدد هؤلاء سبعين تلميذا كما يقول لوقا فى إنجيله (٣) .

---

(١) يوحنا ٣ : ١٤ ، ١٥

(٢) المسيحية فى الإسلام ص١٦٠

(٣) إقرأ لوقا ١٠ : ١

وكان عيسى عليه السلام يرسلهم اثنين اثنين إلى قرى ومدن بنى إسرائيل ليبشروا بالدين ، ويدعوا الناس إلى الإيمان برسوله عيسى — عليه السلام — وإنجيله .

ولعل هؤلاء هم الذين أشار إليهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١) » إلى آخر القصة من القرآن الكريم .

هؤلاء لما رجعوا من رحلاتهم إلى أورشليم، كان الخبر قد ذاع فى المدينة، بأن اليهود أخذوا المسيح وصلبوه ، فصدقوا هذا الخبر حين سمعوه من الناس ، وكان قد شاع أيضا أن المصلوب قام من الأموات بعد ثانى ليلة من دفنه بناء على خبر امرأة من أتباعه تدعى مريم المجدلية التى كانت المصدر الأول والأخير لهذا الخبر .

قالت هذه المرأة إنها ذهبت إلى القبر زائرة للمصلوب قبل الفجر فوجدت القبر خاليا إلا من الكفن ، وقالت إنها رأت عند القبر ملكين أو ملكا واحدا بلباس أبيض ، أخبرها بأن الميت قد قام ، وعاش بين الناس ، ثم أمرها بأن تذهب إلى التلاميذ — أى الخصوصيون — لتخبرهم بما أخبرها به الملك .

هؤلاء التلاميذ السبعين لما سمعوا هذا الخبر من المرأة والناس صدقوا الخبر ، وفرحوا لما ناله سيدهم من المكرمة العالية التى لم يحصل عليها أحد قبله . وذهب عنهم ما كان فى قلوبهم من الهم والغم والحزن ، ثم ساعدوا على نشر هذا الخبر فى المدن والقرى ، ثم دعوا الناس إلى

---

(١) سورة ياسين / ١٣ ، ١٤

دين المسيح على هذا النمط الذى سمعوه ، وهو أن المسيح صلب ومات ودفن، ثم قام من قبره بعد أن دحرج الحجر العظيم الذى سد به باب القبر، ثم صعد إلى السماء .

كما زعموا أن موته كان كفارة لخطايا الذين يؤمنون بهذه القصة ، فاستجاب لهم خلق كثـــير وزادت الدعوة انتشارا فى أورشليم وسائر البلاد المجاورة لها ، وصارت هذه الفكرة مستقرة فى الأذهان ، ودونت فى مكتوبات خاصة عن سيرة المسيح وسيرة رسالته ، إلى أن كان هناك من يريد كتابة الأناجيل ، فأودعت هذه الفكرة بعض الأناجيل، ومنها الأناجيل الأربعة الرسمية ، وهناك أناجيل أخرى خلت من ذكرها، فلم تعتمد هذه الإشاعة ضمن نصوصها ، لأن كاتبيها يقفون على حقيقة الأمر وهو أن المصلوب غير المسيح . ومنها الأناجيل التى تقول بالوحدانية دون التثليث ، ونبوة عيسى دون ألوهيته، وبأن المصلوب غير المسيح ، وهم الذين استقوا عقيدتهم من أتباع المسيح الخصوصيين، — الحواريون — وقد حكم مجمع نيقية بتدمير هذا النوع من الأناجيل ، واضطهاد أصحابها ، وإفنائهم وإفناء كتبهم تدرجيا على مر العصور .

أما الصنف الأول وهم : التلاميذ الأحد عشر — الخصوصيين — الذين كان عندهم الخبر اليقين، فإنهم منذ ليلة القبض على المصلوب هربوا واحتجبوا عن الأنظار، وقد ورد ذكرهم فى سفر الأعمال بأنهم ظلوا مختبئين خمسين يوما يلتقون فى إجتماعاتهم سرا ، ولا يعرف عنهم خبر ، ولا يظهر لهم أثر ، والأناجيل لم تأت لهم بذكر فى الأوقات العصيبة التى كان ينبغى أن يشهدوها بأنفسهم ، وذلك فى مثل وقت محاكمة المصلوب ، ووقت رفعه على خشبة الصليب ، ووقت موته ، ووقت إنزاله من على الصليب، ومشهد دفنه، فلم يظهر منهم أدنى اهتمام أو انشغال بسيدهم فى كل هذه

المواقف بحال من الأحوال — اللهم إلا ما تذكره الأناجيل عنهم من أخبار ضئيلة القيمة يشع من خلالها ملامح الوضع ، والتركيب المصطنع ، ومن ذلك ما سنراه ونفحصه من نصوص تؤكد كون المصلوب شخصا آخر غير المسيح ، وأن ظهور المسيح بعد حادثه الصلب يؤكد أيضا أنه لم يمت وأنه شبه لهم ، فالنصوص هذه أثبتت ضد المستهدف منها.

ومما يدل على معرفتهم نجاة المسيح رفضهم لخبر المجدلية حين أخبرتهم بأن المصلوب قام من القبر بعد موته(١) ، على ما سنعرفه فى حينه من هذا الكتاب.

ومما يرجح كون الحواريين يعتقدون نجاة عيسى أن السيدة مريم أم المسيح لم يظهر منها أدنى اهتمام لما أصاب المصلوب ، ولم تجزع لجميع الحوادث التى مر بها المصلوب .

وهذا يؤكد اعتقادها بأن الذى وقع عليه الصلب ليس ابنها ، بل هو عدو ابنها ، وأنها مسرورة شامتة بموته ، وسوء نهايته . وسوف نأتى على بيان ذلك بما سنذكره من نصوص الأناجيل الناطقة بخلاف ما يدعيه اليهود والنصارى من أساطير وأكاذيب أحاطوا بها نهاية هذا النبى الطاهر على الأرض .

وهذا يدل على تخبط الأناجيل فى ذكرها لحادثة الموت والقيام وأنها لم تزد عن كونها إشاعة روجها التلاميذ الذين لم يحضروا حادثة الصلب وما تلاها ، إن صح عدم إسهام بولس فى ابتداع هذه القصة .

---

(١) إقرأ مرقس ١٦ : ٩ ، ١٠ ولوقا ٢٤ : ١٠ ، ١١

الباب الثانى

من هو المصلوب ؟

هناك قاعدة يتفق العقل والدين على مضمونها ، وهى : « كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام النبوة ، فإن النبي لا ينطق عن الهوى ، وإنما نطقه وحي يوحى إليه .

ولم يقل أحد أن كتبة الأناجيل بعثوا إلى الخلق كأنبياء ومرسلين ، وإنما هم بشيرون - أى مبشرون بالإنجيل - كما هو اصطلاح الدين المسيحى .

أما أنهم كتبوه ملهمين عن طريق الروح القدس - ثالث الثالوث - فهو نوع من الإلهام قد انفردوا به دون سائر من بلغ رسالة الله إلى الناس من قبلهم ومن بعدهم .

ثم إنه لمن جزاف الكلام القول بأن قصة صلب المسيح وقيامه من الموت من قبيل الوحى أو الإلهام، لأنها ليست بلسان المسيح حتى يدعى أنها وحى إليه وإلهام، منه وليس فى وسع عاقل أن يقول: إن المسيح حكى قصة موته وقيامه كما هو مفصل فى الأناجيل من قبل أن يقع به ذلك ، وإلا كان هذا منافياً للمعقول .

ومما يقطع الصلة بينها وبين إلهاميتها أيضاً أنها ليست غيباً حتى يحتاج ذكرها إلى الهام أو وحي، وإنما هى سرد لحادثة وقعت لإنسان قبيل عيد الفصح من سنة ٣٤ ميلادية فى عهد الوالى (بيلاطس البنطى من قبل

(طيباريوس قيصر) فى مدينة أورشليم ، ولم يكن دور البشيرين فيها إلا رواة لما شاهدوه ، وقصاص لما سمعوه ، فعلام القول بالإلهام إذن؟

ثم إن الإصطلاح العام لدى أتباع الدين المسيحى أن الأناجيل — وهى المختصة برواية الصلب تفصيلا — أسفار تاريخية ، ولا مشاحة فى ذلك.

ولو كانت هذه القصة إلهامية فبالقياس: هل يصح أن يدعى من حفظ القرآن ورواه أنه ملهم به موحى إليه ؟ أو أن يدعى من حفظ التوراة وكتبها من مثل — عزرا فى أقوال الكثيرين من المحققين — أنه أوحى إليه بها كما هى عند موسى — عليه السلام — ؟ بالقطع لا يقول بذلك صاحب ملة

ومن كل ما تقدم يمكن القول: بأن كل قول قيل فى حادثة الصلب هو من وضع شهود عيان، يمكن أن يحكى وقائعها من شاهدها، سواء كان من التلاميذ، أو ممن لم يؤمن بالمسيح من اليهود، ممن شاهدها بحسب مظانه ومشاهداته ، واتباعاً للقاعدة المسبقة صدر هذا التقديم : بأن كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام النبوة، فإنه يمكن النظر فيما جاء فى الأناجيل بخصوص هذه الحادثة، وإخضاعه لمنهج النقد العلمى، طالما صح أن يكون محلا للنظر العقلى، حيث إن هذه القصة سرد لواقع حدث فى زمان، ومن هذا المنطلق نتناول فى هذا الباب — بمشيئة الله تعالى — تحقيق ما ورد من نصوص العهد الجديد خاصا بهذه الحادثة العجيبة .

فهى عجيبة فى التصور المسيحى لادعائهم :

أولا : نزول الإله، وتجسيده ، وعيشه بين الناس ، ثم موته وقيامه من الموت .

وثانياً : دعوى توارث الخطيئة من آدم — عليه السلام — إلى ذريته المتتابعة إلى يوم الدين .

وهي عجيبة أيضاً في نظر الإسلام من حيث :

أولا : رفع المسيح — عليه السلام — إلى محل كرامته من غير سابقة لهذا الحدث .

وثانيا : من حيث إلقاء شبهه على غيره، ليؤخذ بجريرة نفاقه وخيانته.

كما لا يفوتني أن يكون الفصل الأول من هذا الباب عرضاً موجزاً لنصوص من العهد الجديد تثبت تبديل إنجيل المسيح — عليه السلام — وأن الأناجيل المعتمدة التي حملت قصة الصلب والموت والقيام إن هي إلا أقوال قصاص ومؤرخين، وبإثبات ذلك لا يكون هناك — في اعتقادي — دعوى لمدع لا يستند في دعواه إلى سند أصيل يصلح أن تبنى عليه عقيدة .

الفصل الأول

العهد الجديد يثبت تبديل الإنجيل

يقول بولس الرسول : « إنى أتعجب
أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذى دعاكم
بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر . . . يوجد
قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل
المسيح » .   [غلاطية ١ : ٦، ٧]

لم يكتب الإنجيل الذى جاء به المسيح :

من المعلوم أن لكل رسول رسالة، ولكل رسالة كتاب ، فإذا كان المرسل هو رب العالمين ، فإن الكتاب يكون وحياً منه إلى من اصطفاه وكلفه بالرسالة إلى عباده، ورسول الله عيسى المسيح ممن اصطفاهم الله فكلفه بتبليغ المنهج الإلهى إلى بنى إسرائيل(١)، فهو رسول الله باتفاق المسيحين والمسلمين وهو نبى كذلك عند الطائفتين(٢) ؛

أما الكتاب المرسل به فهو الإنجيل ، قال تعالى حكاية عن عيسى — عليه السلام — « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً »(٣)

---

(١) متى ٥ : ٢٤

(٢) يوحنا ٨ : ٤٢

(٣) سورة مريم / ٢٠

وفى مرقس عنه أيضاً : «قد اقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل(١) وقد بلغ المسيح هذا الإنجيل عن الله فقال عليه السلام فى صلاته إلى الآب: «الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم »(٢) .

وقال بولس : «كل الكلام هو موحى به من الله »(٣) ، وهنا يمكن القول بأنه لابد وأن يكون الإنجيل الذى جاء به المسيح — عليه السلام — موجوداً مكتوباً ، إما بيد المسيح نفسه، أو بيد أى من أتباعه بإملائه هو، ومتابعة صحة المكتوب ، ومطابقته لما أتى به من الوحى ، وحراسته من العبث به طيلة حياته على الأرض على الأقل .

بيد أن النصارى يواجهون البشرية اليوم لا بإنجيل الله الذى آتاه الله المسيح بل بانجيل أو هى أناجيل تحكى بعضاً من سيرة المسيح ، وسيرة رسالته من وحى كل من متى ،ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، فإن ادعوا أنها أوحى بها إليهم طالبناهم بدليل كونها وحيا من الله ، ولا دليل على صدق الوحى إلا المعجزة ، ولا معجزة لأى منهم ادعاها لنفسه أو سجلها له التاريخ . .

وإذن فلم تخرج هذه الأناجيل عن كونها كتابات خاصة، وسير تاريخية عن المسيح ورسالته فى أحسن تقدير لها .

لابد أن يؤخذ فى الإعتبار أن الإنجيل المنزل على عيسى — عليه السلام — المؤيد تصديقه بالمعجزات يتسم بوضع كونه مصدقاً لما بين

---

(١) مرقس ١ : ١٥ واقرأ الآية من سورة المائدة/ ٤٦

(٢) يوحنا ١٧ : ٨ واقرأ يوحنا ٨ : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٨ ، و ١٤ : ٢٤ و ١٥ : ١٥

(٣) تيموثاوس الثانية ٣ : ١٦

يديه من التوراة ، ومكملا لمنهج التشريع السماوى لبنى إسرائيل ، ومرتبطاً بالتوراة ارتباط المكمل بما اكتمل به ، مع ضرورة الأخذ بالمنهج جملة واحدة دون انفصال أو انقطاع كما مر فى الفصل السابق، وكون النصارى يتخلون عنهما أو أحدهما يبعدهم عن التبعية للمسيح — عليه السلام — ومنهجه الذى جاء به ، وضرورة التزام النصارى بالعمل بما فى التوراة والإنجيل نطق به انجيل متى بقوله عن المسيح: «ماجئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات ... »(١) .

كما نطق القرآن بتصديقه لما بين يديه ، وذلك فى ارتباط الإنجيل بالتوراة وتصديقه على ماجاء به الإنجيل المنزل على المسيح عليه السلام، فقال تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين »(٢) ، فتطابق القرآن والانجيل على ضرورة تصديق الانجيل على التوراة وأرتباطه بها ، وتصديق القرآن وهيمنته عليهما .

ولكن البحث وراء إنجيل بفم المسيح ولسانه جرى وراء سراب إذا جاءه طالبه لم يجده شيئاً .

والتشبث بأهداب الأناجيل المتداولة على أنها إنجيل المسيح ذاته تمسك بخيط هو أوهى من خيط العنكبوت ، إذ يبطل كونها وحيا ما فيها من اختلاف وتناقض، وهذا هو سيما مكتوبات البشر ، فهى لم تتسم بالعصمة من الخطأ ، قال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »(٣) .

---

(١) متى ٥ : ١٧—١٩ (٢) المائدة/٤٦ (٣) النساء/٨٢

فإن كان فيها من قضايا تبدو صادقة، فإن صدقها لم يصل إلى درجة اليقين، إلا ما كان فيها متفق مع وحى السماء، بأن كانت هذه القضايا مستمدة من التوراة ، وصدق عليها القرآن الكريم، وأكد عليها بذاتها ، ،

« ومن أصدق من الله حديثا (١) « ومن أصدق من الله قيلا »(٢)

« ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »(٣)

وإنما قلنا إن البحث عن إنجيل هو بذات فم المسيح ولسانه هو جرى وراء سراب ، ذلك لأن المسيح لم يكتب الإنجيل المنزل عليه ، ولا أملاه على أى من أصحابه لكتابته . بل ألقاه شفاها كما يذكر المحققون من المسيحيين ، وتلك حقيقة تاريخية لاخلاف فيها — فقد ترك المسيح الإنجيل فى الصدور دون السطور إلى أن رفع ، وما دون النصارى مكتوباتهم الإنجلية المتداولة إلا بعد المسيح بقرابة الأربعين سنة على أقل تقدير ،

وأيضاً فإن هذه المكتوبات — المسماة بالأناجيل — لم تسند إلى المسيح — عليه السلام — بل أسندت إلى كاتبيها — إن صحت نسبتها إليهم، كسير ذاتية، وتاريخية للمسيح ، ومفتتح إنجيل لوقا خير شاهد على ذلك ، وماتضمنته هذه الأناجيل مسندا إلى المسيح إن هو إلا شذرات لا تسمن ولا تغنى من جوع فى مجال التشريع ، وفهم العقيدة والسلوك ، ولا تعطى منهجاً متكاملا ينبىء عن كونها منهج رب العالمين ، وحين نجد الجد لمعرفة مصير الإنجيل المنزل على عيسى — عليه السلام — تطالعنا نصوص كثيرة فى (العهد الجديد) تخرجنا من حيرتنا ، فتجيبنا بالقول الصريح :

توقف أيها الباحث عن حقيقة الإنجيل السماوى ، وهدىء من روعك

---

(١) النساء / ٨٧ (٢) النساء / ١٢٢

(٣) النور / ٤٠

فلدينا هدايتك من حيرتك : إن إنجيل المسيح المنزل عليه قد تناولته أفكار المذاهب، والطوائف، بالتأويل، والتحريف، وعصفت به المذاهب، وهى متقابلة متضاربة فى شأن المسيح ورسالته ، فذهبت به كل مذهب ، حتى ضاعت حقائقه وتاهت معالمه ، ولم يبق منه فيما كتب عنه إلا اسمه ،

من أدلة تبديل الإنجيل السماوى :

أسوق إلى القارىء بعضا من النصوص التى تنبىء عن تغيير الإنجيل السماوى، والمخبرة عن تبديله ، حتى تسربل بسرابيل المذهبية الطائفية .

فمن هذه النصوص :

أولا : يقول بولس فى رسالته إلى أهل غلاطية : « إنى أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذى دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر ، غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح »(١)

فقول بولس « إنجيل آخر » وقوله: « يحولوا إنجيل المسيح » يدل على أنه قد ظهرت أناجيل مخترعة غير إنجيل المسيح .

والمفهوم من هذه الرسالة بوجه عام ومن هذا النص بوجه خاص ، أن الذين اعتنقوا مذهب بولس وصاروا فى حزبه ومريديه، قد ارتدوا عنه وتركوا مذهبه ، وجحدوا الإنجيل الذي بشرهم به ،وآمنوا به ، وتنصروا على مذهب دعاة آخرين ، قد بشروهم بحسب إنجيل آخر . فلما بلغ بولس أمرهم هذا الذى صاروا إليه ، كتب إليهم — أى إلى أهل غلاطية — هذه الرسالة المفعمة بالسخط والغضب يعنفهم ويؤنبهم على هذا الانتقال

---

(١) إصحاح ١ : ٦ ، ٧ :

متهماً دعاة ذلك المذهب بأنهم ضالون، مضلون ، يريدون أن يغيروا دين المسيح بابتداعهم إنجيلا آخر غير إنجليه .

ومما لايخفى على لبيب أويشك فيه أريب أن أولئك الدعاة قد طعنوا فى بولس وإنجيله أيضاً واتهموه بنفس تهمته لهم . وربما كان غضبهم عليه أنكى وإنكارهم له أشد وأقوى .

ثانياً : فى رسالة أخرى لبولس إلى أهل (كورنثوس) — الرسالة الثانية إليهم — نجده يحذرهم من مبشرين آخرين ، يتهمهم ، ويطعن فيهم وفى مذهبهم ، كما فى النص المذكور فى البند السابق ، فيصف هؤلاء المبشرين المبدلين للإنجيل والمحولين لدين المسيح بقوله :

«إن مثل هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ، ماكرون يغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح »(١) .

ومعنى هذا أن هناك أناسا ظهروا متنسكين متسربلين لباس التقوى يخدعون الناس بقولهم : نحن رسل المسيح تظاهراً منهم ، والحال أنهم كذابون، ماكرون، ولابد أن يستندوا فى دعوتهم إلى كتاب يدعونه إنجيلا.

ومما لايخفى على ذى لب ، أو يشك فيه حصيف أن هؤلاء الذين يطعن فيهم بولس ، كانوا يصفونه بنفس ماوصفهم به ، وقالوا فيه بنفس مقالته فيهم .

ودليلنا على ذلك ماذكره (برنابا) فى حق بولس من كونه ضل عن الطريق المستقيم الذي أتى به المسيح ، فكان فى عداد الضالين الذين بشروا بتعليم جديد ، وهو دعوته بأن المسيح ابن الله وبإنجيل جديد ، وهو تعليم فى أعلى قمم الكفر ، يقول برنابا فى مفتتح إنجيله :

---

(١) إصحاح ١١ : ١٣

« أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هـــذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل فى عدادهم أيضاً بولس، الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتى ليسوع، لكى تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا فى دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً » .

وبرنابا هذا تلميذ من تلاميذ المسيح المخلصين بنص العهد الجديد (٢)، وقد رأى المسيح وسمعه وأخذ عنه ، وها هو يروى ما سمعه ورآه، بخلاف برلس الذى لم يتح له مثل ذلك ، وبولس كان صديقاً لبرنابا، ربما قبل انحراف بولس ، وهو الذى شهد له أمام الحواريين بالإيمان . ولولا هذه الشهادة ماصدق الحواريون إيمانه(٣) .

وكثيراً ما كان بولس يفتخر بهذه الصداقة التى ذكرت كثيراً فى سفر أعمال الرسل على لسان بولس نفسه ، وحين انحرف بولس تركه برنابا واعتزله ، ثم بين رأيه فيما صار إليه من الضلال المبين فى إنجيله هذا والذى بموجبه اعتزل صداقته . كما أن برنابا أحد المبشرين المرسلين من المسيح إلى قرى بنى إسرائيل ومدنها .

ثالثاً : جاء فى رسالة بطرس الثانية نص يصف رسائل بولس فى العهد الجديد بأنها رسائل غامضة ، وغموضها أدى إلى تحريفها وتزييفها .

(١) إفتتاحية إنجيل برنابا : ٢ — ٩ طبعة المنار بالقاهرة ١٩٠٧ م ترجمة الدكتور/خليل سعادة

(٢) إقرأ أعمال الرسل ٤ : ٣٦ ، ٣٧

(٣) أعمال الرسل ٩ : ٢٦ — ٢٨

وينتقد بطرس فى الوقت نفسه من يحرف هذه الرسائل بخاصة، والكتب الدينية بعامة .

يقول بطرس : « إن رسائل بولس فيها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كما يحرفون الكتب أيضا لهلاك أنفسهم » [٣ : ١٦] .

فهذا دليل آخر إلى الدليل السابق يبين أن ما اتهم به بولس غيره من المبشرين والمعلمين فى الدين بالزيغ والانحراف قد اتهموه أيضا بمثل ما قال فيهم ، إذن فالدين الذى أتى به عيسى عليه السلام، لم يبق على حاله كما أنزله الله تعالى ، ولم يستمر على المنهج الذى بشر أتباعه به ، بل أخذ من بعده ينشعب إلى اتجاهات أخرى ليست من الدين فى شىء .

كما يتبين لنا من هذا أيضا أن الأيدى قد لعبت بالكتب الدينية من العصر الأول للمسيحية ، حتى تغيرت عن أصولها بسبب التحريف والتزييف .

رابعا : يذكر يوحنا فى رسالته الأولى تحذيرا لأتباعه ومريديه من السير وراء الغالين المضلين الذين يدعون انتسابهم إلى الدين باسم المسيح، والحال أنهم أضداد المسيح ، فيحذرهم من تصديقهم فيما يزعمونه من الدعوة باسم الإنجيل ، لأنهم يدعون النبوة باسمه كذبا ، يقول يوحنا : « أيها الأولاد ، كما سمعتم أن ضد المسيح يأتى قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون ... منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا ، لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا » .... إلى أن قال : « ولا حاجة بكم أن يعلمكم أحد » (١) ثم تابع تحذيره فى هذه الرسالة أيضا بأن لا يصدقوا هؤلاء الكاذبين فقال : « أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح ... لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم » (٢) .

---

(١) رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١٨، ١٩، ٢٦، ٢٧   (٢) السابق ٤ : ١

ومن هنا يظهر جليا أن دعاة التبشير بدين المسيح قد كثروا فى ذلك العهد، وأنهم كانوا دخلاء على غير علم، وكانت طرائقهم مختلفة متناكرة تدعو إلى التفريق والشقاق.

خامسا: جاء فى رسالة يهوذا أخو يعقوب: «إنه قد دخل خاسة أناس قد كتبوا منذ القديم لهذه الدينونة فجار، يحولون نعمة إلهنا ... هوذا قد جاء الرب ... ليصنع دينونة على الجميع، ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم ... وعلى جميع الكلمات الصعبة التى تكلم بها عليه خطاة فجار ... إنه فى الزمان الأخير سيكون قوم مستهزءون سالكين بحسب شهوات فجورهم، هؤلاء هم نفسانيون لاروح فيهم»(١).

فهذا يهوذا ينتقد فى رسالته الذين دخلوا فى الدين خاسة، وكتبوا كلاما صعبا على المسيح، كله خطأ، وفجور، وخروج عن الدين الصحيح، مستهزئين به.

سادسا: جاء فى رسالة بطرس الثانية يخاطب أتباعه ويحذرهم من معلمين كذبة يقولون على الله وعلى مسيحه بغير الحق: «كان أيضا فى الشعب أنبياء كذبة، كما سيكون فيكم أيضا معلمون كذبة، الذين يدسون بدع هلاك ...» إلى أن قال: «كان خيرا لهم لو لم يعرفوا طريق البر من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة إليهم»(٢).

فهذا كلام يدلنا على أنه كان هناك أناس دعاة، دخلاء على الدين، أقحموا أنفسهم فى النصرانية، وأخذوا ينشرون الدين بطرق معوجة تخالف المبادىء الصحيحة التى تسلموها من معلمهم.

---

(١) إقرأ رسالة يهوذا فقرات ١٤، ١٥، ١٨، ١٩

(٢) إصحاح ٢ : ١، ٢١

سابعا: جاء فى متى أن المسيح — عليه السلام — قد سبق وأخبر تلاميذه بكل هذه الأمور حيث قال لهم: «أنظروا لا يضلكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين... ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين... حينئذ إن قال لكم أحد هوذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا، لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات عظيمة وعجائب يضلون لو أمكن المختارين أيضا»(١).

ثامنا: جاء فى متى أيضا نص يرويه عن المسيح — عليه السلام — يحذر فيه أتباعه عن أن يقوم أحدهم بدور المعلم للدين غير عيسى — عليه السلام — فهو وحده الذى يقوم بدور المعلم والمرشد والداعية، يقول متى عن المسيح مخاطبا «لا تدعوا معلمين، معلمكم واحد هو المسيح»(٢).

وفى قوله هذا نبوءة منه — عليه السلام — تخبر عن هؤلاء المتنبئين باسمه فى مستقبل الزمان ممن يدعون تبعيتهم له، ويحذر فى الوقت نفسه من مغبة ذلك.

تاسعا: إن بولس يحذر الأتباع من الذين يحولون دين المسيح بواسطة انتقالهم إلى إنجيل آخر ومع ذلك نجده يجعل نفسه معلما كشخص المسيح متجاهلا تحذيرا المسيح فى البند السابق فيقول: «أنا ولدتكم فى المسيح يسوع بالإنجيل... كما أعلم فى كل مكان فى كل كنيسة»(٣).

من كل ما تقدم من نصوص ذكرناها من العهد الجديد نعلم: أنه بعد نهاية حياة المسيح على الأرض، ظهر دعاة كثيرون زاعمين أنهم رسل المسيح،

---

(١) متى ٢٤ : ٤، ٥، ١١، ٢٣، ٢٤ ومرقس ١٣ : ٢١ — ٢٣

(٢) متى ٢٣ : ١٠

(٣) كورنثوس الأولى ٤ : ١٧

المبشرون برسالته، فى طول البلاد وعرضها، يدعون إلى دين المسيح على منهج آخر، وبالتالى على كتاب آخر كما ذكر بولس، وتنتهى بهم الدعوة إلى مناهج لا صلة لها بدين الله رب المسيح وإلهه، ومن عجب أن يدعى هؤلاء أنهم مبشرون، بينما حقيقة أمرهم أنهم دجالون، ضالون مضلون بشهادة الكثيرين من أصحاب الرسائل المعترف بها ضمن أسفار العهد الجديد، ومنهم بولس، وبطرس، ويوحنا، ويهوذا، وغيرهم، والأعجب من هذا أيضا أنهم جميعا يكذب بعضهم بعضا، ويطعن كل منهم فى الآخر، ويرفض كل فريق منهم مناهج الفريق الآخر، وكل يدعى وصلا بالمسيح والمسيح — عليه السلام — لا يقر لهم انحرافهم عن دين الله باسم المسيح، ومن هنا سارت مبادىء الملة على التنافر، والتفريق، وتعدد المذاهب والشيع، فصدق عليهم قول الله سبحانه وتعالى — «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم»(١).

وعليه كان لكل حزب إنجيل ينكر سائر الأناجيل ومذاهبها الأخرى. ومما ينبغى ذكره أن الأناجيل فى القروق الأولى للمسيحية زادت عن سبعين إنجيلا فى أقل تقدير حسب المصادر المسيحية.

تأسيس العقيدة واختيار الأربعة أناجيل :

وهنا قد يبدو سؤال مفاده : ما لذى أرجع السبعين إنجيلا أو أكثر إلى أربعة أناجيل ؟

والجواب : أن النصرانية ظلت عقيدة مضطهدة من بنى جلدتها اليهود ومن الوثنين على سواء، حتى كانت الوثنية — وهى دين النظام وجمهور الإمبراطورية — تتجاذب النصرانية لتحتويها وتصبغها بصبغة الوثنية.

---

(١) الزخرف/٦٥

وذلك طيلة ثلاثة قرون من بعد المسيح — عليه السلام — حتى اعتنق الإمبرطور قسطنطين النصرانية بعد أن كان يدين بالوثنية، ورأى كثرة الأناجيل التي تبعها اختلاف العقيدة في المسيح وتعددها، فجمع رجال الكنيسة في مجمع مشهور هو (مجمع نيقية) بآسيا الصغرى عام ٣٢٥ ميلادية، فاختاروا من تلك الأناجيل الكثيرة هذه الأربعة المتداولة اليوم، ورفضوا ماعداها، وحكموا بكذبها، وإبعادها، وكفر من يدين بها أو يحوذها، وحملوا سائر ممالك الإمبراطورية على اعتناق ما قرره هذا المجمع، ومن غير شك فإن أصحاب هذه الأربعة قد اتهموا من خصومهم بالتبديل والتحريف كما سبق بيانه.

ومن عصر الملك (قسطنطين) كان ابتداء النصرانية دينا رسميا بعد أن مضى على رفع المسيح ثلاثة قرون، وخلال هـــذه القرون الثلاثة تعددت وتشعبت العقيدة في المسيح مثلما تعددت الأناجيل، وخلال ذلك تسللت عقيدة صلب المسيح فداء وكفارة عن الخطيئة المتوارثة — وهي في أساسها عقيدة وثنية — كما تأسست خلال هذه الفترة قواعد الملة، لا على أساس كتاب الله المنزل على عيسى — عليه السلام — ولكن على قصص تاريخية أسموها بالأناجيل، وعلى مقالات ورسائل وضع فيها بولس قواعد اللاهوت المسيحي، وعقيدة الصلب والفداء هي القاعدة العريضة لما أسس من قواعد وعقائد هذا اللاهوت، والسبب في هذا الدخل هو فقدان الإنجيل الحقيقي، فلو أن شيوخ الكنيسة حصلوا عليه مكتوبا في صحيفة من أول عهدهم بالمسيح ثم ظهر في عصرهم إنجيل آخر يخالف إنجيل المسيح لسارعوا إلى إعدامه وإعـــدام مصنفه، ثم لا يتجاسر أحد على أن يدعي الرسالة أو يبشر على طريقة أخرى، لظهور غشه وإلحاده وهو طقته فيستوجب الحكم الشرعي بالعقاب الرادع.

والدليل على فقدان الإنجيل الحقيقي الذي آتاه الله المسيح — عليه

السلام — غير ما سبق هو شهادة إنجيل يوحنا نفسه حيث جاء فى نهايته : « وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم يسع الكتب المكتوبة »(١).

وقوله أيضاً : « وآيات أخر كثيرة صنعها يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب »(٢).

والقرآن الكريم وهو المصادق لما بين يديه من الكتاب ، قد صادق على ذلك.

يقول الله تعالى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به »(٣).

فهذه الآية الكريمة وما سبقها من شهادة إنجيل يوحنا تثبت لنا أمرين :

الأمر الأول : أن النصارى نسوا الكثير من آيات إنجيل المسيح ، وأسقطوا الكثير من مضامينه ، مما يدل على عدم صحة وصدق كتابهم.

الأمر الثانى : أن القرآن هو كتاب الله ووحيه إلى نبى الإسلام محمد — ﷺ — فإن إخبار القرآن عن نسيان النصارى لكثير من الإنجيل قد صدق على على مافى كتابهم ، وهذا ليس من الأمور التى تعرف بالحدس والتخمين ، أو بالفكر والنظر ، حتى يمكن أن يقال إن محمداً اهتدى إلى ذلك بفكره وعقله ، ولكن الذى يجب أن يعرف ويعتقد هو أنه عرف بالوحى إليه — صلى الله عليه وسلم — كما لا يصح أن يقال : إن محمدا قرأ كتب النصارى وعرف منها نسيانهم آيات كتابهم لأنه معروف فى كتبهم بأنه النبى الأمى الذى لا يقرأ تاريخاً ولم يخط كتاباً :

---

(١) نهاية إنجيل يوحنا.
(٢) يوحنا ٢٠ : ٣٠
(٣) سورة المائدة/١٤

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ... »(١) إلى آخر الآية . وفي هذا كان وصف القرآن له — ﷺ — بقوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون »(٢) نعم لو كان — ﷺ — يقرأ أو يكتب لارتاب المبطلون في الحق وشككوا فيه ، ولكن الله حكيم عليم . سبحانه وتعالى .

هذا ، ومن إعجاز الآية الكريمة التي تثبت نسيان النصارى لكثير من آيات الإنجيل ، أن هذا النسيان تسبب عنه اختلافهم في الدين فأعقبه التفريق والعداوة فيما بينهم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : « فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون »(٣) وتنكير (حظاً) في الآية للتكثير ، فالذي نسوه أكثر من الذي تذكروه فكتبوه . أما العداوة فهي ماتزال قائمة بين طوائفهم ، وستظل إلى يوم القيامة .

الأثر الذي ترتب على فقدان إنجيل المسيح :

إن خلاصة ما ننتهي إليه هو أن الكتب التي أنشئت بعد رفع المسيح وهي (الأناجيل) قد استحدثت قضية ليس لها شيء من الحقيقة والواقع. تلك هي قضية صلب المسيح — عليه السلام — فقد شاع بين الفريقين من أهل الكتاب — اليهود والنصارى — أن الذي أمسكه اليهود وصلبوه في أورشليم هو عيسى ابن مريم — عليه السلام — وأنه بهذه الحادثة قد انتهت حياته إلى موته ، ثم دفنه ، ثم ادعوا قيامه من الموت ، وأثبتوا ذلك في أناجيلهم المكتوبة بأيديهم ، زاعمين أنها وحي من الله ،

---

(١) الأعراف / ١٥٧ (٢) العنكبوت / ٤٨
(٣) المائدة / ١٤

وصارت عقيدة مقدسة من قبل ظهور الإسلام بستة قرون ، إلى أن جاء الإسلام ، وأنزل الله القرآن ، فنفى تلك الإشاعة ، وقضى على تلك الفرية، وأبطل هذه العقيدة فقال تعالى : «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»، وقال تعالى : «وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه» ، ومن تاريخ نزول القرآن بكشف زيف الأناجيل في هذه القضية ، والجدل محتدم بين الإسلام والنصرانية في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وإننا بمشيئة الله مثبتون أحقية القرآن في كشفه اللثام عن حقيقة القول في هذه القضية ، بالأدلة الصريحة من الأناجيل الرسمية ، وفي الأناجيل ما يؤكد ويساوق منطوق القرآن ومفهومه في هذه القضية . وقد جعلتها الهدف المنشود لتأليف هذا الكتاب ، والله المسدد للخطى وهو من وراء القصد وبه نستعين .



الفصل الثانى

المسيح لم يقل إنه سيصلب

١ – لو أطلع منصف على الأناجيل التى أسست عليها العقائد المسيحية ، وتأمل بدقة مارونه عن حياه المسيح الرسول وسيرته ، وفهم ما روته من مبادىء تعاليمه ومواعظه، وإرساله تلاميذه إلى القرى والمدن الإسرائيلية ،وتنقلاته فيها مبشراً ومنذراً ، لأيقن أن المسيح مرسل من الله مثل موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وأن وظيفته فى الرسالة لا تختلف عنهما من حيث الدعوة إلى : التوبة ، وعبادة الله وحده لاشريك له ، وتبشير المؤمنين بالجنة ، وإنذار الكافرين بالنار . جاء فى سفر الأعمال (٣ : ٢٠، ٢١) (ويرسل الرب – يسوع المسيح المبشر به لكم قبل، الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شىء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر » ، فهو قد بشر بما بشر وتكلم به السابقون من الأنبياء . فهو نبى وسيط بين الإله الواحد والناس : يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح » (١)

٢ – ولو أعاد قارىء الأناجيل النظر كرتين لوجد أن المسيح – عليه السلام – لم يكتم عن قومه شيئاً مما جاء به من عقيدة، أو أصول شريعة الله وفروعها التى أرسل بها ، فقد قام بتبليغ الرسالة بتمامها دون أن يخفى شيئاً من تعاليم الإنجيل ، أو خبراً من الأخبار ماضياً كان أو آتياً . بل أخبرهم بكل شيء بدءا من عصرهم إلى قيام الساعة(٢) .

(١) رسالة بولس الأولى تيموثاوس ٢ : ٦

(٢) إقرأ متى فى إصحاح ٢٤ ولوقا ٢١ ومرقس ١٣ : ٢٣

فمن أين جاء المسيحيون بالمصطلحات الكهنوتية التى يجعلون منها أصول الديانة ؟

٣ — فإننا لو تصفحنا كتاب التوراة واطلعنا على ما فيه من كلام الأنبياء الذين بعثوا منذ إبراهيم — عليه السلام — إلى يحيى بن زكريا المسمى عندهم (يوحنا المعمدان) لما وجدنا كلمة واحدة من الكلمات التى يتشدق بها المسيحيون ويملأون بها كتبهم ونشراتهم مثل قولهم : اللاهوت، والناسوت، والآب ، والإبن ، والصليب ، والفداء ، والكفارة ، والموت، والقيام ، والمعمودية والغفران لبنى البشر من خطيئة أبيهم آدم ، ومثل : أقانيم ، وثالوث، وتجسد الكلمة ، واتحاد الإبن الأزلى ، وغير ذلك من كل ما يدور على ألسنتهم، ويقرأ فى كتبهم ، مع أن ذلك كله لا ذكر ولا أثر له فى ناموس موسى، ولا فى نبوات الأنبياء ، ولا فى أقوال عيسى عليه السلام ولا فى أقوال تلاميذه. ولم يخرج عن كونه : « يسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجمع الشعب » (١)

كما أن البشارات التى فى كتب الأنبياء وبشرت بمجىء عيسى وبعثه ما أنبأت عنه إلا كونه نبيا من البشر ، وليس فيها أدنى إشارة إلى أنه سيقتل، أو سيصلب ،أو سيقوم من الموت بعد القتل صلباً ، بل هى على العكس من ذلك ، فهى تنبىء عن أن الله تعالى سيعصمه وينجيه من كيد اليهود ويحفظه من أذاهم ومؤامراتهم .

٤ — وأنه لم يوصف فى هذه الكتب إلا بكونه نبياً أرسل إلى بنى إسرائيل : ولنقرأ كلام إشعياء فى حق المسيح «٤٩ : ٥» « قال الرب جابلى من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجد فى عينى الرب وإلهى يصير قوتى » .

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٩

إن أتباع الإنجيل يفسرون نص إشعياء على أنه بشارة منه فى حق عيسى وأنه يرمز إليه ، وينطق بلسانه ، ومضمونه أن المسيح عبد الله تعالى قد أرسله الله لهداية بنى إسرائيل ، وهذا يتفق مع قول متى (١٥ : ٢٤) « لم أرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »

فمن هذه البشارة وأمثالها نعلم أن ماقيل عن موضوع الصلب ، والتثليث وتأليه المسيح، إن هى إلا أمور لا أصل لها فى التوراة ، أو كتب الأنبياء . ولكنها مخترعات اجتلبت من عقائد لا صلة لها بدين السماء :

فإذا انتقلنا من بشارات التوراة بأن عيسى لم يزد عن كونه نبياً من الأنبياء إلى أحاديث الأناجيل التى تتحدث عن حياته قبيل بعثته نجد فيها وصف يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) للمسيح — عليه السلام — وهو المبعوث قبله وليس بينهما نبى — فيصفه وصفاً واضحاً لا غموض فيه ، وتكلم عنه كثيراً بأنه النبى الآتى بعده . ولم ينبىء عن شىء مما استحدثوه من ألوهيته أو صلبه ، أو موته . أو قيامته أو ما إلى ذلك .

يقول يوحنا (يحيى بن زكريا) ممهدا القلوب لاستقبال بعثة المسيح: «فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعياء النبى القائل صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب : اصنعوا سبله مستقيمة (١) « يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه »(٢) « فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه هو الذى يأتى بعدى الذى صار قدامى الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه »(٣)

---

(١) متى ٣ : ٣

(٢) مرقص ١ : ٧ ومثله فى لوقا ٣ : ١٥

(٣) يوحنا ١ : ٢٦ ، ٢٧

فقد رفعه يحيى فوق منزلته نفسه، لأن عيسى من أولى العزم من الرسل، ولكل درجات قال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض (البقرة / ٢٥٣) ومع ذلك لم يجر على لسان يحيى كلمة واحدة من الكلمات التى يقولها أهل التثليث، بل كل بشاراته بالمسيح أنه نبى، ولا يزيد على ذلك، حتى إن علماء التوراة من بنى إسرائيل لما سمعوا بظهور النبى يحيى ظنوا أنه عيسى المنتظر، يقول لوقا: « وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح »(١)

من هنا تعلم أن المسيح المنتظر ليس إلا نبى لأنهم حسبوه يوحنا، ويوحنا ليس إلا نبى، إذ لو كان المسيح المنتظر نبىء عنه بأنه إله لما حسبوه يوحنا المسيح، للبون الشاسع بين إله وإنسان نبى.

وفى الإنجيل الرابع أن علماء التوراة أرسلوا إلى نبى الله يحيى (يوحنا) يسألونه : «هل أنت هو المسيح أم لا ؟» فاعترف ولم ينكر وأقر أنى لست أنا المسيح »(٢).

فهذه شهادة من يوحنا بنبوة المسيح. فلو كان المسيح متميزاً عنه بالألوهية لما اشتبه الأمر بين يوحنا والمسيح على علماء التوراة وهم العالمون بمضامين النبوات فى التوراة وكتب الأنبياء.

فيستفاد من مضامين هذه البشارات من التوراة والممهدات لقرب بعثة المسيح، أن ما ادعاه أصحاب التثليث من خلق المسيح مؤلفاً من لاهوت وناسوت، وجعله أقنوماً برتبة الألوهية، وطبيعة ومشيئة لاهوتية وناسوتية وأن الله أرسله إلى قومه ليقتلوه صلباً فداء وكفارة عن خطايا البشر. وأنه ابن والله آب : إن كل ذلك إلا ابتداعات من محدثات شيوخهم

---

(١) لوقا ٣ : ١٥
(٢) يوحنا ١ : ٢٠

فى القرون المبكرة التالية لرفع المسيح — عليه السلام — وهو مما بثه بولس الذى نادى بأن المسيح مات ، وقام من الموت لأنه إله وابن إله .

وفى الحقيقة إن كل هذه المفتريات لا علاقة لها برسالة المسيح، ولا تمت إلى كتب الله بأدنى صلة ، وهذا هو ما أنبأتنا به الأناجيل والكتب السماوية بألسنة الأنبياء والمرسلين ، ووردت به الأحاديث النبوية ، بل قد أنبأتنا هذه الكتب : بأن الله عصمه من مريدى قتله ، وأن الله رفعه إليه ، وسيبقى حياً إلى حيث يعلم الله(١) تعالى من أزمنة الدهر .

فإذا وجدت أقوال تخالف ما ذكرنا فإنما هى إلحاقات وضعت بأيدى المحرفين والمسيح منها براء .

وإليك بعض هذه الإلحاقات التى لا تلبث أن يظهر بطلانها بعد مناقشتها والتدليل على زيفها :

من الإلحاقات المفتراة على المسيح :

فى حكاية متى عن المسيح انفرد بعبارة لم يذكرها غيره من كتبة الأناجيل ، واشترك بعبارة أخرى مع مرقس ولوقا ، وسنعرض كلتا العبارتين ونبين أنهما لم يصدرا عن المسيح .

فالعبارة التى انفرد بها متى هى : « ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه : تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يسلم ليصلب(٢)

---

(١) إقرأ يوحنا ٧ : ٣٣

(٢) متى ٢٦ : ١ ، ٢

مناقشة حول هذه العبارة :

لو نظرنا إلى هذه العبارة نظرة الفاحص الناقد لرأيناها غريبة عن سياق الحديث السابق عنها، واللاحق لها ، فالمسيح فى الإصحاح السابق كان يعظ تلاميذه ويحذرهم من الأنبياء الكذبة ، الذين يدعون باسمه من بعده بمواعظ وأقاويل لم يقلها ، كما كان ينذرهم بقرب يوم القيامة ، ويبين علاماتها ، ومنزلة الطائعين عند الله، وعقاب العاصين ، ويحثهم على العمل والاستعداد لذلك اليوم العظيم .

وفجأة يأتى هذا النص عقب هذا البيان دون مناسبة ممهدة لعرضه ، مما يدل على كون هذه العبارة مدسوسة أدخلت بيد أحد النساخ ، فقد عرفنا سابقاً أن التحريف كان شائعاً فى الإنجيل . ومبررات إلحاق هذه العبارة ودسها غير ماتقدم مايلى :

أولا : إن هذه العبارة لم يرد لها نظير فى إنجيل آخر من أناجيل العهد الجديد .

ثانياً : سكوت التلاميذ حينما سمعوها من فم المسيح ، وعدم اهتمامهم بالحديث عنها ، مع أن مضمون هذه العبارة خطير يثير القلق ، ويبعث على الاستفهام . مع أنهم كانوا يسألون عن كل مالا يفهمونه من حديثه مما هو أقل شأناً من هذا الأمر الخطير ،

إذ مضمونه قتل سيدهم الذى من أجله هجروا أهلهم وأحبابهم ، وآثروا صحبته على كل غال وثمين .

وهو فى الوقت نفسه يحبهم كما يحبونه ، فسكوتهم عن هذا الخبر الذى مضمونه (إعلموا أنى سأقتل) يقضى بأن هذه العبارة موضوعة

مدسوسة ، أللهم إلا إذا كان المراد بابن الإنسان شخص آخر لا يؤبه به ولا يهتم بشأنه .

أما العبارة الثانية التى اشترك فيها متى مع مرقص ولوقا ، فقد اختلف الثلاثة فى نقلها لفظاً ومعنى وتاريخاً ،

فرواية متى أن المسيح قال لتلاميذه : « ابن الإنسان سوف يسلم إلى أيدى الناس فيقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم فحزنوا جداً »(١)

أما رواية مرقس فتقول : « كان — المسيح — يعلم تلاميذه ويقول لهم : إن ابن الإنسان يسلم إلى أيدى الناس فيقتلونه وبعد أن يقتل يقوم فى اليوم الثالث وأما هم فلم يفهموا القول وخافوا أن يسألوه(٢) »

أما رواية لوقا فتقول : « وأخذ — المسيح — الاثنى عشر — تلميذا — وقال لهم : هانحن صاعدون إلى أورشليم وسيتم كل ماهو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان ، لأنه يسلم إلى الأمم ، ويستهزأ به ويشتم ، ويتفل عليه . ويجلدونه ، ويقتلونه ، وفى اليوم الثالث يقوم : وأما هم فلم يفهموا من ذلك شيئاً ، وكان هذا الأمر مخفيا عنهم ولم يعلموا ماقيل .(٣) »

---

(١) متى ١٧ : ٢٢ ، ٢٣

(٢) مرقس ٩ : ٣١ ، ٣٢

(٣) لوقا ١٨ : ٣١ — ٣٤

مبررات إلحاقية العبارة الثانية ووضعيتها :

١ — إن رواية متى تقول : إن التلاميذ حزنوا جداً ، والمعنى أنهم فهموا فحزنوا . أما مرقس فيقول : إنهم لم يفهموا كلام المسيح ، أما لوقا فيقول : إنهم لم يفهموا شيئاً أصلا .

فنرى أن هذا الاختلاف بين الأناجيل الثلاثة يقضى بكون المسيح لم يقل شيئاً مما ذكر ، وإنما هو خبر مختلق ، وأن كل كاتب من الثلاثة الإنجيليين كتب بحسب فكره وهواه ، أو أن النساخ تبادلوا هذا المعنى وكتب كل حسب رأى .

٢ — إذا تفحصنا جملة «وفى اليوم الثالث يقوم» نجدها لا تطابق الواقع ، ذلك لأن الأناجيل متفقة على أن المصلوب مات ودفن فى مساء الجمعة ، وأنه قام ليلة الأحد ، فيكون مكثه ما بين موته وقيامه نهارا واحداً ، هو نهار السبت ، وليس ثلاثة أيام ، وأما الليالى فليلتان ، هما ليلة السبت وليلة الأحد ، ويتأكد خطأ متى حسابيا أيضاً فى نص آخر حيث قال : «لأنه كما كان يونان — يونس عليه السلام — فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ، هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال (١) » فثلاثية الأيام والليالى يخطئها الواقع ، ويخطئها النص الذى حدد المدة الزمنية بين موت المصلوب وقيامه .

٣ — قول مرقس : (فخافوا أن يسألوه) أمر عجيب ، فالمسيح — عليه السلام — كان معروفا بالحلم ودماثة الخلق ، ورحابة الصدر ، ولين الجانب ، ولا عجب فهى أخلاق النبوة ، ولكونه نبيا يجب أن يسألوه عنه

---

(١) متى ١٢ : ٤٠

كل شيء، ولاسيما فى هذا الأمر المهم والخطير ، فكيف يفهم عاقل أنهم خافوا أن يسألوه؟ مع أن الأناجيل تذكر كثيراً أنهم كانوا يسألونه عن كل مثل يضربه لهم ولم يستطيعوا فهمه، فلماذا الخوف فى هذا الموقف بالذات ، ؟

٤ — يمكننا القول بأن المراد بابن الإنسان فى قول مرقس : إن ابن الإنسان يسلم — إلخ، ليس هو المسيح — عليه السلام — فيحتمل أنه لا يريد به نفسه ، وليس بلازم أن يريد به نفسه ، لأن لفظ ابن الإنسان يصدق على المسيح وعلى غيره ، وبما أن الخبر فى هذه العبارة عن شخص محتقر سيقع عليه أشد الإهانات وأقسى أنواع الإيذاءات ، من شتم ، وضرب، واستهزاء ، وبصق على الوجه ، وضرب على القفا ، وجلد ، وقتل ، ووطء بالأقدام ، فإن سكوت التلاميذ عند سماع هذا الخبر يدل دلالة واضحة على أن المقصود بابن الإنسان فى هذا الخبر ليس هو المسيح . لأنهم كانوا يحبون سيدهم إلى حد ألا يحتملوا عليه شيئاً من مثل هذه الإهانات التى يبعد أن تنسب إلى إنسان محترم ، فضلا عن كونه نبياً كرمه الله بالرسالة، ووصفه القرآن بكونه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وأن السلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا .

وعليه فالمتبادر من النص أن ابن الإنسان فى نص مرقس لا يعنى به المسيح ، بل إنه يخبر عن إنسان محتقر لا قيمة له ولا يهتم به حيا أو ميتا .

والدليل على ذلك أن المسيح حين أخبر تلاميذه بأنه سيرفع عن الأرض عاجلوه بسؤال يستفسرون به عمن هو ابن الإنسان ، هذا الذى سيرتفع عن الأرض ، يقول يوحنا عن المسيح :

« وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » . فأجابه الجميع

نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد ، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان ، من هو هذا ابن الإنسان ؟ » (١) .

فلو أن لفظ (ابن الإنسان) خاصا به ولا يصدق على غيره لسكتوا لعلمهم أنه يقول عن نفسه ، وليس هناك داع لأن يسألوه : (من هو هذا ابن الإنسان) .

ومن هنا نقول : كيف يستسيغ عاقل أنهم عندما يخبرهم برفعه يسألوه ، وعندما أخبرهم بصلبه وقتله لم يسألوه ؟ هذا يدعونا إلى الشك فى صحة رواية مرقس القائلة (خافوا أن يسألوه) .

٥ — هروب التلاميذ وفرارهم ساعة الإمساك بالمصلوب « فتركه التلاميذ وهربوا (٢) فهروبهم دليل قوى على أن المقبوض عليه ليس يسوع ، لأنه لو كان يسوع (المسيح) لما هربوا وثبتوا يناصرونه ويجاهدون فى سبيل إنقاذه لآخر نفس فى حياتهم ، ولو انتهى بهم الأمر إلى هلاكهم ، وإفنائهم ، لأنهم أنصاره الذين بين القرآن ثباتهم على عهدهم فى مناصرة الله تعالى ، والقرآن قرر ذلك بعد قرابة الستة قرون (٣) ، ولا معنى لمناصرتهم لله إلا بمناصرة رسوله .

ألا ترى أن بطرس كان يقول للمسيح حين أخبرهم باقتراب وقوع الحدث المفجع : « إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت (٤) » .

فهل يهرب صاحب المسيح ونصيره إذا رأى ما يدهم حياة سيده؟ كيف وهو لا يهاب الموت فى سبيل الله ونجاة سيده ؟

---

(١) يوحنا ١٢ : ٣٢ ، ٣٤ (٢) مرقس ١٤ : ٥٠

(٣) إقرأ الآية ٥٢ من آل عمران (٤) لوقا ٢٢ : ٣٣

إن المسيح — عليه السلام — حين أراد أن يجمع تلاميذه ليعظهم فى مساء ذلك اليوم قال لهم قبل أن يذهبوا إلى البستان : موطن اللقاء — « ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا ... فقالوا هوذا هنا سيفان فقال لهم يكفى »(١) .

فمن يقرأ تنبيه المسيح هذا على التلاميذ لا يرى أن المسيح ينوى تسليم نفسه للصلب ، وهل يفهم من هذا الكلام أن المسيح يخبر تلاميذه بأنه مزمع أن يقدم نفسه للصلب مختاراً ؟ كلا . إن الحق الذى لا شك فيه أن التلاميذ كانوا على إستعداد للدفاع عن المسيح سيدهم ، وتحمل كل ما يمكن أن يلاقون من اليهود أعدائهم ضده وضدهم ، فلا يجوز عقلا أنهم خذلوه ساعة المحنة وتركوه وهربوا ، أللهم إلا أن يكونوا منافقين فى حبهم له ، مرائين فى صحبته ، لأنهم بذلك يظهرون خلاف ما يبطنون ، أو يكونوا قد ارتدوا عن دينهم « وزاغوا كما زاغ يهوذا الخائن » ولكن هذا بعيد الاحتمال ، لأن يسوع المسيح قد سبق أن بشرهم بالجنة ، ودعا لهم بالخير والبركة واستثنى منهم يهوذا حيث قال فى أثناء دعائه : « الذين أعطيتنى حفظتهم ولم يهلك منهم أحــد إلا ابن الهلاك(٢) » والقرآن أثنى عليهم بإيمانهم ، وأشهدوا الله على إسلامهم الوجه إلى الله فقال تعالى : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون(٣) » .

إن الذى ينظر نظرة الإنصاف إلى نصوص الأناجيل يدرك تماما أن هروب التلاميذ لم يكن جبنا منهم أو خــوفا من أعدائهم ، وإنما تخليا وتباعدا عما حل بيهوذا من مصيبة وقع فيها ، فالأمر لا يعنيهم آنذاك ،

---

(١) لوقا ٢٢ : ٣٦ ، ٣٨ (٢) يوحنا ١٧ : ١٢

(٣) المائدة / ١١١

ولا شأن لهم به قطعاً ، لأن يسوع المسيح كان قد أخبرهم من قبل أن واحداً منهم سيرتد ويهلك كما جاء فى يوحنا السابق .

فلما وقعت الواقعة ، علموا أنه كان يقول عن يهوذا . وعرفوا أن الله قد أنجاه ، وأوقع يهوذا الخائن فى شر عمله ، وأسلمه لليهود فداء لرسوله .

ولهذا تنطق الأناجيل بأن التلاميذ لم يبد منهم أدنى اهتمام نحو المقبوض عليه ، ولا حضروا محاكمته فى بيت رئيس الكهنة ، ولا شهدوا صلبه ولا دفنه ، ولا زاروا قبره ، حتى إن السيدة مريم أم المسيح لم تحرك ساكنا ولم تتألم لصلب المصلوب . فلم تتابع ولم تسأل عنه ، وكل هذا يدل على أن الذى صلب ليس يسوع المسيح ابن مريم ، وإنما هو شخص لا يؤبه له ، ولا منزلة له عند التلاميذ ولا مكانة ، وكذلك عند السيدة مريم لا قيمة له ، ومن كل هذا يترجح لدى العقل أن المصلوب هو يهوذا الإسخريوطى وليس المسيح — عليه السلام — وسوف تأتى شواهد الإثبات على ذلك . فى الفصل التالى :



الفصل الثالث

المصلوب هو «يهوذا الأسخريوطى»

المشبه بالمسيح

قال داود — عليه السلام — عن خان المسيح
« جبا حفره فسقط فى الهوة التى صنع، يرجع
تعبه على نفسه ، وعلى هامته يهبط ظلمه »
[مزمور ٧ : ١٥ ، ١٦]

وقال عنـــه المسيح : « الذين أعطيتنى قد
حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك»
[يوحنا ١٧ : ١٢]

تتفق الأناجيل الأربعة على أن الخائن الذى أمكن رؤساء اليهود من القبض على يسوع المسيح — فى نظر كاتبيها — هو يهوذا الإسخريوطى أحد الحواريين الإثنى عشر ، لقاء أجرة قدرت بثلاثين من الفضة — عملة رومانية — لأن المسيح أخطر على مناصب رؤساء اليهود ، بل على الأمة كلها فى نظرهم .

ولكن الله للظالم بالمرصاد ، فمن حفر لمؤمن حفرة أوقعه الله فيها ، فما بالنا بمن دبرها لنبي ؟ فبإرادة الله تعالى دارت الدائرة على ذلك الخائن، وقبض عليه وسيق إلى الصليب ، والشاهد على ذلك هو إختفاء يهوذا عقب حادثة القبض على المصلوب مباشرة ، وقد رأينا الأناجيل الثلاثة : مرقس، ولوقا ،

ويوحنا، خالية من ذكر يهوذا ضمن الحواريين عقب وقوع الصلب ، فلم تخبرهذه الأناجيل عن مصيره بشيء ، ولا أين ذهب بعد تلك الحادثة .

ولكن إنجيل متى وحده هو الذى قال إن يهوذا قد انتحر ، وقد ناقضه فى الوقت نفسه ما جاء فى سفر الأعمال، وإليك المناقضة بين القولين والمقابلة بين النصين : [فى متى ٢٧: ٣—٦] [حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دين، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا ، قد أخطأت إذ سلمت دما بريئاً ... فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه » .

أما فى سفر الأعمال : « أن يهوذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم ، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها »(١) .

وبالمقارنة بين النصين يتبين ما يلى :

١ — هناك فرق بين كون يهوذا أرجع الفضة لليهود وبين كونه اشترى بها حقلا ، وفرق بين كونه خنق نفسه أسفاً وحزناً — عند متى — وبين أن الله انتقم منه فضربه فانشقت بطنه ، وانسكبت أحشاؤه كما فى سفر الأعمال.

والفرق بين الروايتين يثبت اختلافا يسقط كونهما نصين ينهضان للاستدلال، ولكنا نقول : إنهما تعارضا فتساقطا فلا ثقة فى مدلولهما!

٢ — تقول رواية سفر الأعمال إن يهوذا « اشترى حقلا » بالثلاثين من الفضة ، وتقول رواية متى : « إن يهوذا أصبح فخنق نفسه » .

وبالمقابلة بين الروايتين نفهم من سفر الأعمال أن يهوذا عاش بعد

(١) أعمال الرسل ١: ١٨

حادثة الصلب ، ولو أياما على الأقل، ليتمكن من شراء الحقل ، وهذا أمر يخالف الواقع ، لأن يهوذا لم يعش بعد الصلب ، بل فقد من ليلتها مباشرة بعد أن دل اليهود على المسيح ليمسكوا به .

فالاختلاف والتناقض بين روايتي متى وسفر الأعمال يؤدي إلى إسقاط الاستدلال بها، ويؤكد أن سبب إختفاء يهوذا عقب حادثة الصلب هو وقوع الصلب عليه ونجاة المسيح عليه السلام .

٣ ــ تتفق الأناجيل الأربعة ومنهم متى على أن رؤساء اليهود والشيوخ حينما أصبح الصباح عقب ليلة القبض على المصلوب قضوا سحابة يومهم عند الوالي لمحاكمته ، حتى إذا ما صدر الحكم عليه انتقلوا جميعاً إلى مكان الصليب ليشهدوا تعذيبه وموته ، ولما كان الصلب قد حددت وقته الأناجيل بأنه كان وقت المساء فبالطبع انصرف الجميع إلى منازلهم ، فإذا أخذنا هذا في الاعتبار فإنه يناقضه قول متى بأن يهوذا ذهب صباح اليوم التالي لليلة القبض إلى الشيوخ ، ورؤساء الكهنة ، وطبعاً هم لا يكونون إلا في الهيكل ليتمكن من اللقاء بهم ، وأعلن ندمه على فعلته ، ورد الثلاثين من الفضة إليهم ، فكيف يكونون في صباح اليوم التالي في الهيكل ، وفي الوقت نفسه هم عند الوالي في داره لمحاكمة المتهم ؟ فمتى هنا ناقض نفسه ، وفي الوقت نفسه اختلف مع الباقين ، وإذا كانت الروايات في الصلب مبنية على التناقض لم يصح الاستدلال بها بالقطع واليقين على صلب المسيح ، ومن هنا جاء القرآن الكريم بخبر الصدق في هذه القضية فقال تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

أدلة إثبات وقوع الصلب على يهوذا من الكتاب المقدس :

لقد ثبت بنصوص الوحي أن المصلوب هو غير المسيح ، وأنه يهوذا بعينه ، وإليك بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ — يروى إنجيل يوحنا أن المسيح ناجى ربه بأنه أكمل العمل الرسولى الذى كلف به ، ثم طلب من الآب أن يوفق التلاميذ ، وأن يعينهم ، وأن يحفظهم فى الإيمان به ، وأن يحفظهم من الهلاك إلا واحدا نعته بأنه « ابن الهلاك » كما أخبرت الكتب ، وفى بعض إصحاحات الأناجيل ما يدل على أن المسيح أشار على أنه يهوذا الإسخريوطى .

وإليك نص يوحنا فى شأنه : « حين كنت معهم فى العالم كنت أحفظهم فى إسمك الذى أعطيتنى حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب »(١) .

فالمراد بإبن الهلاك هو يهوذا الذى كان اسمه ضمن الإثنى عشر الحواريين، ولكن الشيطان إقتاده فأطاعه فكان من الهالكين ، وقوله «ليتم الكتاب » إشارة إلى أن الهالك هذا قد نبأ عنه الكتاب (المزامير) وإذا كان المسيح لم يفصح عن اسمه إلا بالإشارة التى تقارب أن تعينه ، فان الحوارى بطرس رئيس الحواريين قد صرح به ، وإليك البيان :

بينما كان التلاميذ مجتمعين فى غرفة بعد حادثة الصلب بأيام قلائل إذ وقف فيهم خطيباً وقال :

« أيها الرجال الإخوة كان ينبغى أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقال بفم داود عن يهوذا ...لأنه مكتوب فى سفر المزامير لتصر داره خراباً ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفته آخر »(١) .

فهذا بطرس رئيس الحواريين يخطب فى التلاميذ بأن الهلاك نصيب

---

(١) يوحنا ١٧ : ١٢

(٢) أعمال الرسل ١: ١٦ ، ٢٠

يهوذا ، وأن المسيح له النجاة من المؤامرة التى أحكمت لصلبه وموته ، وذلك لأن المسيح عليه السلام ليس له دار بنص الأناجيل ، بخلاف يهوذا الذى له دار يسكنها فالنص ينطبق على يهوذا .

٢ — إن حال المسيح وحال يهوذا مكتوب فى المزامير بفم نبى الله داود — عليه السلام — فالهلاك للشرير والنجاة للبار .

قال داود على لسان المسيح يصور ما سيكون من شأنه — وهو البــــار — وشأن يهوذا — وهو الشرير — (يا إله تسبيحى لا تسكت ، لأنه قد انفتح على فم الشرير وفم الغش ، تكلموا معى بلســـــان كذب ، بكلام بغض ، أحاطوا بى وقاتلونى بلا سبب بدل محبتى يخاصموننى ... فأقم أنت عليه شريراً . وليقف شيطان عن يمينه ، إذا حوكم فليخرج مذنباً ، ليكن بنوه أيتاما وامرأته أرملة . ليته بنوه تيهانا ، ويستعطوا ويلتمسوا خبزاً من خربهم ، ليصطد المرابى كل ما له ، ولينهب الغرباء تعبه ، لا يكن له باسط رحمة ، ولا يكن مترأف على يتاماه ... من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة ، بل طــــرد إنساناً مسكيناً وفقيراً ليميته ، وأحب اللعنة فأتته ، ولم يسر بالبركة فتباعدت عنه ولبس اللعنة مثل ثوبه ... هذه أجرة مبغضى من عند الرب ، وأجرة المتكلمين شرا على نفسى ،أما أنت يارب السيد فاصنع معى من أجل اسمك لأن رحمتك طيبة فنجنى ... أعنى يا رب إلهى ، خلصنى حسب رحمتك وليعلموا أن هذه هى يدك أنت يا رب فعلت هذا . . .أحمد الرب جداً بفمى لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه ،(١) .

هذا النص هو الذى تشير إليه خطبة بطرس السابقة ، وهو كما ترى يصف الشاكى إلى ربه بأنه عبد صالح ، وبار تقى ، يناجى ربه وإلهه شاكياً

---

(١) المزامير مزمور ١٠٩

وسائلا أن يأخذ خصمه بظلمه، وأن يوقعه في شرك شره الذي دبره له بلا سبب، وقد وصف هذا العبد خصمه بأنه شرير، وصاحب غش ورياء، يضمر في قلبه الشر بدل الخير، والبغض بدل المحبة، يتظاهر بالمحبة بلسانه وهو في نفسه كاذب، ولا تنطبق هذه الأوصاف إلا على يهوذا، ولا يكون الشاكي لخصمه سوى المسيح عليه السلام

وإذا تابعنا معنى النص وما ينبيء به نرى أن قوله (فأقم عليه شريرا) دعاء صادر من المسيح، لأنه الشاكي إلى ربه بأن يسلط الله على خصمه شريرا أشد شرا ينتقم منه، وأن يلازمه الشيطان فيوقعه فيما نصبه من شراك الخيانة حسب قوله تعالى: «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون» (١).

أما قوله «وإذا حوكم يخرج مذنبا» فقد صارت قولته واقعاً نفذ في يهوذا، لأن الذي أمسكوا به ذهبوا به إلى الحاكم، وخرج من المحاكمة مذنباً محكوماً عليه بالموت، وإذا أدركنا أن المسيح لم يكن مذنبا، فان الوصف لا ينطبق إلا على يهوذا لأنه المذنب بخيانته.

وقوله: «ليكن بنوه أيتاما وإمرأته أرملة» مضمونه ظاهر بأدنى تأمل، فإنه لا ينطبق على المسيح إطلاقا بل ينطبق على يهوذا الإسخريوطي لأنه الذي له امرأة (زوجة) وله بنون أما المسيح فليس متزوجا وليس له بنين.

أما قوله في المزمور المذكور: «يا رب فاصنع معي من أجل اسمك لأن رحمتك طيبة فنجني، أعني يا رب خلصني حسب رحمتك» ثم قوله: «أحمد الرب جدا بفمي لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه».

---

(١) الأنعام/١٢٩

فإننا نرى هنا المناجى ربه الشاكى إليه خصمه يحمد ربه لأنه يقف بجانبه ، وهذا دليل قاطع على استجابة الله لدعائه ، وصرف المكروه عنه ، وتخليصه مما دبره له أعداؤه اليهود .

هذا ، ويرى المنصفون من مفسرى الكتاب المقدس بأن هذا المزمور ١٠٩ يشير إلى يهوذا فى أنه الذى أمسك به اليهود وقدموه للمحاكمة وصار بتهمته مذنبا فصلبوه للأمور الآتية .

١ — لأنه هو الذى له دار فصارت بموته خرابا وليس للمسيح دار .

٢ — وهو الذى له امرأة صارت بموته أرملة وبنون صاروا أيتاما وليس للمسيح شىء من ذلك .

٣ — أن المسيح وهو الذى نجاه الله من كيد اليهود فلم يمسكوا به ، ولم يصلب ، ولم يقتل ، فحمد الله على ذلك ، أما ، يهوذا فهو الذى أمسكوا به فلم ينج من الصلب والموت، بل نفذ فيه ما أراده اليهود من صلب وقتل وصدق الله تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وإذا تتبعنا أقوال الأنبياء من بنى إسرائيل نجد أن وقوع القتل والصلب على يهوذا أمر ظاهر غاية الظهور ، وإليك بعضا من ذلك .

٢ — جاء فى المزمور ٣٧ : ١٢ — ١٥ ما ينبىء عن المسيح أن الشرير يفكر ضد الصديق ، وحين سل السيف عليه تكسرت سيوفهم بقدرة الله تعالى وردت إلى صدورهم يقول داود : « الشرير يتفكر ضد الصديق ، ويحرق عليه أسنانه ، الرب يضحك به، لأنه رأى أن يومه آت، الأشرار قد سلوا السيف ومدوا قوسهم لرمى المسكين والفقير لقتل المستقيم طريقهم، سيفهم يدخل فى قلبهم ، وقسيهم تتكسر» .

٣ — فالشرير هو يهوذا يتفكر فى الغدر بالصديق وهو المسيح ،

وعظمة البارى فى تدبير آخر، هو أن يوم الشرير الذى فيه نهايته هو اليوم الذى دبره لنهاية الصديق، وأن ما أعده من طعنة مصوبة إلى صدر المسيح سترد إلى صدره وقلبه .

٤ — وفى مزمور آخر يجعل من يحفر حفرة لغيره يسقط فى الهوة التى حفرها لينال جزاء ظلمه فجاء فى الزمور ٧ : ١٥ ، ١٦ قوله : « جبا حفره فسقط فى الهوة التى صنع ، يرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه » .

وهكذا يقع الشرير فى جنس الشر الذى كان يتمناه للبرىء ، فذاق وبال غدره وظلمه .

٥ — وجاء فى أمثال سليمان ١١ : ٥—٨ « بر الكامل يقوم طريقه ، أما الشرير فيسقط بشره ، بر المستقيمين ينجيهم ، أما الغادرون فيؤخذون بفسادهم ، الصديق ينجو من الضيق ، ويأتى الشرير مكانه » .

فقد فسر الشارحون للكتاب المقدس أن هذا القول ينبىء عن أن يهوذا وهو الشرير المبغض للمسيح لما دبر الكيد للمسيح عاقبه الله تعالى ، بأن جعله فداء لرسوله وأوقعه فى شر عمله ، ويعتبر هذا وأمثاله معجزة من معجزات المسيح — عليه السلام — نبأت عنه أقوال الأنبياء فى العهد القديم .



بالعدل والرحمة ينجو البرىء ويؤخذ الظالم :

يقضي صحيح العقل وصريح النقل بأن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، أما البار التقى البرىء فإن الله معه ، فى الضيق ينجيه ، وينقذه من ورطات الأحداث وشر الغادرين ، وليس من المقبول فى جانب عدل الله ورحمته أن يعين الظالم ويساعده على ظلمه وغشمه ليفتك بالبرىء ، وهذا مايتفق عليه حكم العقل السليم وما أتت به نصوص الشرع الحكيم .

أما النصوص فقد ورد منها فى كتب أنبياء بنى إسرائيل فى العهدالقديم مايقرر هذا المبدأ العام الهام ، وهو نفاذ عدل الله بأخذ المجرم بجرمه ، وعقاب الشرير على شره ، وسوء عمله . كما قررت النصوص أن الله ينجى أولياءه ورسله فضلا منه تعالى ورحمه ، وإليك بعضاً من هذه النصوص كأدلة على ذلك ، وما أراها إلا واردة كإشارات إلى أخذ يهوذا بجنايته بدل الصديق عيسى — عليه السلام .

١ — قال داود — عليه السلام —: « الشر يميت الشرير ، ومبغضوا الصديق يعاقبون ، الرب فادى نفوس عبيده ، وكل من اتكل عليه لا يعاقب »(١) .

٢ — وقال داود أيضاً : « الشرير يتفكر ضد الصديق ، ويحرق عليه أسنانه ، الرب يضحك به لأنه رأى أن يومه آت ، الأشرار قد سلوا السيف ، ومدوا قوسهم لرمى المسكين والفقير لقتل المستقيم طريقهم ، سيفهم يدخل فى قلبهم وقسيهم تتكرر »(٢) وقد سبق ذكر هذه الإشارة فى هذا الفصل .

---

(١) المزمور ٣٤ : ٢١ ، ٢٢ (٢) المزمور ٣٧ : ٢ — ١٥

٣ — جاء فى أمثال سليمان قوله : « بر البار يقوم طريقه ، أما الشرير فيسقط بشره ، بر المستقيمين ينجيهم ، أما الغادرون فيؤخذون بفسادهم ، الصديق ينجو من الضيق ويأتى الشرير مكانه »(١) .

٤ — وفى سفر الأمثال أيضاً : « الشرير فدية الصديق ومكان المستقيمين الغادر »(٢) .

٥ — جاء فى كتاب الله العزيز قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(٣) .

فإذا كان يهوذا قد أضمر الشر لسيده ، ونافق فى صحبته ، وغش فى تبعيته له ، كما هو ثابت فى الأناجيل الأربعة ، فأحرى به أن ينطبق عليه القانون السماوى الذى أتت به نصوصه المقدسة ، فيلق شبه المسيح عليه ليقع فى هوة الحفرة التى حفرها له ، وإذا لم يكن لهذه الأدلة واقع فى التطبيق ، فلا مفهوم لها ، ولا فائدة فيها ، ولكن الله لا يكذب على أنبيائه ورسله .

وفى وسعنا أن نتساءل : أى الأمرين أرضى للنفس وأحرى بالتصديق ،؟ أن ينجى الله رسوله عيسى — عليه السلام — سالماً مكرماً ، أم ينتقم من الظالمين أعداءه — وهم اليهود — وأشدهم ظلماً من عاونهم على ظلمهم له فى تنفيذ جريمتهم فيه ؟

إن من عدل الله تعالى ورحمته معاً أن يجعل المنافق يهوذا فداء لرسوله البرىء البار التقى ، فذاق وبال ظلمه وغدره ، وعشمه كما دلت عليه أدلة الكتب ، ويتفق عليه حكم العقلاء .

---

(١) أمثال سليمان ١١ : ٥—٨ (٢) أمثال سليمان ٢١ : ٣٨

(٣) فصلت / ٤٦

الباب الثالث

أدلة الكتب المقدسة وشواهدها على نجاة المسيح من القتل والصلب

قال تعالى : « وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » [النساء / ١٥٧] .

تقديم :

لقد كان من معجزات المسيح — عليه السلام — إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وهذا قدر يتفق عليه المسيحيون والمسلمون، كما يتفقان أيضاً على أن المسيح قد أعطاه الله قدرة المرور من بين من يحيط به من أعدائه من غير أن يروه أو يحسوا به، فى الوقت الذى يريدون أن يتمكنوا من إمساكه للفتك به أو لتقديمه إلى المساءلة الدينية أو القانونية، قال تعالى يذكر عيسى بهذه المنة : « وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات »(١) وفى الإنجيل : « فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً من وسطهم ومضى هكذا»(٢) وذلك حين يعظ اليهود ويوبخهم على غلظة قلوبهم وسوء فعالهم.

ولقد زاد القرآن الكريم من معجزات عيسى — عليه السلام — بأن جعل منها خلقه من الطين طيراً فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وهذه لم يرد لها ذكر فى الأناجيل أو غيرها من أسفارهم المقدسة .

---

(١) المائدة / ١١٠ (٢) يوحنا ٨ : ٥٩

ومعلوم أن المعجزات أمور خارقة للعادة التى قضى الله بها فى ناموس الـكون، فيجريها الله على أيدى أنبيائه ورسله إظهاراً لصدق دعوى النبوة

والمعجزة أولا وأخيراً فعل الله عز وجل ، فمن ذا الذى يتجرأ على على الله فينكر مايجريه على أيدى هؤلاء المصطفين الأخيار من آيات خارقة للعادة ؟ اللهم إلا أن يكون معانداً ركب هواه وركبه شيطان إنس أو شيطان من جن أو كليهما ، لأنه ينكر مايراه ويشاهده ، ويحس به من غير شك ولا خفاء .

والمسيح عليه السلام فى جملته من أبهر المعجزات التى خلقها الله تعالى، بدءاً من نشأته من غير زرع بشر ، ومن نطقه فى المهد يبرىء أمه الطاهرة البتول ، ومن فعله المعجزات بإذن الله إلى أن كانت نهاية حياته على الأرض معجزة المعجزات برفعه إلى حيث تكريم الله له ، بل إن حياته بعد رفعه لمن الإعجاز الإلهى الذى لا يستطيع تصويره عقل البشر .

ومما تقدم نستطيع أن نقول : كيف يستسيغ النصرانى ولادة إنسان من غير زرع بشر — وهو إيجاد من عدم — ولا يستسيغ أن يهب الله المسيح خاصية الاختفاء عن أعين أعدائه، أو أن يتغير شكله ثم يلقى شبهه على آخر لحظة حصول الإرادة الإلهية إنقاذه ونجاته ، مع ملاحظة أن الإنجيل أثبت قدرته على الاختفاء وحبس أبصار الأعين من ناظريه حتى لا يشاهدونه ولا يبصرونه إذا قصدوه بأذى .

كيف يتقبلون أن يغير المسيح شكل الأبرص من منظره الجلدى الذى لا تقبله النفوس والطباع السليمة إلى أن يصير جلده ذا منظر حسن وبشرة ذات رونق بهيج ولا يتقبلون أن يتغير شكله ثم يلقى شبهه على آخر ليؤخذ مكانه ؟

إننا نعرض فى هذا الباب إن شاء الله تعالى الأدلة التى تثبت نجاة عيسى المسيح ابن مريم من القتل والموت بالنص والعقل وبالوسائل الخارقة للعادة بإذن الله تعالى .

الفصل الأول

قدرة المسيح على الاختفاء وحجب الأبصار عن رؤيته

قال تعالى : في شأن المسيح : « وإذ كففت بني
إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات » .
[سورة المائدة ١١٠]

في هذا الفصل نعرض ظاهرة عجيبة اختص الله بها المسيح ابن مريم — عليهما السلام — قد أثبتها الإنجيل ، وصدق عليها القرآن الكريم في الآية صدر هذا الفصل .

هذه الظاهرة تتمثل في أن المسيح كان يمسك أعين اليهود ، بمعنى حجبها عن الإبصار فلا يرونه ، وذلك حين كانوا يحيطون به يريدون إمساكه والقبض عليه لقتله ، فكان ينفلت من بين أيديهم من غير أن يشاهدوه أو يحسونه به ، يقول شراح المسيحية : إنهم كانوا يهجمون عليه ليمسكوه فلا يجدونه وكأنما هو نار قد انطفأت ، والآية المذكورة في عنوان الفصل تشير إلى أن الله بهذه الظاهرة — ومقدوراته لا تحصى — كف عنه عدوان بني اسرائيل في كل مواقف الضيق التي تعرض لها إلى أن كانت نهاية الكف عنه رفعه — عليه السلام — سالما كاملا .

ونسوق هنا أمثلة لذلك من الإنجيل على سبيل المثال لا الحصر .

١ — جاء في الإنجيل : « فقال قوم من أورشليم أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه وها هو يتكلم جهارا ولا يقولون له شيئا ، أليس

الرؤساء عرفوا أيضا أن هذا هو المسيح حقا ... فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يدا عليه »(١) .

والمفهوم من هذا الكلام أن قلوب اليهود كانت متحرقة غيظا من المسيح ، لأنه كان يقف صلدا ضد انحرافهم عن تعاليم التوراة وجوهر الدين ، لذلك كانوا مصممين على قتله والتخلص منه كما هو واضح ، ولكن الله كف أيديهم عنه فلم يتمكنوا من الإمساك به .

٢ — وفى أحد مواقف الوعظ والتبليغ كثيرون من الجمع لما سمعوا كلامه اختلفوا حول شخصيته ، فمنهم من قال إنه المسيح وهو النبى فى الحقيقة وآخرون قالوا إن المسيح لا يأتى إلا من بيت لحم . وهذا جاء من الجليل إلى غير ذلك ، ويحكى يوحنا نتيجة هذا الخلاف فيقول : « فحدث انشقاق فى الجمع لسببه ، وكان قوم يريدون أن يمسكوه ولكن لم يلق أحد عليه الأيادى »(٢) .

٣ — كان المسيح يعلم فى الهيكل يوما وحصل جدال بينه وبين الفريسيين — وهم طائفة متشددة فى التمسك بتعاليم التوراة — حتى تبرموا منه ولم يعودوا يحتملوه ، فأحكموا أمرهم للإمساك به ولكنهم لم يستطيعوا ، يقول يوحنا : « هذا الكلام — أى الجدال بينه وبين الفريسيين — قاله يسوع فى الخزانة وهو يعلم فى الهيكل ولم يمسكه أحد »(٣) .

ولو قرأنا الكلام الذى قاله لهم بعد هذا لوجدنا أنه تحداهم أن يمسكوا به لأنه يقول لهم : « أنا أمضى وستطلبوننى وحيث أمضى أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا »(٤) .

---

(١) يوحنا ٧ : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ (٢) يوحنا ٧ : ٤٣ ، ٤٤
(٣) يوحنا ٨ : ٢٠ (٤) يوحنا ٨ : ٢١ ، ٢٢

فأى تحد أكثر من هذا ؟ إنه يقول: لاتستطيع أيديكم الغادرة الشريرة أن تتناولنى ، لأنى فى حصن حصين هو كنف الله ربى فهيهات لكم أن تنالوا منى مأربا .

٤ — وفى محاورة بينه وبين اليهود ويبدو أنه هو نفس الموقت فى البند السابق واستحر الجدل بينهم وبينه حتى وصفوه بأن به شيطان ، وهو قال لهم بل أنتم أبناء إبليس ،تريدون أن تعملوا أعماله ،لأنه قتال للناس ولم يثبت فى الحق، لأنه كذاب فأنتم مثله» ولما اغتاظوا منه تناولوا حجارة ليرجموه ولكنهم لم يروه ، يقول يوحنا : «فرفعوا حجارة ليرجموه أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا من وسطهم ومضى هكذا »(١) .

فإذ تأملنا قوله : أما يسوع فاختفى ، وأنه مر من وسطهم هكذا ، أى مختفيا، أيقنا أن المسيح قد وهبه الله خاصية الاختفاء عن الأعين إذا أحكمت التدابير لرجمه وقتله ، أو الإمساك به لصلبه ، أو لأى مناسبة تقتضى ذلك ، وبهذا تتم نجاته من فاعلى الإثم ، ولاعجب فى هذا ، فإن المسيح رسول الله، ولم ولن يضيعه الله تعالى ، وقد قال الله وقوله الحق ، «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(٢) .

وقد وقع مثل هذا لنبينا محمد — ﷺ — مع اختلاف فى الظروف والملابسات وذلك فى ليلة هجرته ، ﷺ ، حين حاصر داره فتيان قريش وصناديدهم ليلا، وسيوفهم مشرعة متعطشة لدمه الشريف ، وما علموا أن يد الله فوق أيديهم ، وقوته قوتهم ، فخرج — ﷺ — مجتازا — أى

(١) يوحنا ٨ : ٥٩
(٢) غافر / ٥١

مارا — من وسطهم قارئا قول الله : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون »(١) حالة كونه متناولا التراب معفرا به جباههم ورؤوسهم ، تعبيراً عن حقارتهم ، وضعف قوتهم أمام قوة الجبار وقدرته ، ووضع التراب على الجباه عنوان ذلتهم وصغارهم .

وهكذا يتولى الله نصرة أنبيائه وأوليائه ، فهو القوى المتين سبحانه وتعالى ، فهل يترك الله أنبياءه ورسله دون حفظهم وحمايتهم ؟ كلا . فقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ، « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور »(٢) ، « وإن الله على نصرهم لقدير »(٣) ، « وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٤) .

ومثل ذلك أيضا كان إمساك أعين المتعقبين لأثره ﷺ وهو فى غار ثور ، ولو نظر أحدهم تحت رجليه لرآه — ﷺ — وصاحبه أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »(٥) ، إنها عناية الله ومن يحاد الله ورسوله باء بالخسران المبين ، « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »(٦) .

---

(١) ياسين / ٩
(٢) الحج / ٢٨
(٣) الحج / ٢٩
(٤) الروم / ٦
(٥) التوبة / ٤٠
(٦) المجادلة / ٢٠ ، ٢١

٥ — كان المسيح يعلم فى أورشليم فى فضيلة التواضع كصفة أخلاقية وأن من يتضع يكون ذا سلطان وقوة من الله ، ويين أنه بالنسبة لأتباعه كالراعى الصالح للخراف ، وحينئذ حدث انشاق بين اليهود بسبب كلامه هذا ، فنهم من كان يقول « إنه يهذى لأن به شيطان فلا تستمعون إليه ، وآخرون قالوا هذا كلام من ليس به شيطان ، وأخيرا تذمر مبغضوه ، وتوجهوا للقبض عليه قال يوحنا : « وكان عيد التجديد فى أورشليم ، وكان شتاء ، وكان يسوع يتمشى فى الهيكل فى رواق سليمان فاحتاط به اليهود ... فتناولوا أيضا حجارة ليرجموه . . . فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم ، ومضى أيضا إلى عبر الأردن »(١) .

إن من يقرأ هذا الكلام ويعرف أن المسيح يستطيع هكذا أن يفلت من بين صفوف خصومه دون أن يمسه أحد بسوء ، ألا يعتقد أنه يقدر أن ينفلت من خصومه ليلة هاجموه للقبض عليه ؟ ، فها هو أمامهم يمشى فى الهيكل غير مبال بما يضمره له قومه ، حسدا من عند أنفسهم ، ثم يخرج من أيديهم ويمضى إلى حال سبيله بسلام وأمان .

٦ — هناك قصة ذكرها لوقا أكثر تفصيلا من زملائه الإنجيليين هى أظهرها فى الدلالة على قدرته على إخفاء شخصه ، وحجب أعين ناظرين عن معرفته حتى وهو يحادثهم ويجلس معهم زمانا غير قليل ، مما يجعلنا ندرك أنه يستطيع ألا يعطى اليهود والجند فرصة للإمساك به ليلة القبض على المصلوب ، وأذكر هذه القصة هنا من نص إنجيل لوقا وهو يحكى قصة الصاب القيام من القبر ، حينما كان المسيح يمشى فى الطريق بعد قيامه ، وتصادف آنذاك أن التقى بتلميذين من تلاميذه قال لوقا :.

---

(١) يوحنا ١٠ : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠

« وإذا إثنان منهم كانا منطلقين فى ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس ، وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هـــذه الحوادث ، وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشى معهما ، ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته ، فقال لهما ما هذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين فأجاب أحدهما الذى اسمه كليوباس وقال له هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها هـذه الأيام ، فقال لهما وما هى ، فقالا المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب ، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ... ثم أقتربوا إلى القرية التى كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعـد ، فألزماه قائلين أمكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار ، فدخل ليمكث معهما ، فلما أتكأ معهما أخذ خبزا وبارك وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز ، وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم سلام لكم فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا فقال لهم انظروا يدى ورجلى إنى أنا هو جسونى وانظروا وحين قال لهم هذا أراهم يديه ورجليه » (١) .

وفى مرقس تصوير لهـــذا الموقف عينه باختصار شديد فيقول :

« وبعد ذلك — أى بعد زعم قيامه من القبر — ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم — أى من التلاميذ — وهما يمشيان منطلقين إلى البرية ، وذهب هذان وأخبرا التلاميذ الباقين فلم يصدقوا ولا هذين » (٢) .

---

(١) إقرأ الإصحاح الرابع والعشرين من لوقا .

(٢) مرقس ١٦ : ١٢ ، ١٣

ويمكننا بالتأمل الدقيق فى هذا الكلام أن نستخرج ما يلى :

١ — أن المسيح ظهر للتلميذين بجسده وشحمه ولحمه وعظمه ماشيا على قدميه من غير أن يصاب بسوء من قتل أو صلب .

٢ — أنه أمسك أعين التلاميذ عن معرفته أثناء سيره معهما إلى أن دخل الدار معهما حتى قدما له الطعام .

٣ — أنه أوتى القدرة على كشف الحجاب عن أعينهما حتى عرفاه .

٤ — أنه استطاع الاختفاء عنهما بعد أن عرفاه .

٥ — أنه تمكن من الدخول على التلاميذ ووقف فى وسطهم وسلم عليهم فلم يعرفوه ، حتى ظنوه روحا إلى أن كشف لهم عن شخصه فأراهم يديه ورجليه .

أليست كل هذه الاستنتاجات كافية فى اعتقاد أن لديه القدرة من الله على أن ينجو ممن أرادوا الإمساك به ليلة القبض على المصلوب وأن يلقى شبهه على غيره ليؤخذ مكانه ؟ .

٦ — ولا يفوتنا أن ننبه القارىء اللبيب إلى قول لوقا فى الحوار المذكور بين التلميذين والمسيح وهو قولهما عن حقيقة المسيح : « ألم تعلم الأمور المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » .

إنهما يحدوان هويته بأنه إنسان نبى مؤيد بالمعجزات ولم يذكرا فى تعريفه بأنه إله أو ابن إله ، أو أنه نزل من السماء ومزمع أن يصعد إليها ، إنه إنسان فقط ونبى فقط أتى بأدلة نبوته قولا وفعلا .

٧ — إذا عقدنا مقارنة بين ما جاء فى لوقا وما جاء فى مرقس بخصوص هذا المشهد نجد : أن مرقس يشهد شهادة صريحة بأن المسيح ظهر بهيئة أخرى للتلميذين المذكورين ، وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم « ولكن شبه لهم » وليس معنى التشبيه المذكور فى القرآن إلا إمكان تغير هيئته بهيئة أخرى غير المعهودة لليهود والتلاميذ المذكورين فى مرقس ولم تكن نجاته عليه السلام إلا بهذه الوسيلة كما أخبر القرآن الكريم .

٨ — قول مرقس : « وذهب هذان — أى التلميذان — وأخبرا التلاميذ فلم يصدقوا ولا هذين » .

هذا قول من أقوى الأدلة على عدم وقوع الصلب على المسيح — عليه السلام — بل هذا يؤكد نجاته من الموت ، فهم لم يصدقوا أن إنسانا يموت ثم يقوم من الموت ، لأن العادة لم تجر بذلك ، حتى إن التلميذين اللذين شاهداه لم يصدقا قيامه من الموت .

والذى يصح أن يصدق آنذاك أن يكون هو المسيح حقيقة من غير سابقة موت ، وأنه اختفى لحظة القبض على المصلوب ربما بعد تغيير هيئته كما ذكروا عنه ثم ظهر لهم بعد وقوع الحادثة سليما معافى إن صحت قصة ظهوره بعد هذه الحادثة ليظهر لهم كذب زعمهم أنهم قتلوه وصلبوه ، وذلك تحقيقا لقول الله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم »

هذا هو المستفاد من حكايتهم قصة صلبه المزعوم ، وفى الأناجيل الكثير والكثير من الشواهد على ذلك ، وأكتفى فى هذا المقام بما ذكرته وأبنته .

الفصل الثاني

شهادات الأناجيل بإمكان تغير شبه المسيح عليه السلام .

قال تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » [النساء/١٥٧]

تغير الشبه : هو عبارة عن تغير شبه الإنسان أو أى كائن من صورة يكون معروفا بها لأعين ناظريه حيث يبدو لهم بصورة أخرى غير معهودة لهم من قبل .

وقد سجلت الأناجيل شهادات عديدة تثبت إمكان تغير الشبه ، وتشهد بأن المسيح عيسى – عليه السلام – قد تغير شبهه فى عديد من المواقف حتى إن تلاميذه الخصوصيين ، – وهم الحواريون – كانوا لا يعرفونه أحيانا ، لأن أعينهم كانت تمسك عن معرفته ، وربما يظنونه شخصا آخر ، وهذه الشهادات صريحة فى الأناجيل الأربعة .

فمن يقرأ الأناجيل يجد أن ذلك واضح لاخفاء فيه ، ولتعدد ذكره فيها يظن القارىء أنه أمر عادى بالنسبة له – عليه السلام – .

وسواء كان إمكان تغير هيئته خاصية وهبه الله إياها كأمر خارق باعتباره نبيا ورسولا ، أم أن ذلك كان من ذاته باعتباره إلها فى إنظر من زعموه كذلك ، فكلا الاتجاهين يصحح به إمكان التشبه لآخر – وليكن يهوذا الإسخربوطى – بشبه المسيح ، وتغير هيئة المسيح بصورة لا يعرف فيها أنه المسيح حتى يمكن رفعه سليما معافى .

ومما يؤكد هـذا ما جاء فى إنجيل متى من أن المقبوض عليه حين أحضروه أمام رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود سأله كبير الكهنة، وهو رئيس مجلس القضاء الأعلى قائلا : « أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح(١) ؟ ».

مع أن هؤلاء الشيوخ ورئيس الكهنة كانوا يعرفونه جيداً، فطالما كان يلتقى بهم ويحاجهم، ويعظهم، ويندد بهم بتركهم العمل بشريعة الله كما جاءت فى التوراة.

فهذا دليل على أن صورة المسيح قد اشتبهت عليهم، حتى اضطر كبير الكهنة أن يستحلفه بالله الحى : «هل هو المسيح»؟

ويرجع السبب فى تردده فى تصديق أنه المسيح ما رآه بعينه من شخص يشبه المسيح فى صورته وهيئته : ولكنه ليس هو فى حديثه ومنطقه، ولا فى علمه وأخلاقه، ولا فى حججه وحكمته، فقد كانوا يرونه فى الهيكل يعلم كل يوم، ويحج كبار الكهنة فى علمه بالناموس : كما كانوا يحضرون مجالسه، ويتحققون من شكله وملامحه، ويستمعون إلى كلامه ليصطادوه بكلمة يوقعوه بها فى شرك السلطة المدنية، أو السلطة الدينية ليؤخذ بجريرته فلا يستطيعون.

لقد كان المسيح يعظ اليهود فى الهيكل كل يوم بلسان طلق، وثقة فى النفس، وقوة فى اليقين، وصلابة فى الحق، مجادرا وموبخا لهم .. إذا بهم يوم المحاكمة يرون رجلا خائر القوى، شارد العقل، مشتت الفكر، مندهشا مما حل به من انقلاب عجيب، وتورط لا يعرف كيف وقع فيه، من غير أن يرى لذلك سببا فى نظره، فأصبح لا يستطيع الكلام، ولا يعطى

---

(١) متى ٢٦ : ٦٣

فرصة يشرح فيها حقيقة أمره، أو توسلا ليصدقوا كلامه، كل هــذا جعل الأمر يختلط على الكهنة، حتى اضطر كبيرهم أن يسأله هذا السؤال الباعث على الريب فى شخصه: «هل أنت المسيح»، وكأن كبير الكهنة يقول فى نفسه: الصورة تشبه صورة المسيح وهيئته، ولكنه يختلف عنه طبعا وطابعاً، يختلف عنه فى ذاته ومنطقه، فى جرأته وشجاعته، وكل المكونات المعنوية والمعهودة لهم من خلق المسيح وطبيعته.

من هذا يثبت أن صورة المسيح قــد اشتبهت عليهم حتى صاروا مترددين فى الحكم على هويته.

هذا، وإكمالا لهذا الاستدلال أسوق النصوص والشهادات الدالة على تغيير شبه المسيح وهيئته من الأناجيل لإثبات نجاة المسيح عيسى من الصلب والقتل، تأييدا لقول الحق سبحانه وتعالى: «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيــه لفى شك منه مالهم به من علم إلا إتباع الظن، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما(١)».

وفى الوقت نفسه تكون هذه الأدلة والشواهد ذات اتجاهين نافعين بفضل الله تعالى:

الاتجاه الأول: إقناع المسيحى بأن المسيح يمكن رفعه حال تغير شبهه من صورة إلى أخرى لينجو من الصلب والقتل فضلا من الله ورحمة.

الاتجاه الثانى: يقين المسلم بأن القرآن الذى يدين به مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. ومن هذه الأدلة ما يأتى:

---

(١) النساء /١٥٧، ١٥٨

١ — جاء فى متى : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه ، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئته قدامهم، وأضاء وجهه كالشمس ، وصارت ثيابه بيضاء كالنور(١) » .

فهل هناك صراحة فى إمكان تغير هيئة المسيح وشكله أكثر من هذا ، وهذا التغير قد شاهده تلاميذه ، والمشاهدة كما يقول كثير من العقلاء أقوى دليل ، كما أن المشاهدة إحدى الأدلة البدهية فى الاستدلال على المطلوب إثباته .

فهنا يقر التلاميذ بأن التغير شمل تغير وجهه حتى صار كالشمس فى ضيائه ، وأن ثيابه صارت بيضاء كالنور زيادة على تغيير هيئته ووجهه .

فهل بعد هذا الكلام الصريح مجال للعناد والمكابرة ؟! إن الحق ظاهر وأحق أن يتبع ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، فليمتير أولو الألباب .

٢ — جاء فى لوقا : « وبعد هذا الكلام بثمانية أيام أخذ — أى المسيح — بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى ، وفيما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضا لامعا(٢) » .

هذه الحكاية فى لوقا مثل سابقتها، شاهدة بوضوح على إمكان تغير شبه المسيح وهيئة وجهه ، بل وهيئة لباسه أيضاً ، وحصول تغيير هيئته — عليه السلام إرهاص وتمهيد لإدراك الخارقة الأعظم التى ستقع مستقبلا ، حتى لا يحصل الإنكار والمعارضة لمثل هذا إذا وقع مرة أخرى

---

(١) متى ١٧ : ١ ، ٢ (٢) لوقا ٩ : ٢٨ ، ٢٩

لحظة القبض على المصلوب فينجو المسيح ويؤخذ غيره فدية له ، فوقوع تغير شبهه وهو يصلي فوق الجبل تلميح وإشارة إلى الطريقة التى ستكون بها نجاته ، خاصة وأنها وقعت بعد دعائه على الجبل وصلاته إلى الآب أن تعبر عنه ساعة الضيق المرتقبة ، وأن يجيز عنه كأس المنية المرتقب أن يشربها بتدبير أعدائه اليهود ، وقد استجاب الله له من أجل تقواه .

٣ — أما فى مرقس فجاء فيه : « وبعد ذلك ظهر — يسوع — بهيئة أخرى لاثنين من تلاميذه وهما يمشيان منطلقين إلى البرية(١) » .

فهذا دليل آخر على إمكان تغير هيئته ، وقد شاهد هذا التغير ورآه تلميذان من تلاميذه ، وفى هذا تأكيد لما جاء فى متى ولوقا السابقين .

٤ — قال لوقا : « وفيما التلاميذ يتكلمون وقف يسوع نفسه فى وسطهم ، وقال سلام لكم ، فجزعوا وخافوا ، وظنوا أنهم نظروا روحا(٢) » .

والذى يفهم من قوله « وظنوا أنهم نظروا روحا » أن عيسى — عليه السلام — فى هذه الساعة التى وقف فيها فى وسطهم بعد ظهوره قد تغيرت صورته إلى هيئة أخرى غير الهيئة التى اعتادوا أن ينظروها فيه ، ويعرفوها فى شخصه . ثم إنهم تأكدوا أنه ليس روحا خالصا لما أخذ منهم طعاما فأكل قدامهم (٣) .

٥ — جاء فى متى ضمن قصة الظهور أن عيسى — عليه السلام — لما ظهر لتلاميذه الحواريين ورأوه شك بعضهم فى معرفته(٤) .

---

(١) مرقس ١٦ : ١٢ (٢) لوقا ٢٤ : ٣٦ ، ٣٧

(٣) إقرأ لوقا ٢٤ : ٤٣ (٤) متى ٢٨ : ١٧

وهذا الكلام يعطى دليلا آخر على تغير هيئته إلى درجة أن يشك فى معرفته بعض تلاميذه .

٦ — ورد فى لوقا حكاية الإثنين من تلاميذه اللذين كانا منطلقين إلى قرية عمواس ، وكانا يتناجيان فى قصة نهايته ، ولما اقترب منهما يسوع سألهما عما يتكلمان !

فأخذا يذكران له أن الحديث إنما هو عن قصة إنسان نبى كان مقتدرا فى الفعل والقول — أى كان يأتى بأفعال معجزات وخوارق ، وكان ينطق بالحكمة ، ومحكم القول — وفى تلك الأثناء كان يكلمانه ولم يعرفاه ، لأن أعينهما قد أمسكت عن معرفته ، ولأن هيئته أمامهم متغيرة، ولما كشف لهما عن نفسه فى صورته الأولى عرفاه واطمأنا إليه، وألزماه أن ينزل الدار معهما وأحضرا له طعاماً فأكل معهما ، وبعد ذلك اختفى ولم يعرفا كيف انصرف عنهما(١) .

فهل بعد هذا ينكر عاقل أن المسيح بإمكانه أن ينفلت من القبض عليه والإمساك به ؟

٧ — يذكر يوحنا فى قصة ظهوره أن مريم المجدلية قد حضرت إلى القبر لزيارته ، فإذا به يكلمها ، فنظرت إليه ولكنها لم تعرفه ، بل ظنت أنه البستانى ، فسألته عن خبر يسوع المزعوم دفنه فى القبر ، ولما كشف لها عن هيئته عرفته ، فكلمته وتحاورت معه ثم تركته بعد هذه الحادثة(١) .

هذه سبع روايات ثابتة فى الأناجيل تثبت بصريح القول إمكان تغير

---

(١) اقرأ لوقا ٢٤ : ١٣—٣٢
(٢) إقرأ يوحنا ٢٠ : ١٥ — ١٧

شبه المسيح من صورته المعهودة للناس — بل لأصحابه الخصوصيين — إلى صورة أخرى غير معهودة لناظريه ممن يعرفونه كما يعرفون أنفسهم .

هذا فضلا عن الأدلة المذكورة فى الفصل السابق ، والتى تبين قدرته على الاختفاء عن أعين ناظريه ، وكلتا الحالتين — إقتداره على الإختفاء وإمكان تغير شبهه خارقتان منحهما الله سبحانه للمسيح تؤكدات قول الله تعالى : « ولكن شبه لهم » .

والذى يثير الدهشة والعجب أن ينكر المسيحيون إلقاء شبه المسيح على غيره ورفع الله له إلى محل كرامته وهو فى هيئة متغيرة لا يستطيع اليهود معرفته فيها ، مع اعترافهم فى الوقت نفسه بخارقة أعظم من هـــذا ، فهم يعترفون بأن عصا موسى التى كانت فى يده تغيرت ، بل انقلبت حقيقتها — وقلب الحقائق أبلغ فى إخرق العادة من حلول عرض فى جسم محل عرض آخر — فعصا موسى حقيقة جمادية فإذا بها تنقلب إلى حقيقة حيوانية فصارت حية تسعى ذات لحم وعظم ودم ، وروح لها حركة تهجم على ما صنعه السحرة من الحبال والعصى ، فتتلقفه ، وتلتهمه بفمها ، وتبتلعه فى جوفها ، ومع ذلك لا يظهر على بطنها زيادة فى حجمها ، أو إنتفاخ فى بطنها ، ثم بعد كل هذا يتناولها موسى بيده فتعود عصا كما كانت ، جمادا ساكنا ، لا حراك فيها ولا حياة(١) ، مع أن عصا موسى كانت معروفة لفرعون وحاشيته ، وقومه ، والسحرة ، فقد كان ذلك الحدث فى يوم الزينة ، وفى ضحوة النهار ، واتفقت أنظار الجميع كافة على مشاهدة تغير العصا وتحولها دون أن يختلف فى ذلك أحد من هذا الجمع الكبير ، ولم ينكر أحد تغيرها وتحولها من جماد إلى حيوان ثم جماد مرة أخرى .

---

(١) إقرأ سفر الخروج ٧ : ٨ — ١٣ واقرأ قصة ذلك فى القرآن من سورة الأعراف وطه ، والشعراء ، والنمل » والقصص .

وليس انقلاب عصا موسى آيته الوحيدة ، بل إن هذه العصا كانت وسيلة لآيات أخرى عجيبة ، منها انقلاب ماء النهر دما بضربة من موسى للنهر بهذه العصا فصار دما وقد كان من قبل ماء عذباً يشربون(١) منه ، وبهذه العصا صنع موسى آيات كثيرة منها تغيير طبائع بعض الكائنات ، ومنها إيجاد بعض الكائنات بإذن الله تعالى(٢) .

وهناك آية أخرى ليست العصا وسيلة إليها ، هى إدخال موسى يده فى جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء ، ثم أعادها إلى جيبه فإذا هى تعود كما كانت(٣) إلى غير ذلك من آيات عظام اتحدت فيها أنظار الألوف المؤلفة من قوم فرعون وقوم موسى على التصديق بتحولها وتغيير هيئاتها من غير إنكار ولا جحود .

ونقول : إن الله العظيم الذى جعل أنظار الألوف تتفق على التصديق بما أتى به موسى من الآيات والخوارق هو الذى بعظمته يجعل أنظار اليهود تتحد على رؤية عيسى فى شخص يهوذا ولا غرابة فى ذلك ، وليس فى العقل ما يحيله خاصة وأن أتباع المسيح يصدقون ويؤمنون بهذه الانقلابات وتلك التحولات ولا ينكرونها أو يشكون فى وقوعها .

فلماذا يؤمنون بذلك فى حق موسى ولا يؤمنون بمثله فى شخص عيسى ، مع أن حصول ذلك فى حق المسيح يعنى به تكريمه وإنقاذه له من إهانته بالضرب ، واللكم والشتم والسب ، والبصق فى وجهه ، والهزء

---

(١) إقرأ سفر الخروج ٧: ١٩-٢٢ واقرأ ذلك فى سورة الأعراف .

(٢) إقرأ سفر الخروج من الإصحاح ٧ — ١١ وفى القرآن من سورة الأعراف .

(٣) الخروج ٤ : ٦ — ٨ واقرأ من سورة طه والنمل والقصص والأعراف .

به، ومن كل ما تصوره الأناجيل من صور الإهانات المقذعة التى لا تليق بكائن كريم فضلا عن نبى فضلا عن آله مزعوم .

وما ذكرته هنا كشواهد من التوراة من معجزات وخوارق لموسى تأكيدا لحصول مثله فى المسيح ليس بأعظم مما فعله المسيح من معجزات وخوارق ، فالذى استطاع أن يحيي الموتى ويبرىء المرضى على إختلاف عللهم ، واستعصاء البرء من آفاتهم ، ألا يستطيع بإذن الله تعالى أن يستنقذ نفسه بإذن الله تعالى ومعونته من تغيير هيئته فلا يعرفه خصومه فينجو من شرهم ، ؟ وأن يلقى الله شبهه على يهوذا جزاء وفاقا لما قام به من غدر وخيانة لسيده ؟ ولكنى ألفت أنظارهم إلى أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ونقول لطلاب الحقائق اهتدوا بنور الحق ، ولبوا نداء الله فى قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »(١) .

إن اليهود لما دبروا حيلة مع يهوذا للقبض عليه ، وبذلوا فى ذلك أقصى جهدهم ، حماه الله تعالى من شرهم ، وكف أيديهم عنه ، وأخبرنا الله بذلك فى قوله تعالى : « وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات » فلم يوفقهم الله إلى بلوغ مرادهم ، وإن الله للظالم بالمرصاد .

---

(١) آل عمران / ٧١ (٢) المائدة / ١١٠

الفصل الثالث

شواهد العهد القديم على نجاة المسيح عليه السلام

وردت فى العهد القديم نصوص على لسان أنبياء بنى إسرائيل يتفق علماء الدين المسيحى على أنها بشارات بالمسيح تحمل معالم شخصيته ، وأطوار حياته ، وموقف بنى إسرائيل من دعوته ، ونجاته من طلاب قتله، وكيف أن الله سبحانه استجاب لدعائه حين توجه إليه أن ينجيه من الموت على يد خصومه وأعدائه ، فأوصى ملائكته بحفظه منهم فى كل طرقه ، يحملونه على الأيدى إنقاذا وتمجيداً له، فظل مرفوعا فى ظل قدرة القدير ، سبحانه وتعالى .

وإنى أذكر فى هذا الفصل نصين مما اتفق عليه علماؤهم على سبيل المثال فى مضمار نجاته من القتل والصلب. أحدهما من سفر المزامير المعزوة إلى نبى الله داود — عليه السلام — والثانى من سفر منسوب إلى نبيهم إشعياء ، وهذان الكتاب من أسفار العهد القديم .

النص الأول

جاء فى مزامير داود — عليه السلام — أدلة وشواهد كثيرة قالها داود على لسان عيسى — عليه السلام — تدل على نجاته من خذلان أعدائه ، وقد أشار إليها كل من متى ولوقا فى إنجيليهما ، نقتصر منها على نص ورد مقابله فى هذين الإنجيلين فى صورة محاورة بين إبليس والمسيح . وتيسراً لفهم إشارة المزامير نجعل نص الإنجيلين تقديما لهذه الإشارة .

قال متى : « إن إبليس أخذ يسوع إلى المدينة المقدسة (أورشليم) وأوقفه على جناح الهيكل وقال : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكيلا تصدم بحجر رجلك ، قال له يسوع : مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك »(١) .

ومثل هذا جاء فى لوقا(٢) .

هذه حكاية مفادها أن إبليس أراد أن يجرب بها عيسى، والشاهد فيها قوله « مكتوب » أى أن وصية الله للملائكة أن يحفظوا عيسى ويحملونه بعيداً عن العثرات مكتوب ذلك فى نبوة داود — عليه السلام — وبالنظر فيما كتب فى الإنجيلين نجد أن المسيح لم يراجع إبليس فى ذلك ، بل أقره على على أنه مكتوب حقيقة كما ذكر إبليس ، ومفاد هذا المكتوب يدل على نجاة عيسى من مكر اليهود وكيدهم ، وأن الله سبحانه قد رفعه حيا من غير سابقة موت ، مكرما معززا ، من غير أن ينالوه بأذى .

وإلى القارىء نص المكتوب ، وهو فى نجاة عيسى — عليه السلام .

« الساكن فى ستر العلى ، فى ظل القدير يبيت ، أقول للرب ملجاى وحصنى إلهى ، فأتكل عليه ، لأنه ينجيك من فخ الصياد ، ومن الوباء الخطر ، بخوافيه يظللك ، وتحت أجنحته تحتمى ، ترس ومجن حقه ، لا تخشى من خوف الليل ، ولا من سهم يطير فى النهار ، ولا من وباء يسلك فى الدجى ، ولا من هلاك يفسد فى الظهيرة ، يسقط عن جانبك ألف ، وربوات عن يمينك ، إليك لا يقرب ، إنما بعينك تنظر وترى مجازاة الأشرار ، لأنك قلت أنت يارب ملجاى جعلت العلى مسكنك ، لا يلاقيك شر ، ولا تدنو ضربة من خيمتك ، لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك ، على الأيدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك ،

---

(١) متى ٤ : ٦ ، ٧

(٢) إقرأ لوقا ٤ : ٩ ، ١٠

على الأسد والصل تطأ ، الشبل والثعبان تدوس ، لأنه تعلق بى أنجيه ، أرفعه لأنه عرف اسمى ، يدعونى فأستجيب له ، معه أنا فى الضيق ، أنقذه وأمجده ، من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصى »(١)

هذه هى نبوءة نبى الله داود — عليه السلام — فيها الدلالة الكافية على نجاة المسيح وسلامته عن يقصدونه بأذى أو قتل ، وعباراتها فى النجاة واضحة وضوح الشمس لا لبس فيها ولا غموض ولا خفاء .

تأمل معى أيها القارىء مضمون قوله: « ينجيك من فخ الصياد ، ولا يلاقيك شر ، يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك ، على الأيدى يحملونك ، لأنه تعلق بى أنجيه ، أرفعه ، ومعـــه أنا فى الضيق ، أنقذه وأمجده ، إلى غير ذلك »

ولكى يمكن ربط هذه النبوءة بسيدنا عيسى ودلالتها عليه نعقد مقارنة بين عبارات وردت فى هذا المزمور ، وكلمات أخرى جاءت فى الأناجيل تحكى حوادث خاصة بالمسيح فى أماكن متفرقة فيها، لها مقابلات مع هذه العبارات ، وبهذا يمكننا التطبيق بين الإشارات النبوية فى العهد القديم وبين الأحداث الإنجيلية تبصرة وذكرى لأولى الألباب ، وإليك المطابقات .

١ — قوله : « الساكن فى ستر العلى . فى ظل القدير يبيت » إشارة إلى ماجاء فى الأناجيل : من أن المسيح ليلة حادثة القبض على المصلوب كان باتاً مع تلاميذه فى جهة مستورة منعزلة عن الذين يطلبونه ليقتلوه ، ولهذا احتاجوا لمن يدلهم على مكانه ، ونبوءة المزمور صريحة فى أنه كان فى تلك الليلة مشمولا بستر الله العلى ، باتاً فى حمايته وظله ، ويؤيد ذلك

---

(١) المزمور الحادى والتسعين

ماجاء في إنجيـــل يوحنا من قول المسيح « والذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الآب وحدى ، لأنى فى كل حين أفعل مايرضيه »(١)

٢ — قوله : « يسقط على جانبك ألف » إشارة إلى ماجاء فى يوحنا من ذكره هجوم اليهود على المسيح ليمسكوا به ، ولما خرج إليهم سقطوا على الأرض .

يقول يوحنا : « فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك(٢) بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع وهو عالم بكل مايأتى عليه وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه يسوع الناصرى قال لهم يسوع أناهو ... فلما قال لهم إنى أناهو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض(٣)

وتكرر هذا السؤال منه وهذا الجواب منهم فى ذات الموقف مرة أخرى ، وقد انطفأت منهم المشاعل والمصابيح التى يحملونها .

فهذا الجمع الحاشد المدجج بالسلاح قد سقط من حوله وتنفذت إرادة الله بنجاته آنذاك :

٣ — وقوله « فاستجبت له ، ومعه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده » هذا هو نفس نص نبوءة إشعياء الواردة فى بشارته الآتية القائلة « فى وقت القبول استجبتك ، وفى يوم الخلاص أعنتك فأحفظك »(٤)

واستجابة الله إنما كان لصلاته للآب أن يصرف عنه كأس المنية الذى يدبره اليهود له، وصلاته إلى الآب أن يعتقه من هذا المصير كان ليلة

---

(١) يوحنا ٨ / ٢٩

(٢) أى إلى البستان الذى كان فيه هو وتلاميذه

(٣) يوحنا ١٨ : ٣ — ٦

(٤) إشعياء ٤٩ ، ٨

القبض على المصلوب . وقد سجلت الأناجيل الثلاثة الأولى هذه الصلاة ونكتفي منها بنص متى حيث يقول :

« ثم تقدم - يسوع - قليلا وخر على وجهه وكان يصلى قائلا يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (١)

وقد ذكرت الأناجيل أن المسيح كرر هذه الصلاة ثلاث مرات فى هذه الليلة بشهادة تلاميذه ، فتطابقت نبوءة داود مع إشعياء مع الأناجيل فى استجابة الله لصلاته ورجائه ودعائه أن ينقذه الله مما أريد له من الشر . وما أوضح قوله فى المزمور « ومعه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده » فى بيان مراد الله فى نجاته .

٤ — قوله : « إنما بعينيك تنظر مجازاة الأشرار » إشارة إلى أن يهوذا الذى جاء مع اليهود فى تلك الليلة ليدلهم على المسيح قد جازاه الله بأن أوقعه فى أسر اليهود الذين كان يعاونهم على الإمساك بالمسيح ، فأخذوه وصلبوه ، وهكذا وقع فى الحفرة التى حفرها لسيده . وقد رأى المسيح ذلك أثناء رفعه من بين الأشرار .

أما اليهود فقد جازاهم الله شر الجـــزاء بأن سلط عليهم ملوك الرومان ، فساموهم سوء العذاب ، حتى أهلكوا منهم مئات الألاف فأفنوهم بالسيف والنار تارة ، والأسر تارة أخرى ، وذلك بعد حادثة الصلب ببضع سنوات

٥ — وقوله : من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصى » فيه الدلالة الظاهرة على أن الله رفع المسيح إلى السماء حيا ، إذ لا معنى للخـــلاص إلا نجاته ورفعه حيا ، وسيبقى كذلك إلى ميعاد مجيئه الثانى فى آخر الزمان

---

(١) متى ٢٦ : ٣٩ واقرأ مرقس ١٤ : ٣٦ ولوقا ٢٢ ، ٤١ ، ٤٢

وانقضاء الدهر ، ويومئذ يخلص الله به العالم من الكفر والشرك والضلال، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وهذا هو معنى تمجيده بعد إنقاذه كما هو فى المزمور المذكور .

النص الثانى

قال إشعياء(١) — عليه السلام — عن طريق الوحى على لسان عيسى — عليه السلام — « إسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الامم ، الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى ، وجعل فى كسبف حاد ، فى ظل يده خبأنى . وجعلنى سهما مبريا ، فى كنانته أخفانى ، وقال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به أتمجد ، أما أنا فقلت عبثا تعبت ، باطلا وفارغا أفنيت قدرتى ، لكن حقى عند الرب ، وعملى عند إلهى .

والآن قال لى الرب جابلى من البطن عبدا له لإرجاع يعقوب إليه ، فينضم إليه إسرائيل ، فأتمجد فى عينى الرب ، وإلهى يصير قوتى ، فقال قليل أن تكون لى عبدا لإقامة أسباط يعقوب ، فقد جعلتك نورا للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض . هكذا قال الرب للمهان النفس ، لمكروه الأمة لعبد المتسلطين ، ينظر ملوك فيقومون ،رؤساء فيسجدون لأجل الرب الذى هو أمين وقدوس إسرائيل الذى قد اختارك . هكذا قال الرب فى وقت القبول استجبتك وفى يوم الخلاص أعنتك فأحفظك وأجعلك عهدا للشعب لإقامة الأرض» (٢)

---

(١) النبى إشعياء من الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم ، ويؤمن به اليهود والمسيحيون ، ولم يرد اسمه هذا فى الإسلام ، والإيمان بالرسل فى الإسلام هو كما جاء فى قوله تعالى : «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك» فيجب الإيمان بما لم يرد ذكره منهم من غير تعيين اسمه .

(٢) إشعياء ٤٩ : ١ — ٨

هذا النص مما يجمع علماء المسيحية أنه خاص بالمسيح ، والذى يتأمله يدرك من خلاله الأحداث الهامة التى مر بها المسيح فى حياته من مولده إلى رفعه .

كما أن هذه النبوءة من إشعياء تنبىء عن نجاته من كيد اليهود بعون من الله العزيز الحكيم ، وتفيد تكريمه برفعه فى نهايته على الأرض .

وإليك بعضاً من الدراسات حول هذا النص ومقارنة جمله بنظائرها من التوراة والإنجيل لإثبات وقوع الصلب على غير المسيح — عليه السلام —

١ — قوله : « الرب من البطن دعانى » أى قضى على بأن أخلق من بطن أنثى من غير زرع بشر على خلاف ماعليه سائر البشر ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى نبوءة إرمياء عليه السلام : « لأن الرب خلق شيئاً حديثاً فى الأرض أنثى تحيط برجل(١)

والقرآن الكريم يصدق على هذا المعنى بقوله تعالى« ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا(٢) »

٢ — أما قوله : « من أحشاء أمى ذكر اسمى » أى سمانى باسمى منتسبا إلى أمى مريم فجاء فى متى(٣) ولوقا(٤)(وتلدين ابنا وتسمينه يسوع)

ويقول القرآن فى ذلك : « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم)(٥) .

٣ — وقوله « وجعل فمى كسيف حاد » هذا القول يشير إلى كلام المسيح فى المهد حالة دفاعه عن أمه مريم وتبرئتها مما رموها به من سوء ظن قومها بها .

---

(١) إرمياء ٣١ : ٢٢ (٢) سورة مريم / ٢١

(٣) متى ١ : ٢١ (٤) لوقا ١ : ٣١ (٥) آل عمران/٤٥

فقد شبه فمه ونطقه بالسيف الحاد حيث قطع به ألسنة الذين اتهموها في عفافها ، وقذفوها في شخصها ، فكانت مواجهته قاطعة ومخرسة لألسنتهم ومنهية لهذا الموقف الحرج ، فقد حسمه بأقوى الطرق التي لامثيل لها من قبل .

٤ — أما قوله : « في ظل يده خبأني » يشير إلى حادثة وقعت للمسيح عقب ولادته، ذكرها متى في الإصحاح الثاني ، وهي أن أمه سافرت به إلى مصر وهو صبي هرباً به من وجه الطاغية « هيرودس » حاكم المنطقة الذي كان يريد أن يقتله ظناً منه أنه سيكون خطرا على نظام الحكم، حسبما أخبرته أقاويل العرافين ، وبذلك تحققت نجاته بغيابه عن الأمكنة المعهود وجوده وأمه فيها، ثم رجعت به أمه بعد علمهم بموت ذلك الحاكم(١)

وربما يشير القرآن أيضا الى هذه الحادثة في قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين »(٢) .

٥ — وقوله : « في كنانته أخفاني » معناه أن الله حجبني عن أعين أعدائي حيث لا يرونني إلا قصدوني بالإيذاء ، وفيه الإشارة إلى الليلة التي قصدوه فيها ليمسكوا به فأخفاه عن أبصارهم ، ويؤيد هذا ماجاء في يوحنا عن لسان المسيح « ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا »(٣) .

كما يؤيده قول إشعياء في آخر النص المذكور عن الله تعالى : «وفي يوم الخلاص أعنتك فأحفظك » كما يؤيده قوله تعالى في سورة المائدة « واذا كففت بني اسرائيل عنك اذا جئتهم بالبينات »(٤) والمعنى أن الله سبحانه كف عنه أيدي أعداءه حين قصدوه وهموا بقتله فحفظه منهم .

---

(١) إقرأ متى ٢ : ١٣ — ٢١
(٢) المؤمنون / ٥٠
(٣) يوحنا ٧ : ٣٤
(٤) المائدة / ١١٠

٦ — أما قوله: «وقال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به أتمجد» إشارة إلى مجيئه للعالم الأرضى للمرة الثانية، وهذا المجيء الثانى يؤمن به ويعترف علماء الدين المسيحى ومفكروه وفلاسفته، أما فى الإسلام فقد وردت أحاديث نبوية كثيرة بنزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض قبيل نهاية الدنيا، وأنه يكون صاحب رئاسة وحكم على جميع العالم، وأن الله يؤيده بقوة عظيمة روحانية، وأنه يجمع الناس على دين الحق، ويحكم بشريعة الإسلام، وهى خاتمة الشرائع الإلهية، فلم يأت بشريعة جديدة حتى لا يقال إن هناك شريعة بعد شريعة الإسلام، أو نبوة بعد نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد — ﷺ — لأن نبوة سيدنا عيسى سبقت نبوة محمد — ﷺ — فليس نبيا جديدا، فهو يحكم بشريعة القرآن المهيمن على التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية السابقة عليه.

وقوله «الذى به أتمجد» إعلان لمجيئه الثانى، وتمجيد الله معناه: أن يكون الدين يومئذ لله وحده خالصا، ويبطل كل ما أحدثه اليهود والنصارى من البدع والتقاليد التى لم يأمر بها الله، ولا أصل لها فى شريعة موسى وعيسى، وفيه تبكيت للنصارى على ادعائهم ألوهيته، وإدحاض لما زعمه اليهود والنصارى فى حقه — عليه السلام — من ضلالات وأوهام، وإلى هذا أشار القرآن بقوله تعالى: «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته»(١) أى وقت نزوله إلى الأرض يؤمن به الجميع حق الإيمان طبقا لما أنزله الله فى التوراة والإنجيل والقرآن، «ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا»(٢)، فيكون شهيدا على أهل الكتاب جميعا «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم»(٣) ويسأل الله ابن مريم يومئذ: «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله»(٤) فيجيب منزها الله تعالى قائلا:

---

(١) النساء / ١٥٩
(٢) النساء / ١٥٩
(٣) المائدة / ١٠٩ (٤) المائدة / ١١٦

«سبحانك... ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد»(١).

هذا، ويفترق المجيء الثاني لعيسى في نهاية الدنيا في المسيحية عنه في الإسلام، وهذه ملاحظة يجب الانتباه إليها .. فالمسيحية ترى أن المجيء الثاني يكون بعد صلبه وموته وتكفينه، ودفنه — فداء وكفارة عن الخطيئة المزعوم وراثتها —، ثم قيامه من الموت، ثم مكثه في الأرض بعد قيامه أربعين يوما يتردد خلالها على تلاميذه، وأنه صعد إلى السماء إلى حين المجيء الثاني.

أما في الأسلام: فإن هذا المجيء يعبر عنه بالنزول من محل كرامته الذي رفع إليها ليلة تدبيرهم القبض عليه لقتله، فلم يقتل ولم يصلب، وهو موجود بقدرة الله تعالى وإرادته بحياة موصولة بحياته على الأرض من غير سابقة موت، بخلافة عند المسيحيين فهو عندهم حي بعد سابقة موت ونهاية حياة.

وقوله: «أما أنا فقلت عبثا تعب، وفارغا أفنيت قدرتي، لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي» فهو نبوءة إشعياء عن مقدار نجاح سيدنا عيسى في الدعوة، فقد بينت هذه النبوءة ما كان من أمر اليهود مع عيسى — عليه السلام —، حين بعثه الله رسولا لهم، فلم يقبلوه وأنكروا أنه المسيح المنتظر، «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله»(٢)، فالعبارة المذكورة تدل على معنى يجيش في صدر عيسى، فيقول أسفا، لقد تعبت كثيرا في سبيل هداية قومي فلم يهتدوا فضاع تعبي عندهم سدى، وجدي وحرصي

---

(١) المائدة / ١١٦، ١١٧

(٢) يوحنا ١ : ١١

على هدايتهم واجتهادى معهم كان عبثا ، ولكن حقى عند الله محفوظ ، وعملى عند إلهى لا يضيع .

وقد أظهر هذا المعنى إنجيل لوقا ، فى خطاب المسيح لليهود وهو قوله : « يا أورشليم يا أورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها فلم تريدوا » ثم قال لهم : « إنكم لا تروننى من الآن حتى يأتى وقت تقولون فيه : مبارك الآتى باسم الرب »(١) .

ففى الجملة الأولى بيان بأن أتعابه فى هداية اليهود كانت عبثا ، وجهده عليهم صار سدى ، وهذا المعنى هو ما نطقت به نبوءة إشعياء .

أما العبارة الثانية : فتمثل وعدا منه بأنه سيجيء إلى العالم مرة ثانية ، ويكون صاحب الحكم المطلق فى هذا العالم حيث لا يكون ملك غيره على وجه الأرض ، ويستفاد هذا المعنى من جملة « مبارك الآتى باسم الرب » فإنها تحية خاصة بملوك بنى إسرائيل منذ عهدهم القديم ، وزمانهم البعيد ، فكلما تولى عليهم ملك كانوا يهتفون له بهذه العبارة تحية استقبال وترحيب فى يوم الاحتفال بتتويجه ، فيرددونها بأصواتهم العالية تعبيرا عن شعورهم بالحب والرضا به ، فكانوا يهتفون قائلين : « مبارك الملك الآتى باسم الرب » وقد ذكرت هذه العبارة فى غير هذا الإنجيل ترحيبا من اليهود للمسيح حين حسبوه المسيح المنتظر كملك لليهود ، ونبى كالنبى داود — عليه السلام — إذ أنهم ينتظرونه ملكا نبيا يقيم لهم مملكة الرب الخاصة ببنى إسرائيل على غرار ما أسسها لهم داود من قبل — فقد كان داود ملكا نبيا — فلما رأوا دعوة المسيح لهم إلى ملكوت سماوى لا أرضى مؤسس على حياة الزهد وتقوى الله رفضوه وأنكروه حيث لم يحقق لهم طلبتهم

---

(١) لوقا ١٣ : ٣٤ ، ٣٥

المنشودة، فإن التوراة مبشرة لهم بمسيح منتظر على منوال رغبتهم هذه، ولهذا فإنهم مايزالون ينتظرون مسيحا يعيد مملكة داود حتى الآن.

هذا، وإن نزول عيسى إلى الأرض ثانية منوه عنه فى إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين من الفقرة الثالثة إلى نهاية الإصحاح تقريبا، ومضونه: أن التلاميذ سألوه عن علامة مجيئه وانقضاء الدهر، فأجابهم بأنه ستحدث فى الأرض أمور عجيبة، منها أنه تقوم أمة على أمة، وتحصل حروب، ويكون دمار، وخراب وزلازل، وبعد ضيق تظلم الشمس، والقمر لايعطى ضوءه، والنجوم تسقط، ثم ذكر آيات عظيمة هى أمارات قيام الساعة الأخيرة لهذا العالم، ولكن قبل هذه التغيرات الكونية يظهر بين حين وآخر من يدعى أنه المسيح الذى ينتظره اليهود، ويصنع آيات وعجائب، تبهر أبصار الناس، فيفتتن به خلق كثير، وأن مجيء عيسى — عليه السلام — سيكون بعد تلك الحوادث كلها، ثم تأتى المتغيرات الكونية المشار إليها سلفا وتكون نهاية العالم وانقضاء الدهر(١).

٧ — وقوله: «لاتخش من خوف الليل، ولا من سهم يطير فى النهار ولامن وباء يسلك فى الدجى، ولامن هلاك يفسد فى الظهيرة» إشارة إلى ماجاء فى لوقا من أن المسيح كان يصلى لله فى مساء ليلة القبض على المصلوب أن ينجيه من تجرع كأس المنية المرتقب، فأنزل الله إليه ملاكا ليقويه ويشد أزره، ويطمئنه على نجاته مما يخاف، وألا يخشى شيئا كائنا من كان، يقول لوقا: «وجثى — يسوع — على ركبتيه وصلى قائلا ياأبتاه إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس، ولكن لتكن لاإرادتى بل إرادتك وظهر له ملاك من السماء يقويه»(٢).

---

(١) راجع فى هذا: كتابنا بولس والمسيحية، الباب الثالث: الملكوت الذى دعا إليه المسيح.

(٢) لوقا ٢٢: ٤١ — ٤٣ وهذه الصلاة ثابتة فى الأناجيل الأربعة =

فالملاك الذى ظهر ليشد من عزمه بث فى نفسه الثقة والطمأنينة النفسية بأن الله سيحميه من خصومه ، وألا يخشى عدوا لا فى الليل ، ولا فى النهار ولا فى ظلام ولا ضياء ، ولا من كل ما يهلك نفسه .

٨ — وقوله : « لأنه تعلق بى أنجيه ، أرفعه لأنه عرف اسمى » إشارة إلى ما جاء فى يوحنا من كون المسيح دعا الله أن يمجده بنجاته من ساعة الآلام والموت ، فأخبر بواسطة ملاك بأنه سيرفع ممجدا مكرما ، لأنه دعا الله باسمه الأعظم ، يقول يوحنا : « الآن نفسى قد اضطربت ، وماذا أقول ، أيها الأب نجنى من هذه الساعة ، ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة ، أيها الأب مجد اسمك ، فجاء صوت من السماء ، مجدت وأمجد أيضا ، فالجمع الذى كان واقفا وسمع قال : قد حدث رعد ، وآخرون قالوا : قد كلمه ملاك ، أجاب يسوع ... الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا ، وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب الى الجميع . . . . فأجابه الجميع نحن قد سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى الى الأبد ، فكيف تقول أنت إنه يرتفع ابن الإنسان ، من هو هذا ابن الإنسان ؟(١) » .

فما جاء فى المزمور من أنه لما دعا الله متوسلا اليه باسمه الأعظم وعده برفعه إليه « أرفعه لأنه عرف اسمى » ، وهذا قد طابقه ما جاء فى يوحنا من أن الملاك نزل عليه بهذا الوعد المطمئن لنفسه ، فلسان حاله يقول : لبيك لبيك قد أجيبت طلباتك ، وستكون نجاتك بارتفاعك عن الأرض « فجاء صوت من السماء مجدت وأمجد » فسر المسيح بذلك وأخبر الجمع ببشارة الملاك له ، وقال : انه سيجذب إليه أنذاك المؤمنين الأتقياء ، وقد فهم الحاضرون ، أنه يعنى رفعه من الأرض ، بدليل أن هذا

═ وأنه كررها فى هذه الليلة ثلاث مرات على مشهد من بعض الحواريين الا أن نزول الملاك لم يذكره الثلاثة الأخرون .

(١) يوحنا ١٢ : ٢٧ — ٣٤

الخبر قد غير مفهومهم السابق عن المسيح من وديمومة حياته الأبدية إلى انقطاعها بنهايتها على الأرض بهذا الرفع ، مع أنه أخبر بهذه الديمومة فى نفس إعلانه هذا ، حيث قال بأنه سيطرح خارجا لأنه رئيس هذا العالم، وهو نفس المعنى الذى كانوا يفهمونه فيه قبل إعلان رفعه عن الأرض، فإنه ذلك سيتحقق له فى آخر الزمان ، وذلك بنزوله آنذاك ليصير سيد العالم وحاكمه بأحكام دين الاسلام ، خاتم الأديان السماوية ، كما أخبرت بذلك الكتب السماوية ، والسنة النبوية المطهرة .

والملاحظ هنا هو اتفاق لوقا مع يوحنا فى تقوية الملاك له ، واتفاق الإنجيلين مع ماجاء فى المزمور المذكور ، وإذا لم يمجد المسيح بالرفع بعد نجاته فإن ذلك إحباط لدعائه وصلاته ، وليس هناك من فائدة ترجى من تقوية الملاك له ، وفى هذا عبث لايليق .

الفصل الرابع

أدلة الشك والاختلاف فى هوية المسيح

قال تعالى : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن »
[النساء /١٥٧]

« وقال لهم يسوع إن كلكم تشكون فى فى هذه الليلة » [مرقس ١٤ : ٢٧]

لقد وقع الشك فى هوية المسيح فى كل الملابسات المحيطة بالقبض على المصلوب ومحاكمته ، ثم فيما حيك حوله من ظواهر ظهوره بعد موته ، مما ترتب عليه اختلاف خصومه وأتباعه فى تحقيق شخصيته ، حتى استقر الشك فيه لدى الفريقين — والشك نوع من الإدراك العقلى — ومن هنا تنوع الشك فيه بحسب تنوع ظروفه وملابساته ، فهو عند خصومه يختلف عنه عند أتباعه ، وبعد الموت يختلف عنه قبله ، وقد تنبأ المسيح بوقوع الشك فيه ليلة قصدهم القبض عليه ، : « وقال لهم يسوع إن كلكم تشكون فى فى هذه الليلة »(١) .

وهذا هو ما أكده القرآن الكريم بعد ستة قرون من وقوعه ، فقال تعالى : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن »(٢) .

وها هى حالات الشك فيه فى مواقفه المختلفة :

---

(١) مرقس ١٤ : ٢٧ (٢) النساء /١٥٧

الشك فى حقيقة المسيح لحظة القبض على المصلوب :

قال يوحنا : « وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه ، فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح ، فخرج يسوع ، وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه يسوع الناصرى ، قال لهم يسوع : أنا هو ، وكان يهوذا مسلمه أيضا واقفا معهم ، فلما قال لهم : إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض فسألهم أيضا : من تطلبون ؟ فقالوا يسوع الناصرى ، أجاب يسوع : قد قلت لكم إنى أنا هو .. »(١) .

فإذا تأملنا هذا الكلام فإننا نلاحظ ما يأتى :

١ — جاء يهوذا ومعه الجند ، وخدام رئيس الكهنة ، والفريسيون إلى الموضع الذى كان المسيح فيه مع تلاميذه .

٢ — خرج إليهم يسوع وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه : يسوع الناصرى ،قال لهم : أنا هو .

٣ — لما قال لهم (أنا هو) رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض — يعنى مصروعين —

٤ — ولما قاموا سألهم مرة ثانية : من تطلبون ؟ فقالوا : يسوع الناصرى وقال لهم: أنا هو . .

٥ — وأثناء هذه المحاورة كان يهوذا يقف صامتا لا يتكلم بشىء .

ونقول : الذى يبدو من هذا الموقف أن المهاجمين يشكون فيمن يخاطبهم فلا يصدقونه فى قوله : أنه هو يسوع الناصرى الذى يطلبونه ،

---

(١) يوحنا ١٨ : ١ — ٨

رغم تصريحه لهم بذلك ، كما يبدو أن أعينهم كانت قد أمسكت عن معرفته ولهذا أنكروا شخصيه لأن الذى يشاهدونه يبدو لهم فى هيئة جديدة غير معهودة لهم ، فشكوا ولم يكونوا متيقنين أنه يسوع الناصرى ، وأخيرا قبضوا على من ظنوا أنه المسيح بعد أن انطفأت منهم المشاعل والمصابيح ، أما المسيح فقد تم رفعه آنئذ كما أراد الله تعالى ، فأخذوا من أخذوه على مافيهم من شك وريب فيه .

أما التلاميذ فهربوا ، لأنهم أدركوا أن المقبوض عليه بعد انطفاء المشاعل والمصابيح ليس هو المسيح ، قال متى : « حينئذ تركه التلاميذ وهربوا ... » (١) .

إذ لو كان المقبوض عليه هو المسيح لما تخلى عنه تلاميذه فى مثل هذا الموقف العصيب ، لأنهم أخذوا على أنفسهم العهد والميثاق أن يوازروه ، ويناصروه ، ويدافعوا عنه وعن دعوته ، حتى ولو أدى بهم الأمر إلى الموت .

قال بطرس رئيس الحواريين للمسيح : « إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت » (٢) وفى متى : قال له — أى للمسيح — ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك ، هكذا قال أيضا جميع التلاميذ (٣) .

ونرى أن التلاميذ لابد أن يبروا بوعدهم هذا ، وهذا حتم مقضى به عليهم ، وإلا كانوا منافقين فى قولهم هذا ، وفى خلف وعدهم هذا ، كما نستبعد عليهم أن يتلبسوا بالنفاق ، كيف وقد ثبتهم الله على الإيمان بالمسيح ورسالته فقال تعالى : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون » [المائدة / ١١١]

---

(١) متى ٢٦ : ٥٦ (٢) لوقا ٢٢ : ٣٣

(٣) متى ٢٦ : ٣٥ ومرقس ١٤ : ٣١

فهم قد آمنوا بعيسى ورسالته وأشهدوا الله على إيمانهم هذا ، ولو أنهم انحرفوا عن هذا العهد لما أكد القرآن ثباتهم عليه بعد ما انقلبوا إلى النفاق .

وأيضا فالمسيح — كما يذكر الإنجيل — قد أعطاهم سلطانا ليقوموا بالدعوة لهـذا الدين ، وأعطاهم مفاتيح ملكوت السموات ، ووعدهم بالرئاسة على أسباط بنى إسرائيل يوم الدينونة ، فهل بعد كل هذا يكون منهم الكذب والنفاق ؟ إنه لا يذهب إلى ذلك عالم بالكتاب . وموقف بطرس شاهد على ذلك حين استل سيفه وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه ساعة الهجوم على المقبوض عليـه ، كما اتفقت على روايته الأناجيل الأربعة (١) .

وكان ذلك قبيل تأكده من هوية المقبوض عليه ، وسنرى أنه أنكر معرفته به فى دار رئيس الكهنة حين كشف الحجاب عنه وعرف نجاة سيده .

الشك فى هوية المقبوض عليه :

لقد ملأ الشك أفكار هيئـة القضاء المكلفة بمحاكمته ، قال متى :

« فقام رئيس الكهنة وقال له : أما تجيب بشىء ؟ ماذا يشهد به هذان عليك ، وأما يسوع فكان ساكتا ، فأجاب رئيس الكهنة وقال له : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله ؟ قال يسوع : أنت قلت ، وأيضا أقول لكم : من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة ، وآتيا على سحاب السماء .. » (٢) .

---

(١) إقرأ متى ٢٦ : ٥١ ومرقس ١٤ : ٤٧ ولوقا ٢٢ : ٥٠ ويوحنا ١٨ : ١٠

(٢) متى ٢٦ : ٦٢ ، ٦٤

وفى مرقس : فسأله رئيس الكهنة «أيضا وقال له : أأنت المسيح ابن المبارك ؟ فقال يسوع : أنا هو «وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على فى سحاب السماء (١) .

أما لوقا فقد حكى هذا المشهد بكلام على لسان المتهم يوحى بوجود سر مستور عن حقيقة المسيح يعرفه المتهم ، ولكنهم لايصدقونه ، يقول لوقا : «ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين : إن كنت المسيح فقل لنا ، فقال لهم : إن قلت لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبوننى ولا تطلقوننى ، منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله «فقال الجميع : أفأنت ابن الله؟ فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو (٢) .

هذا كلام يصور حلقه من مسلسل نهاية إنسان وقع فى براثن اليهود وأحاطوه بكراهية وحقد كالسم الزعاف ، وأحكموا عليه قبضتهم ، إنهم قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين .

هذا مشهد رهيب مثل فيه من أخذوه ظلما وعدوانا يظنونه المسيح. وليس هو «ما لهم به من علم إلا اتباع الظن» وتبدو حيرة الشك فى قلوبهم وعقولهم ، وتنبىء عنه أسئلتهم الموجهة منهم إلى الماثل لمحاكمتهم : والبيان كالتالى :

١ — فى متى نرى رئيس الكهنة لا يوجه سؤاله إليه لتقرير تهمته ، فقد ترك استجوابه لإثبات التهمة الموجبة للحكم عليه ، وهى عصب القضية ، إلى سؤال إثبات هويته .

---

(١) مرقس ١٤ : ٦١ ، ٦٢

(٢) لوقا ٢٢ : ٦٦ — ٧٠

والمفروض أنهم قبضوا على يسوع فى نظرهم لأنه محل اهتمامهم للقبض عليه ، ولكنه فيما يبدو من سؤال متردد فى تحقيق شخصية الماثل أمامه ، لأنه يشك فى أن يكون هو صاحبهم المراد محاكمته ، فهو يستحلفه أن يكشف عن شخصيته ، هل هو المعنى بأن يكون هو المطلوب فى هـــذا الموقف أم لا ؟ وبصريح السؤال : هل هو المسيح أم لا ؟

إن السؤال يدل على ما يعتلج صدر السائل من الشك فى حقيقته ، ولأن السؤال ليس فى صميم مايدينه من التهمة ، وهذا السؤال المعلن للشك الغامر لقلوبهم وعقولهم مكرر فى الأناجيل الثلاثة وهى تصور محاكمته .

٢ — وكانت إجابة المتهم دائما « أنت قلت » أو ما فى معناها .

وهذه إجابة لا تدينه ، فقد كانت هذه إجابته للوالى بيلاطس حينما سأله [قائلا أنت ملك اليهود ؟فأجابه : أنت تقول ،فكان بيلاطس لا يدينه بها، وقال لرؤساء الكهنة والجموع إنى لا أجد علة فى هذا الانسان (١) .

فقوله : لبيلاطس (أنت تقول) لم تفهم على أنها اعتراف عليه بتهمة، فكأنه يقول : هذا زعمك أنت فى ، فقل ما تقول ، أما أنا فغير معترف بتهمة أو بجريمة على ، وصيغة هذه الإجابة أو قريب منها هى المحكية فى الأناجيل الثلاثه كما ترى جوابا عن سؤال الكاهن .

٣ — من يتأمل قوله : « وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء » يجد أن هذه المقولة واردة بنصها فى إنجيلى متى ومرقس :

---

(١) لوقا ٢٣ : ٣-٤ وفى هذا الإصحاح قال لا أجد علة عليه ثلاث مرات واقرأ مرقس إصحاح ١٥ ومتى ٢٧ ويوحنا ١٨، ١٩

ونقول: تبدو هنا لفتة جديدة، إذ ما هى المناسبة لهذه المقولة فى الإجابة عن تبيان شخصيته؟ ترى أنه يحاول بقدر الامكان أن يبث فى أذهانهم أنه ليس هو المطلوب لهذا الموقف، وأن من يطلبونه ليس ههنا، وإنما قد رفعه الله إلى عنان السماء، فصار فى ستر العلى الكبير، فى حماية قوة الله وقدرته.

٤ — فى لوقا ترى الشك الصريح قد اكتنف عقول المشيخة جميعها — الفريسيون منهم والكتبة —.

وسؤالهم له مصدر بحرف (إن) التى للشك، «إن كنت أنت المسيح فقل لنا».

فهل بعد هذا السؤال من يقول بعدم شكهم فى هوية من مثل أمامهم؟ وما حاجتهم إلى هـــذا السؤال إذا لم يكونوا شاكين فى هويته؟ إنه لايجادل فى هذا إلا مكابر.

٥ — لنسمع إلى إجابة المتهم فى قصة لوقا، وهو الذى أخذ على نفسه العهد أن يتحرى الدقة فيما يقصه من أخبار كلمة الله المسيح ابن مريم: قال لوقا: «فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لاتجيبوننى ولا تطلقوننى، منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله، فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم، أنتم تقولون إنى أنا هو».

فقولهم: «إن كنت أنت المسيح فقل لنا؟» ماذا كان جوابه لهم؟ إنه يقول: سأقول لكم قولا، ولكنكم لا تصدقونى فيه، فإنى إن سألتكم: إن كنت أنا المسيح فأين يهوذا الإسخريوطى الآن؟ إنه أنا يهوذا الإسخريوطى.

أما المسيح ابن الإنسان فهو الآن ومنذ لحظتنا هذه، مستقر فى كنف الله ورعايته، هو ليس فى الأرض الآن، إنه بين يدى القدرة العلية، ولكنكم لا تفهمون ولا تصدقون فقد غلفت قلوبكم بالعناد والاستكبار، فقد ختم الله على قلوبكم وعلى أبصاركم غشاوة، لا تبغون أن تدركوا الحق فقد حيل بينكم وبينه، هـــذا هو معنى قوله: «إن قلت لا تصدقون وإن سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى».

ولصلافة عقولهم وصدف قلوبهم يعيدون عليه السؤال بعد هذا البيان: «أفأنت ابن الله؟» فأجاب مستسلماً. «أنتم تقولون إنى أنا هو» إذ لا بيان عنده بعد ذاك البيان، وإجابته الإستسلامية هذه لا تشكل اعترافاً بتهمة كما ذكرها ليلاطس ولم يدنه بها أمامهم».

وقد يبدو سؤال مفاده: وما باعث الشك فى شخصية الماثل أمامهم والتردد فى التصديق بحقيقتها.

وهنا نقول فى الجواب عن هذا: هناك معالم معنوية يعهدونها فى المسيح منذ حداثته إلى عهد بعثته لم يجدوها أو يلمسوها فيمن مثل أمامهم، فإن الهيئة المنظورة أمامهم هى هيئة المسيح وشكل المسيح. ولكنهم لم يلمسوا فيه طلاقة المسيح فى كلامه، وقوته، وشجاعته فى مواجهته التى اعتادوها منه، كما لم يلمسوا فيه عمق فكر المسيح وذكائه، وفطنته، وعلمه بالكتاب وحكمته، فهو كما قال الله عنه: «ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل(١)».

هذا، فضلا عن معجزات وقوات عجيبة كان يظهر منها الكثير أمامهم، إلى غير ذلك من فضائل ومميزات النبوة التى لا نحصيها فى المسيح.

---

(١) آل عمران/٤٨

أما الماثل أمامهم فهو إنسان خوار العزيمة ، خال من كل ما عهدوه فى شخصية المسيح ، ولكنهم لم يتراجعوا عنه لتمام هيئة المسيح المتمثلة والمكتملة فيه بفعل أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى.

موقف بطرس من المقبوض عليه :

لا يفوتنا أن نذكر موقف بطرس من المقبوض عليه ساعة مثوله أمام رئيس الكهنة لسؤاله، فبطرس رئيس الحواريين » ورائدهم، والذى بيده مفاتيح الحل والحرمة كما فى الأرض كذلك فى السماء ، وهو الذى قال للمسيح : لومسك ضر لذهبت معك إلى السجن أو إلى الموت .

وقد تحمس فعلا ساعة القبض على المتهم ، فضرب عبد رئيس الكهنة بالسيف ، فقطع أذنه اليمنى كما عين اسمه يوحنا فى إنجيله ، فصدق بذلك فى موقفه الذى التزمه مع سيده فى غير مبالاة : ومن هنا لا يصح الشك فى صدق إيمانه ، وصدق صحبته للمسيح — عليه الصلام — .

لكنا نراه قد انقلب فى موقفه منه ساعة سؤال رئيس الكهنة للمتهم ، فحين اكتشفت الجارية أنه تلميذ المسيح، نراه ينكر معرفته به ، قدام الجميع ، ويدعى البلاهة ، وعدم الفهم ، ولما يخرج إلى الدهليز تسأله مرة أخرى فينكر بقسم أنه لا يعرف الرجل، ثم يقال له مرة ثالثة أن لغته تكشف أنه من أتباع المسيح ، ولكنه يسب نفسه ويلعنها فى نكر شديد أنه لا يعرف الرجل(١) .

ونقول: إن نكران الحوارى بطرس لمعرفة الماثل أمام رئيس

---

(١) متى ٢٦ : ٦٩ — ٧٤ واقرأ مرقس ١٤ : ٦٦ — ٧٢، واقرأ لوقا ٢٢ : ٥٤ — ٦٠ ، واقرأ يوحنا ١٨ : ٢٥ — ٢٧

الكهنة دليل على أنه ليس المسيح ، وهذا يعتبر شهادة من أحد خواص المسيح وممن يعرفونه حق المعرفة على أن المتهم شخص آخر غير المسيح، فإن بطرس لما وجده غير المسيح أنكره ، وحلف أنه لا يعرفه : ولم يفصح لهم عن انفلات المسيح من أيديهم ، لأنه من المعقول أن يضحى بطرس بنفسه من أجل سيده فى غير نكر، أو هروب، مصداقاً لقوله : بأنه معه ولو إلى الموت(١) وإلا فيكون بطرس قد كذب فى وعده هذا ، ولونه كاذباً أو مخلفاً للوعد يتنافى مع كونه رئيس الحواريين ، ويتنافى مع قول المسيح : بأن ما يقوله بطرس فهو الحق فى الأرض وفى السماء(٢) كما يتنافى مع ثقة المسيح فيه ، وجعله وكيلا عنه فى قوله له : « وأنت — ياسمعان : بطرس — متى رجعت ثبت إخوانك(٣) وقوله له : « إرع خرافى بعد ما أكد بطرس ليسوع ثلاثا أنه يحبه(٤) .

ولنا أن نتساءل : ما الذى ألجأ التلميذ بطرس على وقوفه هذا الموقف الحرج وفى مقدوره أن ينطلق هاربا دون مساس به ، فلا يسأل ولا يسأل ؟ ولكن الذى يستفاد من موقفه هذا أنه يريد أن يتابع هذا الحدث العجيب الذى تراءى له إلى نهايته،وهو صادق فى نكرانه للمتهم، فهو ليس المسيح ، ولم يستطع أن يشهد بأنه يهوذا ، لأنه ليس فى شكل يهوذا الحقيقى .

وقد يقال : بأن إنكار بطرس له نبوءة تنبأ بها المسيح من قبل حين قال له : « يا بطرس إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات»(٥) .

---

(١) لوقا ٢٢ : ٣٣
(٢) متى ١٦ : ١٨ ، ١٩
(٣) لوقا ٢٢ : ٣١ ، ٣٢
(٤) يوحنا ٢١ : ١٥ — ١٧
(٥) متى ٢٦ . ٣٥

ونستطيع أن نقول إجابة عن ذلك : إن معنى قول المسيح . إنك تنكرنى .. إلى آخره : أى إنك حين ترانى وقد ألقى شبهى على غيرى ، ويكشف الحجاب عنك فعرفت ذلك ، فسوف تنكرنى فى شبهى الذى يشبه به غيرى ، ولا ضير فى هذا التأويل ولا مخالفة مع العقل والمنطق .

هذا ولم يقف أمر الشك فى هوية المسيح بحيث خفيت عن ألصق أصحابه إليه عند القبض على المصلوب ، والمحاكمة فقط ، بل إن الأناجيل قد أتت بمثل هذا أيضاً بعد موته المزعوم وقيامته المزعومة وإكمالا لصورة الشك المصاحبة له فى جميع ملابسات قصة الصلب والظهور نأتى ببيانها .

الشك فى هوية المسيح بعد زعم قيامه من الموت :

لقد ورد فى الأناجيل أن المسيح قام من القبر بعد موته وتكفينه ، ودفنه ، ومن خلال ذكر قصة ذلك نجد أن التلاميذ لم يصدقوا أن المسيح قام من قبره ، وأن الشك فى حصول ذلك هو الصفة العامة التى سادت عقول الجميع ممن أخبروا بخبر قيامه هذا من الإنجيليين ، وإنى أذكر هذه النصوص الواردة فى الأناجيل لبيان أن الشك ليس فى هيئته قبل موته أثناء المحاكمة فحسب ، بل تعداها إلى قيامه المزعوم بعد موته .

١ — جاء فى متى عن قصة ظهوره بعد الموت : « وأما الأحد عشر تلميذا فانطلقوا إلى الجبل حيث أمرهم يسوع ، ولما رأوه سجدوا له ، ولكن بعضهم شكوا »(١).

ونقول : فما هو وجه الشك هنا الذى أعقب رؤيتهم له ؟ هل تراءى لهم فى هيئة أخرى غير معهودة لهم ، أم أن قيام مقبور غير معهود من

---

(١) متى ٢٨ : ١٦ ، ١٧

قبل فشكوا فى حصول هذه الظاهرة ؟ كيف وهم يعتقدون أنه أخبرهم قبل موته بأنه سيصلب وبعد ثلاثة أيام يقوم من الموت؟ فهل غابت عن أذهانهم هذه الفكرة فلم يعودوا يذكرونها ، أم أن النصوص التى قيلت قبل موته فى الأناجيل الحالية قد أضيفت بعد أن تقررت أكذوبة هذا القيام فى الأذهان ؟ أم ماذا ياترى يكون الباعث على شك التلاميذ حين رؤاه بعد أن زعموا موته؟ كل هذه تساؤلات تتطلب الإجابة عليها ولا تجيب بجواب يشفى الغليل .

٢ — وجاء فى مرقس : « وبعد ما قام باكرا فى أول الأسبوع ظهر أولا لمريم المجدلية التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين ، فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون . فلما سمع أولئك أنه حي وقد نظرته لم يصدقوا ، بعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم — أى من تلاميذه — وهما يمشيان منطلقين إلى البرية ، وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين .

أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام(١) » .

وبالنظر فى هذا الكلام ترى عجبا(!) هؤلاء التلاميذ ينوحون ويبكون على فقدانه مع يقينهم من قبل موته بأنه سيموت ويقوم بعد الموت ، فهلا كان اللائق أن يفرحوا بخبر حياته ؟، خاصة وأن الخبر مبنى على النظر والمشاهدة ، مما يعطى تأكيد وقوعه ، ويكون بذلك مصدقاً لما تنبأ به قبل موته .

ثم لماذا لم يصدقوا أنه حي بعد رؤية ظهوره بعد حادثة الصلب ؟

---

(١) مرقس ١٦ : ٩ — ١٤

(ب) والأعجب من هذا أن يظهر بهيئة أخرى غير معهودة من قبل لاثنين من تلاميذه، ثم يخبرا بذلك بقية التلاميذ فلم يصدق التلاميذ، ولاحتى التلميذين اللذين شاهدا ظهوره ، فما هذا الهذر فى الأخبار والروايات ؟

ولنا أن نقول : إذا كان ظهوره للتلميذين بهيئة أخرى غير معهودة لهما من قبل ، فكيف عرفاه رغم عــدم إخبارهم بأنه كشف لهم عن حقيقته ؟.

(ج) والأعجب من هذا وذاك أنه لم يوبخ الأحد عشر على تصديقهم بقيامه أو عدم تصديقهم ، ولكنه يوبخهم لعدم تصديق الذين شاهدوا قيامه ونظروه ، وكأن التصديق المطلوب منهم هو التصديق على شهادة من شهد القيام لا على كونه ظهر وانتهى الأمر ، بل على الرؤية لعملية القيام ذاتها ، وإلا ففى ظهوره لهم حالة كونهم متكئين فيه الكفاية للتصديق على قيامه ، هذا هو ما يومىء إليه النص المذكور ، وإن كانوا يرون أن مراد النص هو الإخبار عن قيامه وكفى .

والذى نريد بيانه هنا هو أن الشك فى قيامه من الموت قد شمل من شاهد قيامه ، ومن علمه عن طريق الإخبار به دون نظره ومشاهدته ، بل تعدى الأمر إلى عدم التصديق نهائياً كما هو الظاهر من أحاديث إنجيل مرقس ، وقد اتفق فى ذلك مع سابقه .

٣ — جاء فى لوقا : « أنه ظهر لمريم المجدلية ونساء غيرها ولما قلن هذا للرسل تراءى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن »(١) .

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٠ ، ١١

كما جاء فى لوقا أيضاً « وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، فقال لهم مابالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم، انظروا يدى ورجلى إنى أنا هو، جسونى وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم أعندكم ههنا طعام، فناولوه جزءاً من سمك مشوى وشيئاً من شهد عسل، فأخذ وأكل قدامهم »(١).

المعلوم من الأناجيل أن لقاءاته بالتلاميذ بعد ظهوره كان حيث يكونوا مجتمعين مغلقين عليهم الأبواب خوفاً من اليهود، فإذا به يكون فى وسطهم، ولا ندرى كيف ينفذ إليهم وقد أحكموا إغلاق الأبواب؟ كما هو مذكور فى يوحنا(٢).

ونعود إلى ملاحظاتنا على إعلان لوقا هذا:

(أ) لما ظهر للنسوة وأخبرن التلاميذ استخفوا بخبرهن واعتبروهن مخبولات ولهذا لم يصدقوهن.

(ب) ولما دخل على التلاميذ — وقد أغلقوا عليهم الأبواب — جزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، ثم كشف لهم عن مكنون أفكارهم وانغلاق قلوبهم، ففى أى شىء كانوا يفكرون إذا كانوا واثقين من قيامه؟ ولماذا ينزعجون ويضطربون؟ لقد أبان النص الجواب على ذلك، إنهم لايصدقون مارأوا، ولا يعترفون بقيام بعد موت.

(ج) هل وصل بهم البله إلى أنهم لم يميزوا مايشاهدون هل هو روح أم جسد؟ فلم تثبت المعرفة به إلا بعد أن جسوه فى يديه ورجليه وتأكدوا

---

(١) لوقا ٢٤ : ٣٦ — ٤٣ (٢) إقرأ يوحنا ٢٠ : ١٩

أنه إنسان من لحم وعظم فلم يكن روحاً ، إنه لأجل أن يؤكد لهم أنه إنسان كامل بكل معنى الإنسانية وأنه هو هو لم يقم به موت ولم يمسه أذى اليهود أقام لهم البرهان على ذلك بأن طلب الطعام فأكل أمامهم ليدركوا حقيقة الأمر ، ولكنهم كما قال — عليه السلام — قد اضطربت منهم القلوب ، وطاش منهم العقل فلم يفهموا ولم يعقلوا لأنهم بعد أن أراهم كل هذا لم يصدقوا .

٤ — جاء فى يوحنا حوار بين المسيح وتلاميذه ، وبين بعض التلاميذ وبعض بعد موت المصلوب ودفنه ، وبالنظر فى هذا الحوار نجد أنفسنا أمام تأملات توجب التمهل فى الحكم والحذر فى القطع بقيام المصلوب بعد موته ، حيث إن القول بظهور المسيح بكامل كيانه يوحى بعدم مس الضر والأذى له ، فضلا عن الموت والآلام وهذا هو نص يوحنا :

« ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع ، وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف فى الوسط ، وقال لهم سلام لكم ، ولما قال هـــذا أراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب ... أما توما أحد الإثنى عشر فلم يكن معهم حين جاء يسوع فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب ، فقال لهم : إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير وأضع إصبعى فى أثر المسامير ، وأضع يدى فى جنبه لا أومن ، وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلا وتوما معهم ، فجاء يسوع والأبواب مغلقة ، ووقف فى الوسط وقال سلام لكم ، ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى ، وهات يدك وضعها فى جنبى ، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً . أجاب توما وقال له : ربى وإلهى ، قال يسوع لأنك رأيتنى يا توما آمنت »(١) .

---

(١) يوحنا ٢٠ : ١٩ — ٢٩

يحكى يوحنا أن المسيح ظهر لتلاميذه أربع مرات . الأولى : لمريم المجدلية عند القبر فجر يوم الأحد ، والثانية : للتلاميذ والأبواب مغلقة ، وفى غيبة [توما] ، والثالثة : ظهر فيها للتلاميذ فى حضور توما ، والأخيران يتضمنهما النص الذى بأيدينا — وإن كانوا يجعلونها مرة واحدة، أما المرة الرابعة : فظهر للتلاميذ وهم يصطادون السمك عند بحيرة طبرية ، وأنه أعطاهم خبزاً وسمكا مشوياً فأكلوا ، وبعد حوار بينه وبين بطرس أوصاه برعاية الأتباع .

والذى يعنينا الآن هو الدراسة حول النص الذى بأيدينا تحليلا وتعليلا فنقول :

١ — كان الظهور عشية اليوم الأول الذى أشيع فيه القيام من الموت.

٢ — أن الله أعطاه خاصية اقتحام المكان وأبوابه مغلقة ، ويبدو أنه دخله من خلال الثقوب ومسام الحوائط ، وإلا فما فائدة الإصرار على تكرار كلمة : فدخل والأبواب مغلقة ؟ ونحن وإن تنزلنا فسلمنا بهذه الخاصية — وإن كانت فوق تصور البشر — إلا أن هذه الظاهرة تقوى مذهب من يقول بانفلاته من الموت والصلب مهما كانت قوة الممسكين به وقدرتهم ، ومرجح قوى لنجاته ، فإمكان نجاته بوسيلة حجب أبصار ناظريه عن معرفته ، أو بوسيلة تغير هيئته وإلقاء شبهه على غيره أهون من إمكان دخول المكان وأبوابه ومنافذه مغلقة .

٣ — إنه بمجرد دخوله على التلاميذ أراهم يديه وجنبه .

ونقول : لماذا أعطاهم المسيح من نفسه برهاناً على ظهوره من غير أن يسألوه دليلا على ذلك ؟ ثم ما حاجتهم إلى برهان ما دام قد تنبأ بذلك وأخبرهم به أثناء تبليغ رسالته ؟ ألم يقل لهم : « ابن الإنسان سوف يسلم إلى أيدى الناس فيقتلونه ، وفى اليوم الثالث يقوم »(١) ؟

---

(١) متى ١٨ : ٢٢ : ٢٣

فهل هو النسيان منهم لنبوءته ،؟ أو هو الشك فى حقيقة الشخصية البادية أمامهم ؟ أم هو الدهشة من ظاهرة غير معهودة الوقوع من قبل ؟

إن الرؤية الصادقة لهذا الظهور — إن صح وقوعه — هو تعريفهم بنجاته من غير ضر ولا إيذاء ، وأما الموقف من النصوص فهى للدلالة على وقوع الصلب والموت للبديل الخائن ، أو هى وضعية إلحاقية .

٥ — مايصدره يوحنا من فرح التلاميذ لما رأوا المعلم فى أول اللقاء به قبل أن يعطيهم من نفسه برهانا ، يناقضه لوقا فيما يذكره من فزعهم وخوفهم لما رأوه فى أول لقائهم به قبل أن يريهم برهاناً فيه ، قال لوقا : « إنهم لما رأوه فزعوا وخافوا وظنوا أنهم رأوا روحاً »(١) فأين الفرح هناك من الحزن هنا ؟ أقل مايقال هنا هو إسقاط كلا النصين .

٥ — أخبر التلاميذ الحوارى (توما) برؤيتهم له فى غيبته فقال : لا أومن حتى أضع إصبعى فى ثقوب يديه وجنبه ، ونقول :

(أ) أليس من المدهش حقاً أن يتقبل المسيحيون عدم إيمان (توما) بقيامة المسيح بعد قتله وصلبه — وهو أحد الإثنى عشر — إلى ما بعد هذا الظهور حتى يطالب عليه برهانا مع ماهو مفروض أنه أخبرهم بذلك قبل زعم صلبه ، وهو من أخلص المؤمنين بقوله وفعله ؟

إن هذا الموقف من توما يعطى دليلا على أن فكرة القيام هـــذه لا أصل لها فى دين المسيح — عليه السلام — وإلا فكيف غابت عن الحوارى هذا حتى يخاصمه ويجادله فيها ويصر على إعطاء البرهان على ذلك ؟ (قال يسوع: لأنك رأيتنى ياتوما آمنت) والسياق خال من اعتراف توما صراحة بفكرة هذا القيام بعد ماجس الجسد المثقوب .

---

(١) لوقا ٢٤ : ٣٦ ، ٣٧

كما أن موقف توما هذا يعطى أحد أمرين :

فإما أن يكون غير مصدق بما أخبر به المسيح عن هذه العقيدة ، وفى هذا رفض للمسيح وعدم الإيمان بما جاء به ، فلا يصح إذن أن يكون من الحواريين ، ويقاس عليه فى هذا الرفض وعدم الإيمان سائر الحواريين لأنهم لم يؤمنوا هم به أيضاً إلا بعد أن أراهم من نفسه البرهان على صدق قيامه من الموت بجسمهم أثر المسامير فى يده وجنبه وإما أن تكون النصوص التى فاضت بها الأناجيل من أن ابن الإنسان يسلم ويصلب ويقوم بعد ثلاثة أيام أكذوبة وضعت زوراً لتبرير هذه الفكرة ، بعد ماشاعت وصار لها صدى ثابت فى الأذهان ، لتلقن للأجيال القادمة ، أو تكون النصوص صحيحة ويعنى (بابن الإنسان) شخص آخر غير المسيح ألقى شبه المسيح عليه فسلم وصلب ، ولكن من غير القول بالقيام بعد الموت ، ولما رأوا المسيح صاحب الشبه الحقيقى الذى لم يصلب موجوداً بعد موت الشبيه ظنوا أن الشبيه قام من الموت فوضعوا صيغة القيام من الموت على المصلوب وماهو بقائم فعلا ، وتكون النتيجة أن صيغة الأناجيل فى قولها بموت ابن الإنسان على الصليب يراد بها الإنسان الشبيه ، وعبارة القيام من الموت للدلالة على ظهور المسيح بعد موت الشبيه المصلوب لاموت المسيح ، من غير يقين منهم بنجاة المسيح . وأنهم جمعوا دلالات العبارتين على شخص واحد هو المسيح على أنه المصلوب وفسروا ظهوره بعد النجاة بالقيام من الموت ، وبذلك تكون عبارة الموت والقيام صحيحة إن صحت وقائع ظهور المسيح بعد صلب الشبيه وموته .

وربما كانت دهشة توما لرؤية معلمه سببها التباس شبهه بشبه يهوذا المشبه بالمسيح ، هذه وجهة نظر ربما تصلح كمحاولة للتوفيق بين النصوص المتعارضة .

٦ — كيف يحتاج التلاميذ إلى برهان حسى مع إيمانهم فى الوقت

نفسه بألوهية المسيح ؟ فهل يصح أن يطالب الإنسان إلهه ببرهان على فعله؟ خاصة وأنه أعلمهم قبل موته بما شاهدوه بعد موته .

٧ــ أما قول توما للمسيح «ربى وإلهى» فى نص يوحنا هذا ، فلا يعنى به ظاهر معناه ، فإنهم أطلقوا على المسيح كلمة «الرب» بمعنى المعلم فى حياته بينهم ، وهو كثير فى الأناجيل(١) ، كما أن كلمة «إله» قد حملت على المرشد، والملهم، والمعلم أيضاً ، فقد أطلقت التوراة على سيدنا موسى كلمة «إله» لأنه يعلم أخاه هارون مايوحى إليه ليبلغه للشعب بدلا عنه لثقل فمه ولسانه ، فقد جاء فى سفر الخروج أن موسى ــ عليه السلام ــ اعتذر إلى ربه عن تحمل أعباء الرسالة بقوله : «أنا ثقيل الفم واللسان ، فقال الله أليس هارون اللاوى أخاك ... وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها»(٢) .

٨ ــ بقيت ملاحظة بالنسبة لتوما فى لقاء المسيح بالتلاميذ بعد الظهور ، إن متى يقول (إن المسيح كان لقاؤه بالأحد عشر مجتمعين ، ومن غير غيبة توما وكذلك قال مرقس ، فلماذا غيبه يوحنا ، ولم يكتمل عددهم إلا فى لقاء آخر بعد ثمانية أيام من ظهوره ؟

خلاصة ما جاء فى يوحنا من قصة الظهور :

إن قصة ظهور المسيح بعد موت ــ إن صح ذلك الظهور ــ ربما يرمى ــ فى نظرى إلى هدفين ، أحدهما إلى اليهود ، والثانى إلى التلاميذ :

أما بالنسبة إلى اليهود . فإذا نما إلى علمهم ذلك الظهور يدركون أنهم

---

(١) إقرأ يوحنا ١ : ٣٨ و ٢٠ : ١٦؛

(٢) خروج ٤ : ١٠ ، ١٤ ، ١٦

أخذوا من كانوا يشكون فى شبهه أثناء محاكمته ، أما المسيح فقد فلت من أيديهم ، فيكون غيظهم منه أشد، وليدركوا أن الله رد كيدهم إلى نحورهم، على مثال قوله تعالى : « وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »(١) .

وأما بالنسبة إلى التلاميذ : فهو إزالة خوفهم من اضطهاد اليهود لهم والحجر عليهم فى ممارسة الدعوة إلى دين المسيح ، وإعلان لهم بأن الله معهم ، فهو ينصر رسله والمؤمنين ، وذلك لينطلقوا فى الدعوة غير مبالين ولا خائفين ، وبذلك فليفرحوا وتطمئن منهم القلوب ، وقد تنبأ عن ما له هذا أثناء حياته بين ظهرانيهم ، قال عنه يوحنا : « بعد قليل لا تبصرونى ثم بعد قليل أيضاً ترونني... فقال قوم من تلاميذه بعضهم لبعض... لسنا نعلم بماذا يتكلم ... فقال لهم : أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ... ألحق الحق أقول لكم إنكم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح »(٢) وقوله : « بعد قليل لا يرانى العالم أيضاً ، وأما أنتم فترونني إنى حى »(٣).

نحو فهم جديد لقصة الظهور :

فى الإمكان أن ندلى برأى فى قصة الظهور فى روايات الأناجيل بما يجنبها التناقض الذى تورطت فيه :

وذلك بأن يحمل وقوع الصلب ، والموت ، والدفن ، على يهوذا الإسخريوطى ، كما سبق أن أشارت الأناجيل ودلت عليه ظواهر النبوءات السابقة .

وأن يحمل ظهور المسيح بعد موت يهوذا على المسيح للدلالة على أنه لم يقتل ولم يصلب ، فهو ظهور من غير سابقة قتل ولا صلب .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٠ (٢) يوحنا ١٦ : ١٦—٢١

(٣) يوحنا ٦ : ٦٥

وعليه تنفك الجهة، وتتوافق النصوص، فجهة الموت والصلب تكون ليهوذا، وجهة الظهور والنجاة تكون للمسيح بناء على الشك فى شبهه أثنا محاكمته.

فالموت إذن وارد على شخص، والظهور بعد النجاة وارد على شخص آخر، ولا إشكال فى ذلك.

وما وقعت روايات الأناجيل فى ورطة التناقض فيما بينها فى ذكر قصة الصلب إلا لجعلها الحادثتين — القتل والصلب ثم الظهور — تقعان على شخص واحد.

هذه وجهة نظر يراد بها مراجعة المسيحى لنصوصه المقدسة التى يؤمن بها على تناقضها وعدم موافقتها فى هذه القصة. ولعل إعادة النظر فيها يكون نقطة البداية للهداية إلى صراط الله المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فإذا أخذ هذا التوفيق بين من النصوص مجراه إلى تصديق القلوب وقبول العقول لدى المسيحيين، وصرفت هذه النصوص إلى ما رأيناه من انفكاك الجهة بين من صلب ومن ظهر، فإنهم يخرجون من سذاجة القول بتوارث الخطيئة ومهزلة القول بتجسيد الآله، وإهانته لقاء خطيئة لا وزن لها فى معيار الخلق والكون، كما ينأون بأنفسهم عن القول بأن الهدف الأول والأخير من مجىء المسيح هو موته على الصليب، مع أن الأناجيل أثبتت أنه غير راض عن موته وصلبه، لأنه كان مستعدا وأصحابه للدفاع عن نفسه ولو بقوة السلاح(١)، وأنه ألح على الله بأشد لحاجة أن يصرف عنه كأس المنية(٢)، وأن الله قد استجاب له من أجل تقواه(٣) كما أثبتت النصوص.

---

(١) لوقا ٢٢، ٢٦، ٢٨ (٢) لوقا ٢٢، ٤٤

(٣) الرسالة إلى العبرانيين ٥، ٨

الفصل الخامس

طلب حي من الأموات خبل وهذيان وتناقض

إن من يقرأ روايات الأناجيل الخاصة بمسألة قيام المصلوب من الأموات وعودته إلى الحياة الدنيا كما كان يجد أنها نسيج العاطفة الدينية التي تبعث على الحيرة في فهم غوامضها .

فإذا تأمل القارىء مضامين هذه الروايات فإنه يتجلى أمام نظره أن القصة بنيت على أساس واه هو إلى الرد أولى منه إلى القبول والتسليم .

فلننظر روايات الأناجيل الخاصة بهذا القيام ومتعلقاته لكي تأخذ من التقدير ماتستحقه ولكي يكون استنتاج المفاهيم من النصوص مقنعا، مع الحرص على أن يكون واجب الإنصاف سبيلنا إلى ذلك .

قال يوحنا : « ثم إن يوسف الذي من الرامة وهو تلميذ يسوع ولسبب الخوف من اليهود سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع ، فأذن له وأخذ جسد يسوع ، وجاء أيضا نيقوديموس الذي أتى أولا إلى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مائة منا، فأخذا جسد يسوع ولفاه بأكفان مع الأطياب كما لليهود عادة أن يكفنوا ، وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان وفي البستان قبر جديد فهناك وضعا يسوع لأن القبر كان قريبا (١)» « وكان يوسف الرامي قد نحته في الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر (٢) » .

---

(١) يوحنا ١٩ : ٣٨ — ٤٢

(٢) متى ٢٧ : ٦٠ ، ٦١

وقال مرقس : « وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطا ليأتين ويدهنـــه ، وباكرا جدا فى أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس » وكن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر ، ورأين أن الحجر قد دحرج لأنه كان عظيما جداً (١).

وفى لوقا : « أن النسوة قد دخلن القبر ولم يجدن جسد يسوع ، وفيما هن محتارات فى ذلك إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة ... قالا لهن لماذا تطلبن الحى بين الأموات ، ليس هو ها هنا لكنه قام ، إذكرن كيف كلمكن وهو بعد فى الجليل قائلا إنه ينبغى أن يسلم ابن الإنسان فى أيدى أناس خطاة ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم فتذكرن كلامه ورجعن من القبر وأخبرن التلاميذ وجميع الباقين بهـــذا كله ... فتراءى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن (٢).

وقال يوحنا : « أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجا تبكى ، وفيما هى تبكى انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحدا عند الرأس والآخر عنــــد الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعا فقالا لها يا امرأة لماذا تبكين ، قالت لهما إنهم أخذوا سيدى ولست أعلم أين وضعوه ، ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفا ولم تعلم أنه يسوع قال لها يسوع يا امرأة لمــــاذا تبكين ؟ فظنت تلك أنه البستانى ، فقالت له ياسيد : إن كنت أنت قد حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ، فقال لها يسوع يامريم فالتفتت تلك وقالت له ربونى الذى

(١) مرقس ١٦ : ١ — ٤

(٢) لوقا ٢٤ : ٣ — ١٠

الذى تفسيره يامعلم ، قال لها يسوع لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى (١) .

هذا ما قيل فى حلقة من حلقات قصة الموت والقيام نعرض أهم فقراتها مع التحليل والتعليل لما نستنتجه من مضامينها .

١ — إن يوسف الذى من الرامة لم يكن وحــده الذى قام بإنزال الجثة من على الصليب وتجهيزها وإنما كان يعاونه نيقوديموس ، والإثنان حنطا الجثة بالمر والعود والطيب الذى بلغ وزنه مائة مناً (٢) .

ونقول : إن نيقوديموس كان تلميذا للمسيح ، ولم يعلم اليهود ذلك عنه لأنه كان عضوا فى مجلس القضاء اليهودى فكان يخفى إيمانه به ، وهو الذى قام بإقامة الشعائر الدينية على جسد المصلوب ، فهو الذى أتى أولا إلى يسوع ليــلا وهو حامل مزيج المر والعود ، لكنه لم يعرف ماعرفه الحواريون من كون المصلوب غير المسيح لأنه كان غائبا عن مواقع الأحداث :

أما موقف الأناجيل الثلاثة المتوافقة فلم تأت له بذكر عن قصد ويجهلونه جهلا تاما ، مع أنه التلميذ الخفى بحكم مركزه الدينى « كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئس لليهود (٣) » .

والذى نلاحظه ويلاحظه كل علماء الكتاب المقدس هو حذف الأناجيل لكل التلاميذ الغيورين المنكرين لذواتهم حذفا مقصودا خاصة

---

(١) يوحنا ٢٠ : ١١ — ١٦

(٢) (ألمنا) هو مكيال يكال به السمن وغيره ، وقيل الذى يوزن به ، وهو رطلان ، والمثنى (منوان) والجمع (أمنان) .

(٣) يوحنا ٣ : ١

فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة، وهـذا يدل على أن تأليف الأناجيل كان خصاميا .

٢ — ذهبت مريم المجدليـة والنسوة إلى القبر ومعن حنوطا ليدهن المقبور .

ونقول : هل يدلك اليهود موتاهم بعد الدفن بثلاثة أيام ؟ إن هـذا غير معقول ولا مقبول ، لأن جثث الموتى عادة تتعفن وتبدأ فى التحلل بعد ثلاثة أيام ، وإن مريم والنسوة تعرف هذا جيدا قياسا على جثة (لعازر) الميت حينما أراد المسيح إحياءه من الموت كمعجزة دالة على صدق و نبوته « وجاء إلى القبر وقد وضع عليه حجر قال يسوع ارفعوا الحجر قالت له مرثا أخت الميت ياسيد قد أنتن لأن له أربعه أيام » (١) .

٣ — لو فرضنا أن ذهاب مريم إلى القبر كان لتحنيط الجسد ، فهل من المعقول أن تقدر على حمل جسد يزن على أقل تقدير سبعين كيلو جرام مع تحنيطه بمائه منا حنطه بها نيقوديموس ؟ فضلا عن أن الجسد بدأ يتحلل وكان مقمطا بأكفانه .

وإذا فرضنا قدرتها على ذلك فمن لها برفع الحجر العظيم الذى يسدفوهة القبر؟ « وكن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر » .

٤ — إنها من غير شك لا تبحث عن جثة متعفنة ، إنها تبحث عن يسوع الحى غير الميت ، كما أنها لم تكن تبحث عن روح ، إنها تقول ليسوع المتخفى فى صورة البستانى : « ياسيد إن كنت قد حملتـه فقل لى أين وضعته وأنا آخذه »

أين وضعوه ؟ وليس أين دفنوه ؟ من أجل أن تأخذه .

---

(١) يوحنا ١١: ٣٨ ، ٣٩

٥ — ولما دخلن القبر ولم يجدن الجسد إذا رجلان وقفا للنسوة « قالا لهن لماذا تطلبن الحى بين الأموات ليس هو ههنا » .

إن الرجلين يخاطبان النسوة بمنطق العقل ، إذ لا يطلب حى هو فى الوقت نفسه ميت .

٦ — قالا للنسوة . « إنه قام ، إذكرن كيف كلمكن وهـو بعد فى الجليل إنه ينبغى أن يسلم ابن الإنسان ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم » ،

ونقول : لقد أقمنا الدليل فى فصل سابق على بطلان هذه العبارة ومثيلاتها ، ومع ذلك فهى هنا تحمل دليل بطلانها ، لأنه لو كان قالها من قبل فى الجليل لتذكرتها مريم ورفيقاتها ، لأنها عبارة تقرر عقيدة ، وكيف ينسى المؤمن عقيدة دينه؟ ، وهذا دليل على عدم قول المسيح لها من قبل ، وإذا كانت مريم والنسوة نسينها ولم تذكرنها فهل نسيها التلاميذ أيضاً؟ إن التلاميذ لم يسمعا عن هذه المقولة من قبل ، أنظر إلى قول لوقا : « فتذكرن — أى النسوة — كلامه كله ، ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله . . . فتراءى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن » .

إنهم اعتبروا كلام النسوة بعبارة الكلام المذكور كأنه كلام المعتوه المخبول الذى يتكلم بما لا يعقل ولا يعقل « إنه كلام الهذيان » ولهذا لم يصدقوهن لا فيما سمعاه ولا فيما تذكراه ، إذ من المحال أن يتذكروا شيئاً لم يسمعوا به من قبل ، ومن المحال أيضاً أن يعترفوا — وهم الحواريون — بقول الزور ، ولهذا لم يصدقوهن ، ومع كون هذه العبارة مصطنعة فقد أفادت فائدة عظيمة لم تكن فى الحسبان إذ نبهتنا إلى أن الجثة سرقت

من القبر يقينا ونقلت ووضعت فى قبر آخر ، والدليل على ذلك هو أن خبر سرقتها شاع فى ذلك الحين .

قال متى : « وفيما هما ذاهبتان — أى مريم المجدلية ومريم الأخرى إلى الحواريين — إذا قوم من الحراس اجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين قولوا إن تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ونحن نيام ، وإذا سمع ذلك عند الوالى فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئين فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم » (١) .

٧ — أما كيف سرقت ، ومن الذى سرقها ، ومتى كان ذلك ، وما القصد منه وما هى الجثة التى سرقت؟ إنه إذا أمكن الإجابة على هذه الأسئلة فإن ألغاز هذه القصة تكون قد حلت . واهتدينا إلى حقيقة قول الله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

ومن السهل أن نحصل على هذه المعلومات إذا لاحظنا أن التلميذين — يوسف ونيقوديموس — هما اللذان تشاركا فى تكفين الجثة ، ودفنها فى قبر بملكه ملكية خاصة التلميذ الخفى يوسف الذى من الرامة ، والذى كان غنياً جداً ، وكان يهوديا ذا نفوذ ، والذى فى مقدوره أن يقوم بنحت حجرة فسيحة فى جبل لتكون مقبرة ، فليس بعيداً أن يتفق التلميذان على نقل الجثة من القبر ، ويترجح أنهما فعلا ذلك فى الثلث الأخير من ليلة الأحد ، كما يستدل من قول الإنجيل أن المجدلية جاءت قبل فجر الأحد لتزور القبر فوجدته مفتوحاً وخالياً ، وأنها نظرت رجلين داخل القبر ، واحداً عند الرأس والآخر عند الرجلين ، فلا شك أنهما اللذان نقلا

---

(١) متى ٢٨ : ١١ — ١٥

الجثة من القبر وأدركتهما مريم قبل أن ينصرفا ، لاسيما وأن الروايات متخبطة فى تعيين من رأته مريم عند القبر .

٨ — أما السبب الباعث على رفع الجثة من القبر وتركة خالياً، هو أن التلاميذ الذين كانوا متغيبين عن المدينة يوم الصلب ، ثم جاؤا فسمعوا الخبر شائعاً بأن اليهود صلبوا المسيح ، صدقوا هم أيضاً ، لأنهم لا يعلمون بنجاته ، بل لم يكن أحد يعلم بنجاته ورفعه حياً إلا الأحدعشر تلميذاً الذين كانوا معه ليلة هجوم اليهود وهربوا واختفوا عن أعين الناس خمسين يوماً، أما باقى التلاميذ الذين صدقوا الإشاعة ، فقد أصابهم من الحزن والغم مالا يوصف، فلهذه الأسباب خطر ببال التلميذين — يوسف ونيقوديموس — أن يشيعوا بأنه قام من الأموات نكاية فى اليهود ، ودفعاً لشماتتهم ، وتعزية للتلاميذ الحزانى الذين عندما سمعوا بخبر القيام فرحوا ، وزال عنهم ما كان يساورهم من الهموم والأحزان ، وراحو يبشرون إخوانهم بهذا الحال ومن هنا يمكننا معرفة من وحرج الحجر العظيم عن فوهة القبر ، إنهما التلميذان يوسف ، ونيقوديموس .

٩ — إن قيام الموتى من القبور بأجسادهم كانت فكرة متداولة فى ذلك العصر ، على مالنا عليها من تحفظات .

قال متى : « فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ... فإذا القبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجو من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين »(١) ، فلا غرابة أن تشيع هذه الفكرة عن المسيح .

---

(١) متى ٢٧ : ٥٠ — ٥٣

١٠ — قد يقول قائل: إن يوسف ونيقوديموس كانا يعرفان شخصية يسوع جيداً، فلو لم يكن هو المصلوب لما قاما بتجهيزه ودفنه، وإلا فكيف يعقل أن يصنعا هذا كله ولم يميزا شخصه من غيره؟

ونقول فى الجواب عن ذلك: إنهما لم يكونا يعرفان صورة وجهه حق المعرفة، لأنهما لم يجتمعا به إلا قليلا، فقد كانا به مؤمنين ولكن سراً بسبب خوفهما من معارضة رؤساء اليهود، فنيقوديموس، كان عضواً من أعضاء [السنهدرين] مجلس القضاء الأعلى الشرعى، فلا يمكنه أن يظهر لهم إيمانه بيسوع حتى لايعادوه:

ولهذا لم يجتمع به إلا مرة واحدة بالليل [أنظر يوحنا ٣ : ١] ويوسف أيضاً مثله ولهذا لم يرد ذكر اسمهما فى الأناجيل كتلميذين إلا فى هذه المناسبة. فمحال أن يتحققا من شخصيته، لاسيما وأن المصلوب قد اعتراه تغير شديد مما قاساه من الصلب ومن قبله الضرب والتعذيب، بحيث الذى كان يعرفه لم يعد يعرفه.

هذا فضلا عن أنه ألقى عليه شبه المسيح، ولا يدركه إلا من شاهده ليلة الهجوم والقبض على المصلوب، وهما كانا غائبين فى تلك الليلة، ومن هنا يمكننا أن ندرك من هو المصلوب الذى سرقت جثته؟

نقول: إنهم زعموا أن يهوذا الاسخريوطى هو الخائن الذى وقع فى الحفرة التى حفرها لسيده، أما نحن المسلمين فلا يلزمنا تعيين اسم أو شخص من صلب، لكننا نقول: إنه الشبيه وفقط، وما ترجيحنا إلى أنه يهوذا إلا بناء على حصرهم الشر فيه، ومجازاة الشرير هو القانون الذى يقولون: بهوبه يؤمنون «إن الشرير فديه الصديق» وهذا أولى من جعل الصديق عيسى المسيح فدية عمل الشر والخطيئة من آدم وبنيه بالوراثة.

١١ — نعود إلى المجدلية لتعرف السبب الذى من أجله ذهبت إلى القبر، مع إدراكها بعـــدم قدرتها على دحرجة الحجر العظيم جداً ، وتدرك كذلك أن البدن الطبيعى وهو ميت، لا يستطيع أن يدفع ذلك الحجر ليخرج من القبر ، كما أنه لو استطاع ذلك لما استطاع أن يمشى خارجا وأكفانه تقمطه ، اللهم إلا إذا كان هدفها أن تطلب الروح وليس الجسد وهذا غير وارد لأن ذلك لا يستدعى رفع الحجر ، ولا حمل الحنوط إليه، لـكنها فى الحقيقة تطلب يسوع الحى لا الميت ، فقد كان يسوع يراقبها عن قرب ليس من السماء ولا من القبر بل بجوارها من الأرض الواقفة عليها خارج القبر . فها هى تقف وجهاً لوجه أمام يسوع المتخفى فى شبه البستانى ، « فقال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين من تطلبين؟ فظنت تلك أنه البستانى ، فقالت له ، إن كنت حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ».

فمن ذا الذى تأخذه مريم ؟ المدفون الذى تعفن ؟ كلا، إن هذا غير معقول، إنه يعاود مناجاتها فيسمعها صوته بالنغمة التى تعرفها فى نبرات صوته قبل نجاته ، يناديها فى مداعبة وملاطفة (يامريم) فكانت هذه الكلمة هى كلمة التعريف به وانـكشاف حقيقته لها ، (فالتفتت تلك وقالت ربونى الذى تفسيره يامعلم) وهنا عثرت على مطلبها ، ونالت مأربها ، لقد طلبت الحى لا بين الأموات، ولـكنه الحى بين الأحياء ، فتقدمت متلهفة إليه ، ولـكنه قال لها (لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى) والمعنى الواضح من هذه العبارة أنه لم يمت بعد ، فإن الذى يموت تصعد روحه إلى ربها وبارئها، إن هذه العبارة تعنى : إنه لم يقم من بين الأموات مادام لم يصعد بعد إلى ربه وإلهه ، إنه لم يمت بعد حتى يقوم .

١٢ — بق أن يقال : لماذا تخفى فى شبه البستانى ؟

نقول : لأنه لم يكن قدمات، وما أراد إلا أن يعلن أن الله نجاه ورد كيد اليهود فى نحورهم ، فلو كان فى شبهه الحقيقى لعادوا سيرتهم الأولى فى مطاردته ثم إنه لا مبرر لظهوره فى شبه البستانى إذا كان قد مات لأنه فى الدين اليهودى أن الأجساد التى قامت من الموت لن تموت ثانية(١) فعلام التخفى ؟

إذن هو لم يمت ، ولذلك لا يرى أن يظهر لليهود فى شبهه الحقيقى .



(١) إقرأ الرسالة إلى العبرانيين ٩ : ٢٧

الفصل السادس

أدلة الكتب المقدسة وشواهدها على رفع المسيح بعد نجاته

قال تعالى : « . . . وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »
[النساء / ١٥٧ ، ١٥٨]

قال المسيح لليهود : « ستطلبوننى ولا تجدوننى وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا »
[يوحنا ٧ : ٣٤]

لقد تبين مما ذكرناه فى الفصول السابقة أن إمكان رفع المسيح — عليه السلام — من غير سابقة موته قررته النصوص المقدسة ، كما تبين منها أن وسيلة رفعه تتمثل فى اقتدار المسيح — بقوة من الله تعالى — على أن يمسك أعين ناظريه — يهودا أو تلاميذ — عن معرفته ، وهم يحادثونه ويحادثهم ، كما تتمثل أيضاً فى اقتداره — بإذن الله تعالى — على تغيير هيئته ، ويدرك هـــذا التغيير ويشهد به تلاميذه ، حتى إنهم أدركوا رفعه من بينهم ساعة الهجوم عليه ، وسقوطهم على الأرض صرعى ، وانطفاء مشاعلهم — على ما سنعرفه بعد — حتى إنهم هربوا من وجه المهاجمين لما عرفوا أن المقبوض عليه غير المسيح ، وهاتين الوسيلتين ذكرتا فى الأناجيل سبيلا إلى رفعه ، والله سبحانه خالق الوسائل والأسباب والمسببات ، وهو غنى فى أفعاله عن الأسباب والعلل ، والله غالب على أمره ، لكنها قوانين العادة وسننها التى نظم الله بها الوجود فى الأسباب والمسببات .

ومما يدل على رفع المسيح دون سابقة قتل وصلب ماذكرته الأناجيل

من كونه أرى نفسه لتلاميذه — بعد حادثة صلب الشبيه — جسما ذا لحم وعظم ، وأنه أكل معهم خبزاً وسمكا وعسلا كما يأكل من لم يمسه قتل وموت وفناء كدليل لهم على سلامته من ذلك .

أما الإسلام فقد أثبت رفعه عليه السلام دون ذكر لوسيلة أو علة ، وذلك لأن فعل الله غير معلل بعلة أو سبب ، قال تعالى : «وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما(١) » . فليس رفع عيسى بأعظم من خلقه من غير أب ، ولا بأعظم من خلقه فيه المعجزات العظيمة الوارد ذكرها فى القرآن والأناجيل .

هذا ، وقد وردت فى الأناجيل نصوص كثيرة تدل على أن الله سبحانه رفعه إليه معززا مكرما ، من هذه النصوص :

١ — قال لوقا : «وحين تمت الأيام لارتفاعه — أى المسيح — ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم(٢) » .

أى لما قرب وقت نهايته على الأرض توجه — بقدر الله — إلى المكان الذى قدره الله أزلا أن يرفع منه .

ولا يقول قائل : إن هذا القول من لوقا نبوءة منه لنهاية المسيح ، لأنا نقول :

(ا) إن لوقا ليس من خواص تلاميذ المسيح الذين أعطاهم سلطانا فى القول أو الفعل .

(ب) إن ذلك القول من لوقا عبارة عن تاريخ لقصة وقعت سلفا للمسيح ، قام بكتابة وقائعها بعد حدوثها ، وقد التزم فى مفتتح إنجيله أن يكتب قصة تاريخ كلمة الله عيسى متوخيا التدقيق والتحقيق ، مستمدا المعلومات من خواص تلاميذه الذين كانوا يقومون بخدمته .

---

(١) النساء/١٥٧ ، ١٥٨

(٢) لوقا ٩ : ٥١

ومن الجدير بالملاحظة أن لوقا قال : « وحين تمت الأيام لارتفاعه» ولم يقل : وحين تمت الأيام لقتله وصلبه ثم ارتفاعه ، فقد قصر الحادثة على الارتفاع دون سابقة موت أو صلب .

٢ — ومنها قول المسيح — عليه السلام — « وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان »(١) .

أى وكما رفع موسى الحية حال حياتها فتلاشت حيويتها وصارت عصا كما كانت أمام أعين المنكرين لإعجازها . هكذا يكون ابن الإنسان — عيسى — ينبغى أن يرفع منسلا من بين المنكرين لرفعه حياً من غير صلب ولا موت .

فهذا تصوير من المسيح لكيفية رفعه بالقياس على رفع موسى العصا لتعود كما كانت ، وقوله هذا تقريب للأفهام كى تستوعب إمكان رفعه حيا.

٣ — ومنها قول المسيح — عليه السلام — « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع »(٢) .

فهذا القول يوحى معناه بأن رفعه ارتفاع تكريم وليس ارتفاعا بعد إهانة وتحقير، هو تكريم جسدى وروحانى حيث رفعه الله فى المكان المعلى، وقوله : « أجذب إلى الجميع » يشير إلى أن من آمن به واتبعه ينجذب إليه باللحاق به فى تكريم روحى فى المكانة العلية ، وربما يشير إلى هذا التكريم قوله تعالى فى رفعة أتباع عيسى . . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة »(٣) .

---

(١) يوحنا ٣ : ١٤

(٢) يوحنا ١٢ : ٣٢ (٣) آل عمران/٥٥

٤ — وقال يوحنا : « وقال لهم يسوع : أنا أمضى وستطلبوننى حيث أمضى أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا ، فقال اليهود : ألعله يقتل نفسه ؛ فقال لهم : أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق »(١) .

أقول : الظاهر من هذا القول أن المسيح يتحدى اليهود بأنهم لن ينالوه مهما أوتوا من قوة ، فيشير إلى رفعه لحظة أن يحيق الحرج به ، فهو يكون إلى فوق « وهم فى ذات الوقت فى الأرض أسفله ، فأنى لهم قدرة توصلهم إليه حين يطلبونه ؟ هيهات هيهات أن تقدروا على ذلك .

ومن هنا يتأكد رفعه من غير ضر مسه لأنه رفع وقت طلبهم إياه لقتله .

٥ — وفى موقف آخر كرر لهم هذا الكلام بعينه حينما رآهم مصرين على قتله ، وذلك لما أرسل الكهنة خدامهم ليمسكوه : « فقال لهم يسوع : أنا معكم زمانا يسيراً بعـــد ، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى ، ستطلبوننى ولا تجدوننى ، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا »(٢) .

٦ — لم ينس المسيح أن يبلغ التلاميذ بذلك ويعلمهم بأنه بلغ اليهود بذلك فيقول : « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلا بعد ، ستطلبوننى وكما قلت لليهود : حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا فقال له سمعان بطرس يا سيد إلى أين تذهب ؟ أجاب يسوع حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعنى(٣) .

من المعلوم أن بطرس يستطيع أن يتبع المسيح حيث يكون فى أى مكان ولو إلى القبر ، أما قوله لا تقدر أن تتبعنى الآن — أى عقب حديثه معهم — فليس يشير إلا إلى رفعه إلى مكان لا يقدر بطرس على الوصول إليه ،

---

(١) يوحنا ٨ : ٢١ — ٢٣

(٢) يوحنا ٧ : ٣٢ — ٣٤ (٣) يوحنا ١٣ : ٣٣

ثم إن قوله (الآن) لا يشعر بالتراخي الزمني إلى ما بعد الموت والدفن إلى ثلاثة أيام كما زعموا، بل يشير إلى الرفع العاجل وربما في ليلة حديثه هذا معهم .

٧ — وإذا طالعنا من العهد القديم بعض أسفاره نجد نبوءة لنبي الله داود — عليه السلام — يسندها إلى الله في أحد المزامير ، تشير هذه النبوءة إلى رفع المسيح سالما آمنا من غير روع ولا فزع ، نجتزىء منها هذه الفقرة : « لأنه — أي المسيح — تعلق بي أنجيه ، أرفعه لأنه عرف اسمي ... أنا معه في الضيق أنقذه وأمجده ، من طول الأيام أشبعه ، وأريه خلاصي »(١) .

هذه فقرة من نبوءة نبي الله داود ، أشار إليها إنجيلي متى ولوقا في مسألة معروفة بتجربة إبليس ليسوع — ذكرناها آنفاً — وهي نبوءة ثرية بعبارات الرفع والنجاة ، مثل قوله : أنجيه ، أرفعه ، أنقذه ، أمجده ، أشبعه طول الأيام من غير طعام ولا شراب ، أريه خلاصي .

وتمجيد المسيح يتنافى مع صلبه وقتله ، وإهانته، وإنما تمجيده وإنقاذه يكون برفعه من بين الأشرار بلا مساس .

ما يستفاد من الأدلة :

المتأمل في الأدلة المذكورة يجد أنها تفيد أمرين :

الأول : إخبار الأناجيل بأن اليهود سيطلبونه لقتله فلا يجدونه . ولا يقدرون أن يصلوا إليه في مكانه .

---

(١) إقرأ مزمور ٩١ : ١١ — ١٦

الثانى : رفعه دون أن ينالوه ، وفى ذلك تمجيده وتشريفه وتكريمه .

وقد أكد هذين الأمرين محضر التحقيق مع المقبوض عليه أمام هيئة القضاء اليهودى ، فهيا بنا نحضر هذه المحاكمة لنسمع السائل رئيس مجلس القضاء ، والمجيب المتهم الماثل للتحقيق .

وثائق التحقيق تشهد بنجاة المسيح ورفعه :

لقد بدا لهيئة القضاء الموكلة بالتحقيق مع المتهم ـ المزعوم أنه يسوع ـ أنه غير يسوع ، ربما لأن نبرات صوته ليست هى نبرات صوت يسوع المعهودة لهم ، وأن خصائص النبوة المختصة بيسوع ليست فى الماثل أمامهم ، وربما كانت هناك مبررات أخرى أحسوا بها .

وها نحن نعرض ما ذكرته الأناجيل فى ذلك :

١ — فى متى يشك رئيس الكهنة فى حقيقة الشخصية الماثلة أمامه ، فيسأل المتهم بقوله : « أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله الحى ؟ فقال — من زعموه — يسوع ، أنت قلت ، وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء »(١) .

٢ — وفى مرقس : « فسأله رئيس الكهنة أيضا وقال له : أأنت المسيح ابن المبارك ؟ فقال المزعوم — يسوع : أنا هو ، وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا فى سحب السماء »(٢) ،

٣ — وفى لوقا : « ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء

---

(١) متى ٢٦ : ٦٣ ، ٦٤ (٢) مرقس ١٤ : ٦١ ، ٦٢

الـكهنة والـكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين : « إن كنت أنت المسيح فقل لنا » فقال لهم : إن قلت لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبوننى ولا تطلقوننى ، منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله ، فقال الجميع : أفأنت ابن الله ! فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو »(١) .

ما يمكن أن يفهم من التحقيق :

١ — الشك فى حقيقة من مثل أمام هيئة القضاء ، وقد مر بيان ذلك فى الفصل السابق .

٢ — إنكار المتهم بأنه يسوع ، حيث لم يزد فى الجواب عن السؤال عن هويته عن قوله : أنت قلت ، أنا هو ، وقد مر فى الفصل السابق أن هذه الإجابة لا تثبت إقرارا بتهمة حينما كانت هذه العبارة إجابة على سؤال الوالى .

٣ — يتفق متى ومرقس فى قوم المتهم للمحكمة : « من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة ، وآتيا على سحاب السماء » .

ونقول : قوله « من الآن ترون ابن الإنسان على سحاب السماء يدل صراحة على أن ابن الإنسان الآن ، أى وقت المحاكمة ، قد رفع إلى عنان السماء ، فكأنه يقول : ليس ابن الإنسان على وجه الأرض الآن ، وإنما هو فى مكان لا تقدرون أنتم أن تأتوا إليه من الآن ، فهم حين يسألونه عن كونه يسوع أم لا ؟ يدلهم بصراحة على مكانه فى لحظته تلك ، وإلا مما وجه الصلة بين سؤاله عن تحقيق شخصيته وبين هذه الإجابة ؟، إنه يريد أن يحول وجهة السؤال من : هل أنت المسيح ؟ إلى السؤال عن

---

(١) لوقا ٢٢ : ٦٦— ٧٠

أبن المسيح الآن ؟ ولـكنهم لم يفهموا وجه الحق لأن شبه المسيح محكم على المتهم ، ولهذا نرى إجابة المتهم فى لوقا واضحة وجلية جدا فى الدلالة على أن الشبيه ليس يسوع ، وأن يسوع قد رفع بقوة الله وقدرته ، ثم هو يستيئس من عدم تصديقهم إياه فى دلالته لهم على الحقيقة ، فما أروع إجابته فى لوقا : « إن قلت لا تصدقون وإن سألت لا تجيبوننى ولا تطلقوننى ، منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله » .

فما الذى يريد المتهم أن يقوله ، ويعتقد أنهم لا يصدقون قوله هذا ؟ وما السؤال الذى إن سأله يكون فيه إحراجهم ، لأنهم إن تشجعوا وأجابوا بالإجابة الصحيحة الصادقة سيضطرون إلى إطلاق سراحه ، وفى ذلك عار وخزى لهم وخيبة لأملهم ، فضلا عن صغارهم أمام الرأى العالم اليهودى ؟ .

إنه يصرف النظر عن ذلك كله — لاستيئاسه — فيختصر التحقيق ببيان وجه الحق فى الدلالة على مكان المسيح الآن ، فيدل على أنه فى السماء وليس فى الأرض إنه فى الأعالى فوق ، أمامهم فى الأسفل فى الأرض يقول: «منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله » .

فقوله «منذ الآن يكون ... عن يمين قوة الله » أحكم فى القول من قول الآخرين «ستبصرونه عن يمين القوة » لأن معناه : إنه فى كنف القوى العزيز الحكيم الآن .

وقولهم جميعا : « إنه عن يمين قوة الله » أحكم وأنزه من قول المعاصرين « إنه عن يمين أبيه » وهذه العبارة لم تنطق بهـــا الأناجيل ، فمن أين أتوا بها ؟ ! !

فالإجابة فى لوقا قولة صريحة صحيحة ، وكأنه يرى المسيح المرفوع

والمسيح يراه كما أخبر المزمور ٩١ : ٨ « إنما بعينيك تنظر مجازاة الأشرار » .

تعيين يوحنا لزمان الرفع ومكان :

جاء فى يوحنا : « وخرج يسوع مع تلاميذه إلى عبر وادى قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع ، لأن يسوع اجتمع هناك كثيرا مع تلاميذه ، فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتى عليه، وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه يسوع الناصرى ، قال لهم يسوع : أنا هو ، وكان يهوذا مسلمه واقفا معهم فلما قال أنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض فسألهم أيضا من تطلبون « فقالوا يسوع الناصرى » . أجاب يسوع : قد قلت لكم إنى أنا هو ، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون — يعنى بهم تلاميذه — ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة ، فقطع أذنه اليمنى ، وكان اسم العبد « ملخس » . فقال يسوع لبطرس : اجعل سيفك فى الغمد ، الكأس الذى أعطانى الآب ألا أشربها ، ثم إن الجند والقائد وخـــدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى رئيس الكهنة » .



(١) يوحنا ١٨ : ١ — ١٣

دلالة هذا النص على رفع المسيح وعدم صلبه :

يثير هذا النص فى نفس القارىء والسامع معارغبة فى التأمل لجميع ألفاظه ودلالة معانيه ، ففى طيها الدلالة على كون المقبوض عليه شخصا آخر غير المسيح — عليه السلام — وإليك الملاحظات التى تقررت فى هذا النص :

١ — جاء الخدام ، والجند ، والقائد مع يهوذا ليقبضوا على يسوع المسيح ، فلما وصلوا إليه توقفوا ،وتمهلوا حتى أخذ فرصة يسألهم فيها عن «من تطلبون ؟» .

٢ — الذى يبدو من قول يوحنا هذا أن المسيح قد خفى شخصه عن المهاجمين لأنهم أنكروا شخصه ، وذلك لأنه بدالهم فى هيئة جديدة غير معهودة لهم .

والذى لا خلاف فيه بين روايات الأناجيل أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية — ربما لكونهم غير يهود — وهنا نقول :

كيف يتأتى منهم الإنكار له وهو لا يكون إلا ممن يعرفه حق المعرفة؟ فهذه لفتة تستوجب التسجيل على الأناجيل فإنكارهم له دليل معرفتهم له.

٣ — كان قصد يهوذا من مجيئه معهم أن يدلهم عليه ، ولكنه وقف صامتا ولم يفعل ما جاء من أجله، وهذا هو أول مواقف الشك الذى اكتنف عقول أعدائه ، حيث شكوا فى شخصه وارتابوا فى حقيقته ، ودليل ذلك أنه كان يكرر عليهم بأنه هو يسوع الناصرى ولكنهم لا يصدقونه مع ملاحظة أن الشك فى حقيقته لم يحصل من أصحابه ولكنه من طالبيه،

من الجنود ومعهم اليهود ، فعلى ضوء المشاعل والمصابيح أقبل عليهم يسوع المسيح وصار فى قبضتهم . وفى متناول أيديهم ، وخاطبهم وجها لوجه ، ولكنهم تصلبوا مكانهم ، وتوقفوا عن القبض عليه وأخذه .

٤ — لما أجابوه بقولهم « نطلب يسوع » قال لهم يسوع : « أنا هو » ولكنهم لم يقبضوا عليه بل رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض .

٥ — هناك أمر يجب الانتباه إليه ، وهو أن المشاعل والمصابيح لما سقطوا على الأرض سقطت المشاعل والمصابيح وانطفأت ، وعليه يصير المكان مظلما ، فهم أتوه فى ليل لئلا يعلم بالقبض عليه أتباعه وتلاميذه فتحدث بذلك فتنة .

هذه النقاط هى موطن التأمل فى هذا المشهد المثير للتعجب فى مناورة غير محبوكة الأطراف وإليك وجه دلالة النص على رفع المسيح وعدم صلبه .

وجه دلالة النص على رفع المسيح :

١ — إن التأمل فى الجمل التى استخرجت من نص يوحنا السالف الذكر يدعو إلى التفكر فيما يدور من معان حول ألفاظه ومراميه ، فعندما يرى القارىء قول عيسى لليهود « من تطلبون » ثم إجابتهم له وهم يبصرونه أمام أعينهم « نطلب يسوع » يدرك أن الله تعالى أمسك أعينهم عن معرفته ، لأن الله قد اختصه بأن يمسك أعين أعدائه عنه إذا أرادوا إيذاءه ، ولولا ذلك لكان جوابهم له « نطلبك » ويقبضون عليه فى الحال .

وإذا كان الله قد أمسك أعينهم عن معرفة عيسى فإنه بالتالى يمسك أعينهم عن معرفة يهوذا أيضا ، خاصة وأن الله ألقى سباتا على يهوذا فلم يقم بفعل شىء نحو المسيح ووقف صامتا .

هناك ظاهرة يلح العقل فى كشف غامضها وهى أنه: ما السبب فى تراجع هذا الحشد الهائل وسقوطهم صرعى على الأرض وانطفاء مشاعلهم ومصابيحهم ؟ فهل يكون الجواب أنهم خافوا من عيسى وارتعدوا منه حين أبصروه ؟ إن هذا الجواب غير معقول ، إذ لا يخيف الفرد الواحد هذه الكثرة الكاثرة ولا يزعجها ، وكيف يرهب الفرد الواحد وهو أعزل من السلاح كثرة شاكية السلاح ؟ الجواب بالطبع لا .

٣ — إذن ما كان سقوطهم على الأرض صرعى وانطفاء مشاعلهم إلا لأمر أراده الله — وهو القوى العزيز — تنفيذه فى هذه اللحظة ، وهو نجاة عيسى من كيدهم ومكرهم به ، ورفعه إلى محل كرامته ، تصديقا لما جاء فى كتاب داود عليه السلام : « لأنك قلت أنت يارب ملجاى جعلت العلى مسكنك لا يلاقيك شر ، ولا تدنو ضربة من خيمتك ، يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك ، على الأيدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك . لأنه تعلق بى أنجيه ، أرفعه لأنه عرف اسمى ، يدعونى فأستجيب له ، معه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده . . »(١).

٤ — ولما نهضوا من سقوطهم ووقعت أبصارهم على يهوذا أيقنوا أنه عيسى فأمسكوا به وأوثقوه وساقوه إلى رئيس الكهنة ، إذ مادام قد ثبت أنهم اشتبهوا فى وجه عيسى وصورته حين واجهوه فلم يتيقنوا أنه عيسى فلا بد كذلك أن يشتبهوا فى صورة وجه يهوذا ولا يروا فيه إلا سيما وجه عيسى وملامحه ، ولا يرجعهم عنه صراخه وصياحه بأنه ليس هو

---

(١) المزمور ٩١ : ٩ — ١٥

المسيح ، ومن هنا يتحقق قول الحق سبحانه وتعالى : « ولكن شبه لهم » والمشبه بالمسيح هو يهوذا الإسخريوطى حسبما أنبأ الإنجيل .

٥ — فمتى يقول عن يهوذا إنه انتحر عقب حادثة الصلب ، فهم لما لم يجدوه بعد هذه الحادثة ، ولم يعلموا ماجرى له ، قالوا إنه ذهب وأمات نفسه ، ولعدم ضبطهم لحقيقة نهايته جاء ذكره فى سفر الأعمال مخالفا لما جاء فى متى ، فمتى يذكر أنه صار نادما من تلك الليلة على فعلته فأصبح وقتل نفسه، أما سفر الأعمال فلم يقل إنه ندم ولا أنه أصبح فخنق نفسه كما ذكر متى ، ولكنه قال : إنه أخذ الثلاثين من الفضة من اليهود وهى أجرته على خيانته واشترى بها حقلا واقتناه — أى صار مالكه زمنا — وأن الله بعد ذلك أسقطه على وجهه فانشق من وسطه وخرجت أمعاؤه من بطنه .

وبالنظر إلى ماحكاه إنجيل متى وسفر الأعمال عن نهـــاية يهوذا واختلافهما فى طريقة موته وزمانه يثبت أنهم لما لم يروه عقب حادثة الصلب ألفوا حكاية موته حسبما تراءى لكل من الكاتبين ، ومن هنا يثبت أن يهوذا هو الذى وقع عليه الصلب يقينا ، وذلك بعد أن غير الله شبهه بشبه عيسى عليه السلام لينجيه من كيد الظالمين وليقع الشرير فى الهلاك الذى دبره لغيره ليذوق وبال عمله، جزاء وفاقا لنفاقه وغدره وخيانته ، والله سبحانه يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وما أدرى كيف يستسيغ المسيحيون أن يؤخذ المسيح ظلما بغير جريرة ارتكبها ويرجحون انفلات الظالم بظلمه وينعم الشرير زمنا بأجرة الخيانة .

هذا فضلا عن أن الأناجيل الثلاثة : مرقس ، لوقا ، يوحنا ، أغفلوا ذكر نهاية يهوذا وموته ، عقب حادثة الصلب ، ولما تحدثوا عن اجتماع الحواريين بعد الصلب ذكروا أن عددهم كان أحد عشر حواريا ، أما بالنسبة ليهوذا فلم يعقبوا عليه فى حياته بعد الصلب أو مماته، مما يرجح أنه

المصلوب المشبه بالمسيح ، وإن خفى عنهم تدبير العزيز الحكيم سبحانه وتعالى .

تذييـــل :

إن ما حصل من ظاهرة سقوط الجند فى الأرض مغشيا عليهم مع ما حصل لهم من الاضطراب الذى غمر نفوسهم حتى سقطت المشاعل منطفئة من أيديهم ، مع كون الوقت وقت ظلام ، كل ذلك كان من أسباب تيسير طريقة النجاة بالرفع من بينهم ، وفدائه بغيره بمعجزة التشبيه وتشابه الأمر عليهم ، وتم المراد فى هذه اللحظة التى اختل فيها توازن الجميع ، فتبلبل منهم الفكر ، وطاش العقل ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يتحققوا الذى أمامهم .

وهنا ملاحظة نود أن نلمح إليها وهى موقف يهوذا من المسيح آنذاك ، فقد كان واقفا مع المهاجمين ولم ينطق أو يفعل شيئا يدل به على المسيح ، بل كان ملازما للصمت ، فهلا كان من الجائز أن يكون يهوذا قد ندم على فعلته ببيعه سيده بثلاثين من الفضة ، فتاب وقبلت توبته آنئذ فألقى الشبه عليه ، وسيق إلى المحاكمة ثم إلى الحكم تكفيرا له عما فعله؟ ويكون الله بذلك قد قبل رجاء المسيح فى صلاته من أجل النجاة ، ولا يكون عيسى كاذبا فى وعده حين وعد يهوذا بأن يكون أحد الإثنى عشر الذين يجلسون على كراسى الدينونة يوم القيامة ليدينوا أسباط بنى إسرائيل كما قال الإنجيل ، أو يكون كاذبا فى وعده للإثنى عشر ومنهم يهوذا بأن ما يحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء ، وما يربطونه — وأى يحرمونه — على الأرض يكون مربوطا فى السماء(١) ، وحتى يكون

---

(١) إقرأ فى متى ١٨ : ١٨

صادقا ومصيبا فى وضع أمانة الدعوة فيمن اختارهم لها من الحواريين ومنهم يهوذا ، يقول لوقا : « ودعا تلاميذه الإثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين وشفاء أمراض ، وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى »(١)

على أن عيسى فى ذاك الوقت لم يكن مجهولا من بنى قومه حتى يسألوا عنه وقت المواجهة لولا أنهم شكوا فى حقيقة من رأوه .

لقد كان عيسى أشهر من نار على علم ، إذ كان يعلم الناس فى الهيكل ، ويعظهم فى المجتمعات المختلفة ، وطالما أخرج الأرواح الشريرة من نفوس بشرية أفاضت فى ذكرها الأناجيل ، فهو لذلك معروف للعامة والخاصة ، والأمراء والدهماء على السواء ، وخاصة خدام رئيس الكهنة ، فعلام إذن دفعت الرشوة للدلالة عليه ؟ ، وكيف يشكون فى هيئته فلا يعرفونه وهو يجيب بهم أنه هو يسوع ؟ لولا أن الذى قصدوه بالقبض عليه لم يكن هو على الحقيقة إذ كانوا يعرفونه ، وربما أدركوا ذلك فشكوا فى أمره ، وهذا شاهد قوى على تأكيد مراد القرآن الكريم فى شكهم فى حقيقة من أخذوه وقتلوه ، ويزيد ذلك تأكيدا ما أعطاه الله للمسيح من قوة الاختفاء ، وقوة تغيير هيأته كما تقرر من قبل . أليس كل هذا دليلا كافيا على إمكان نجاة المسيح بتدبير الله العزيز الحكيم ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(٢)



(١) آل عمران / ٥٤

(٢) لوقا ٩ : ١ ، ٢

الفصل السابع

العقل ومنافاته لموجبات الصلب للفداء والفداء

حديثنا فى هذا الموضوع مبنى على اعتبار أن القارىء على ذكر منه ، إذ تقدم الحديث عنه فى الباب الأول ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول :

إن موت المسيح صلبا من أجل الفداء والكفارة نظرية متهافتة تمام التهافت حين تسلط عليها أضواء الفكر ومنطق العقل . . وذلك لأن هذه العملية إنما كانت تتم — على فرض التسليم بوجوب الموت نظير الخطيئة كما زعموا — لو أن آدم لم يمت جزاء الخطيئة ، أما وأن آدم قد مات واستوفى بذلك جزاءه فموت المسيح إذن باطل . لأنه خلا من الفائدة المزعومة بالمرة ، وربما قالوا وهو مازعموه : بأن المراد بالموت هنا موت الخطيئة ، وهو الهلاك الأبدى — أى الخلود فى الجحيم — لا الموت الجسدى ، لأن آدم لم يمت فى يوم الخطيئة نفسه ، بل عاش حتى بلغ تسعمائة وثلاثين سنة ، (تكوين ٥ : ٥) ولكن هذا الوهم على فرض التنزل لمجادلته غير مقبول ، لأن آدم يعتبر قد مات فى نفس يوم الخطيئة ، لأن هذه المدة كلها لا تساوى عند الله يوماً واحداً لقول بطرس رئيس الحواريين : « إن يوماً واحداً عند الله كألف سنة وألف سنة كيوم واحد . : » (رسالة بطرس : الثانية ٣ : ٨ » . واقرأ مزمور ٩ : ٤)

وهذا القرآن يقرر بأن مدة اليوم عند الله مثل ذلك ، فقال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف

سنة ، مما تعدون ...) (١) بل إن اليوم عند الله قد يمتد زمنه خمسين ألف سنة من أيامنا ، قال تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٢) ثم إننا لو قصرنا اليوم على أيامنا هذه للزم الخلف فى وعد الله تعالى وفى قوله ، حيث لم يمت آدم الموت الأبدى المزعوم كما قال سفر التكوين (لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) [تكوين ٢ : ١٧] .

كما لم يمت الموت الجسدى ، لأنه لم يمت فور ارتكابه الخطيئة فى ذات اليوم المقدر كأيامنا والذى ارتكب فيه آدم الخطيئة ، اللهم إلا أن يكون قد مات حكما لا حقيقة وانتهى الأمر بذلك ... وإذن فلا وجه لموت المسيح مطلقا ..

على أن موت يسوع المقول به بدلا عن آدم إنما هو موت صليبى ، وهذا يعين أن المراد بالموت هو الموت الجسدى وليس غير ، وهذا الموت قد ماته آدم إذن فلا داعى لموت المسيح .

ولو سلمنا أن المراد به الهلاك الأبدى — أى الخلود فى الجحيم — لكان اللازم إذن أن يموت المسيح هذا الموت عينه — أى موت الهلاك الأبدى — حيث إنه النائب الشرعى عن آدم والبشر كما قيل ، وهو القائم مقامه فى قضيـــة الفداء . وحيث إنه لم يحصل ذلك النوع من الموت ولم يكن هو المراد فما تم فداء ، ولا حصل الخلاص ، ولا كان لنيابة المسيح وجود ، ولا ظهر لرحمة الله أثر ، ولا كان لعدله نفوذ ، وكان موت المسيح — عليه السلام — إذن ظلما ، لأن الموت الجسدى غير مراد هنا ، ولو كان مرادا لأجزأ موت آدم عن نفسه ، لأنه هو الموعود

---

(١) السجدة : ٥ (٢) المعارج : ٤ .

بذلك ، وليس يسوع المسيح ، ويكون بذلك قد تم وعد الله ، ونفذ عدله بدون مشكلة ولا إشكال ، ولا تعقيد ولا حيرة ، وتنتهى القضية إلى غير أساس تبنى عليه .

على أنه يتحتم لإتمام عملية الخلاص أن يكون الميت هو حقيقة الجانب الإلهى فى المسيح والمدعو ابنا متجسداً والمعبر عنه باللاهوت ، حيث إنهم يقررون أن الفادى لا ينبغى أن يكون إنسانا وإنما يجب أن يكون لا هوتا مقدسا طاهرا ، بل إن الفداء من الجانب الإلهى هو جوهر الفكر وصميم العقيدة ، وإذا حصل ذلك فقد مات الإبن الإله على الصليب . وفيه من الشناعة ما ينبو عنه كل فكر . إذ كيف يصح أن يموت الإله الكامل الحى الباقى من أجل بشرية فانية خاطئة ومدنسة ، على أن المسيحية لا تقول بموت اللاهوت حالة موت الصليب تنزيها للإله الإبن عن النقص وعلوا بقدره عن الفناء ... وعلى ذلك لا يعدو الأمر أن يكون الموت موت الجسد ، وهذا ما قد لقيه آدم كما سبق الكلام عليه وانتهى بذلك أمره ، إن صحت فكرة الموت لقاء الخطيئة .

ثم إن خطيئة آدم لا تعدو أن تكون أكلا من شجرة نهاه الله عن الأكل منها ، وكان عقابه أن يخرج من الجنة محروما من ظلالها ، وأكلها الدائمين ، من غير عناء وتعب إلى حياة الأرض المصحوبة بالعمل والكد والكدح والنصب وتحصيل سبل الحياة بالعداء والمشقة ... » (١) .

أليس هذا عقابا أليماً ؟ إذ هو عقاب الحرمان من النعيم الدائم

---

(١) أقرأ من سورة البقرة آية ٣٦ ومن طه ١١٧ — ١١٩ ومن سفر الخروج ٣ : ١٧ — ١٩

وابتلاء بالشقاء الطويل؟ ، وهو عقاب ما بعده عقاب . والله سبحانه هو الذى دبر الجزاء واختاره ، ولو أراد أن يغلظ عليه العقاب أكثر من ذلك لفعل ، فهل يليق بالعلى الكبير أن يعاقب على المعصية مرتين ، مرة يوقعها على آدم وحواء ، وأخرى يوقعها على المسيح ؟ .

إننا إن قلنا بذلك وذهبنا إليه نكون قد تجرأنا عليه تعالى ووصفناه بالظلم وجردنا ذاته من العدل والرحمة ، وحاشاه سبحانه .

توارث الخطيئة فكرة خاطئة

عرفنا فيما سبق أن عقيدة الكفارة والفداء وليدة الاعتقاد فى توارث الخطيئة. والخطيئة عند النصارى فطرية فى البشر ، إذ يولد الإنسان من أول يوم خاطئا وإن لم يرتكب خطأ ، أو يأت منكرا ، وذلك لأن أول أبوين له ارتكبا الخطيئة ، وتلك الخطيئة التي يولد الإنسان بها تستوجب العقاب عليها ، وعلى الإنسان ، ومن هنا كان القول بالفداء . وسريان الخطيئة إلينا بهذا الطريق قول باطل ، وظلم للأبناء ، وفكرة غير مسلم بها، وذلك : لأن الوراثة الشرعية ، هى أن يرث الإنسان مورثه فيما يتركه من ماديات ، وليس فى أعماله التى هى وليدة الأعمال والحركات النفسية .

وليست الوراثة المعهودة عند علماء النفس والمتعلقة بقانون الوراثة فى الصفات والغرائز والسمات الشخصية مرادة هنا لأنها وراثة طبيعية إجبارية ، وجبلية ، وليست شرعية ، فلو أن إنسانا ارتكب مثلا جريمة القتل فالقصاص إنما يقع على نفس القاتل لا على أبيه ولا على ابنه ، ولا على أحد من أصحابه ومعارفه ، ولقد تضافرت التوراة مع القرآن فى أن الإنسان يقتل بخطيئته دون أن يشاركه أحد فى مسئوليتها .

فلا يقتل الآباء من أجل البنين والبنون لا يقتلون من أجل الآباء، إنما كل إنسان يقتل بخطيئته (١).

وبناء على ذلك فإنه لا توجد وراثة فى أعمال النفس وحركاتها مطلقا، كما أنه لا يصح فى العقل والقانون نيابة البرىء عن المخطىء فى العقوبات الخاصة، وسائر الحدود، فلو فرض أن مجرما حكم عليه بالإعدام أو السجن مثلا لكان هو المعاقب بتلك العقوبة وحده دون غيره، حتى لو طلب أحد خاصته أن يحمل تلك العقوبة بدلا عنه لرفض القضاء والعرف مطلبه، لمخالفة ذلك للقوانين الوضعية والإلهية على السواء، ففى التوراة «النفس التى تخطىء هى تموت، الإبن لا يحمل من إثم الأب والأب لايحمل من إثم الإبن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون ...» (٢).

وقال بولس: (سيجازى كل واحد حسب أعماله (٣) (٤) وليت شعرى إذا جوزى كل امرىء حسب عمله فما انتفاعه بكفارة المسيح ؟.

وبذلك يبطل القول قطعاً بنيابة المسيح فى قيامه بالتكفير عن الخطيئة المزعومة، لأن العقوبة عقوبة شخصية، والوزر وزر خاص، والموعود

---

(١) الملوك الثانى ١٤ : ٦

(٢) حزقيال ١٨ — ٥ وأقرأ سفر التثنية ٢٤ — ١٦ وملوك ثان ١٤ : ٦

(٣) الرسالة إلى رومية ٢ : ٦

(٤) وفى القرآن الكريم سورة البقرة ١٧٨ والمائدة ٤٥

بكل هو آدم وحده ، وإلا لزم الكذب فى خبر الله — تعالى عن قول الزور علوا كبيراً — حيث إنه توعد بالعقاب آدم ولم يتوعد المسيح ، كما يلزم عليه أيضاً أن ينقلب العدل ظلما وجورا ، تعالى الله عن قول الأفاكين علوا كبيراً .

وقولهم : بأن البشرية توارثت الخطيئة عن آدم فوجبت الفدية ، وأن الفادى لابد وأن يكون مطهرا من خطيئة آدم وسقوطه ولذلك اختير لها عيسى فكانت ولادته من غير أب حتى لا ينحدر إليه عنصر الخطيئة من أبيه البشرى لو كان له أب : قول باطل كذلك وفكر خاطىء ، فهلا يصح أن يقال بأن عيسى ورث قــــدراً من خطيئة آدم عن طريق أمه مريم ؟ ولا يحتج علينا بأن الله طهر مريم من الخطيئة بنص القرآن حيث قال تعالى: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)(١) .

لأن ذلك معناه أنه طهرها من خطيئة تجنيها يدها ، أما خطيئة آدم — على التنزل فى الجدل — فهى سارية من الأجداد إلى الأحفاد من غير اختيار لأحد فيها ، ومريم من غير شك إنسانة بشرية تناسلت من ذرية آدم وحواء ، لذلك فقد أصابها من الخطيئة نصيب كسائر البشر ، وعلى فرض تسليم أن الله طهر مريم من خطيئة آدم فوق تطهيرها من خطيئات نفسها ، أفلا يكون فى مقدور الله أن يطهر البشر من خطيئة آدم كما طهر منها مريم أم المسيح من غير احتياج إلى نزول ابنه ، وتجسده ، ثم صلبه وقتله ، والقسوة عليه ؟ .

---

(١) آل عمران ٤٢

ثم إذا قيل بفكرة التوارث هذه المزعومة فإنه يلزم عليها ألا تصح نبوة من النبوات السابقة بالإطلاق، لأنه إذا كان الأنبياء مثل إبراهيم وموسى — عليهما السلام — متلبسين بهذه الخطيئة متوارثين لها، فهم مستوجبون الجحيم والعذاب الأبدى على الأقل إلى وقت الصلب المقول به فداء وكفارة، ومن البساطة إذن أن يقال: كيف يصطفى الله من خلقه أنبياء ورسلا عاصين مخطئين وكان يستطيع أن يرسل رسلا من نوع آخر طاهرين مقدسين بعيدين عن توارث الخطيئه ؟.

ولكنه لم يفعل ذلك. بل اتخذ إبراهيم خليلا وموسى كليما، وقد جاء فى المزمور الأول لداود عليه السلام — (لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأبرار لأن الرب يعلم طريق الأبرار أما طريق الأشرار فتهلك)(١) فإذا كان إبراهيم الخليل، وموسى الكليم وغيرهما من سائر المرسلين من أهل الخطيئة كما هو المزعوم، فكيف يصح بعد ذلك أن يقوموا فى جماعة الأبرار؟. أما وأنهم قائمون فى جماعة الأبرار من غير اختلاف فقد ثبت أنه لا توارث ولا ميراث فى الخطايا. بل (كل نفس بما كسبت رهينة)(٢).

وبذلك فقد تبين فساد القول بتوارث الخطيئة واعتقاده، وهذا ما قرره الإسلام وجاء به النبي العربى — ﷺ — فقال: (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) فقد بين الحديث أن الإنسان يولد وهو طاهر نقى خال من الخطايا والمآثم كصفحة بيضاء، وأن الخطيئة كسبية، يرتكبها المرء بعد ولادته ودخوله فى غمار الدنيا من حين تكليفه، والحساب فى الآخرة على ما قدمت يد الإنسان ذاته

---

(١) مزمور ١ : ٦-٥ (٢) المدثر : ٣٨

(الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرا فشر) وقال رب العالمين « لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً »(١).

هذا ويطيب لى أن أختتم الحديث بفقرة لأحد رهبانهم هو (بلاجيوس) حيث يقول (إن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها ، فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل جرم إلى أبنائه والله لا يقدر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار ، ولا يختار متعسفا من يلعنه ومن ينجيه بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا...)(٢).

المسيح لم يسلم نفسه للصلب مختاراً :

يدعى المسيحيون أن المسيح أسلم نفسه مختارا للموت على الصليب ، لأن سبب مجيئه إلى الحياة هو أن يسلم نفسه كفارة عن خطايا البشر ، ولو لم يكن ذلك هو الغاية لكان مجيئه عبثا .

الحقيقة هى غير ذلك ، فإن المسيح المزعوم صلبه لم يسلم نفسه مختارا البتة ، ومصدرنا فى ذلك هو الإنجيل ، فإننا لو أعرناه أقل التفاتة لرأينا مسطورا فيه بنصوص واضحة لا تقبل الجدل أن الذى سلمه هو ذلك الخائن يهوذا الإسخريوطى — ويعرف ذلك تماما كل مسيحى ، وإذن فلم يكن مختاراً فى ذلك بل أسلمه غيره .

وبذلك فقد تبين فساد القول بتوارث الخطيئة ، وعلى أية حال فلا

---

(١) لقمان : ٣٣

(٢) قصة الحضارة م ٤ ج ١ ص ١٤١

يخلو أمر المسيح يسوع من أن يكون مستوجبا الموت أو غير مستوجبه، فعلى أنه مستوجب الموت يبطل القول بنيابته عن آدم وبنيه أصلا ككفارة وفداء، لأنه إذن قد مات عن نفسه وليس غير — وعلى الأمر الثانى — وهو أنه غير مستوجب الموت يكون موته ظلما وإجحافا محضا، كما يتبين من مثله الآتى : وليت شعرى كيف يصح القول بأن الله أقام يسوع من أجل أن يصلب عن آدم وذريته فى حال أنه غير راض عن الصلب، وناقم عليه وعلى من يفعله، كما هو واضح بالمثل الذى ضربه عن نفسه فى قصة صاحب الكرم والكرامين قائلا :

(اسمعوا مثلا آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبنى برجا، وسلمه إلى كرامين، وسافر، ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذوا أثماره، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا، ورجموا بعضاً، ثم أرسل أيضاً عبيدا آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك، فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابنى، وأما الكرامون فلما رأوا الإبن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها)(١).

فهذا نص صريح فى أن الصلب ممقوت، وفاعليه أردياء، أى قد انحطوا إلى درجة المهانة، ولذلك استوجبوا هلاكا رديا جزاء صنيعهم السىء الذى لم يأذن به الله ولم يرضه لهم، لأنه أرسل ابنه ليهاب ويجل

---

(١) متى ٢١ : ٣٣ — ٤١

لا ليصاب ويقتل قائلا « يهابون ابنى » وفضلا عما جاء فى هذا المثل فقد صرح المسيح بأن مسألة القتل من الشيطان، لا عمل الله، حيث قال فى محادثة مع اليهود :

(لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملوون أعمال أبيكم ، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله ، هذا لم يعمله إبراهيم ، وأنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له : إننا لم نولد من زنا ، لنا آب واحد وهو الله فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى أنتم من آب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق)(١) .

فهل يصح لأى باحث بعد هذا القول نسبة القتل إلى الله والصاب، مع أن المسيح يقول بأنه من عمل إبليس كما ذكر ، بل إن المسيح عليه السلام يستقبل الموت وهو غير راض أن تكون نهايته القتل صلبا كما مكر اليهود ودبروا ، فها هو قبيل القبض على المصلوب يصلى لله بأشد لحاجة والحاح حتى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض(٢) .

وابتدأ يدهش ويكتئب قائلا لأصحابه : (نفسى حزينة جداً حتى الموت) ثم تقدم قليلا وخر على الأرض ، وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة — الموت — إن أمكن وقال : يا أبا الآب كل شىء مستطاع لك فأجز عنى هـــذا الكأس ولكن لا كما أريد أنا بل ما تريد أنت)(٣) .

---

(١) يوحنا ٨ : ٣٩ — ٤٤

(٢) لوقا ٢٢ : ٤٤

(٣) مرقس ١٤ : ٣٣ — ٣٦

وإذ كان من خصائص رحمـــة الله تعالى أن يعفو عن المسىء بمجرد رجوعه إليه ، ويتجاوز عن جميع معاصى العبد فلا يذكرها عليه ، فهل من عدله أن يعاقب البرىء بذنب الأثيم ، أو يقيم البار الذى لم يعمل خطيئة قط مقام لشرير ؟ وكيف يكون هذا وهو القائل . (الصديق ينجو من الضيق ويأتى الشرير مكانه)(١) فهل يناقض الله نفسه أو هل يخلف وعده ؟ وإذا كان الله لا يسر بموت عبده الشرير فى خطيئته من غير رجوع إليه(٢) ، فكيف يسر بموت ابنه الوحيد البار ؟ وإذا لم يستعمل رحمته فى شخص ابنه الحبيب ففيمن يستعملها بعد ذلك ؟ ؟

وإذا لم تسمح مشيئته أن يهلك أحد هؤلاء الصغار . — أى فى إلمامهم بالمعرفة — فكيف يسمح بهلاك ابنه البار ؟ وإذا كانت السماء تفرح بخاطىء واحد يتوب ولا يموت فى خطيئته(٣) فكم بالحرى تندم أسفا لموت يسوع وهو لم يعمل خطيئة ، وهل يكون من الرحمة معاقبة البرىء هذا العقاب الأليم المهين مع ترك الأثيم ؟ كلا ثم كلا ... فليس من العدل بحال إدانة البار بدل الأثيم ، وليس من الرحمة أن يعاقب البرىء من غير جريرة ارتكبها ، ولكن هذا نطق العهد الجديد(٤) ولقد تقرر عندهم أن كل من مات على خشبة الصليب فقد استوجب اللعنة من الله والطرد من رحمته ، فإذا كان آدم قد حلت عليه اللعنة من أجل خطيئة ارتكبها فإنه لكى يكون المسيح محرراً للبشرية من هذه الخطيئة المزعومة، وفاديا لها منها بصلبه ، فإنه قد استحق هو أيضا الطرد واللعنة وهو ماقاله بولس فى رسالة له : (المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة)(٥) فهل من العدل أن يكون

---

(١) أمثال ١١ : ٨و٢١ : ١٨ (٢) حزقيال ١٨ : ٢٣
(٣) لوقا ١٥ : ٧ (٤) رومية ٥ : ٦
(٥) غلاطية ٣ : ١٣ — إن الإشارات إلى النصوص أو التنويه =

البذل والفداء من المسيح الطاهر النقى ويكون جزاؤه اللعنة ؟ وهل يليق بالمسيح النبى بله الإله أن ينحط إلى منزلة الخطاة والمذنبين وهو طاهر مطهر ثم يكون أبوه بعد ذلك رحيما ؟ إن هذا لشيء عجاب .

وإن قتل البار ثم لعنته لهو إبطال لصفة العدل ، ومحق لألطاف الرحمة .

هذا ، وإن القول بالفداء كمحقق لعدل الله ورحمته يستلزم محذورات ليس من السهل التغافل عن نتائجها ... من هذه المحذورات :

١ — إنهم قالوا بأن النجاة لا تكون بمجرد وقوع الصلب فقط بل لابد مع حصوله من الإيمان به كعقيدة بالمعنى الذى يقول به الآباء والقسيسون .

ونستطيع أن نقول : إذا كان الخلاص بالإيمان بذلك كعقيدة تحقق رحمة الله ، فإن من البشر من وجد من آدم إلى صلب المسيح ومنهم الأنبياء والمرسلون لم يؤمنوا بها ، ولم يدع الأنبياء إليها ، وذلك لأن الإيمان تصديق القلب وإذعانه والتصديق بالشيء فرع عن تصوره ، وما دام لم يدع الأنبياء للفدية قبل حصولها فليس هناك أدنى تصور لها ، ثم إن هناك من لم تبلغهم دعوة الصلب والفدية وهؤلاء لم يتحقق منهم إيمان ، بل إن هناك بعض الطوائف التى تدعى هذه العقيدة . فهل من الرحمة أن يعذب هؤلاء مع مالهم من الأعذار المبيحة لعدم إعتناقها ؟ فان عذبوا لم يتحقق العدل ولا الرحمة ، وإن أعفوا فلم تؤد عملية الفداء مقصودها إلى النهاية ، على أن هناك من مات من أتباع المسيح قبل صلبه

= بها فى جميع ما ذكرته فى هذا الفصل من باب إلزام الخصم بما يعتقد ، ثم مناقشته فى مقتضاها عقلا ، وهذا لا يقدح فى ورود المناقشة للنص فى فصل موقف العقل .

وبالطبع لم يؤمن بهذه العقيدة ، لأنها لم تعلن لهم ، فان خاصته وتلاميذه كانوا لا يفهون كلامه إذا تكلم عن موته وقيامته(١) .

وكثيراً ما كان ينعتهم بالغباء وعدم الفهم ، وكثيراً ما كان يوضح مراده بأمثلة ، فكيف يكون مصير الذين ماتوا قبله ، مع أنهم شهدوه ولم يتحقق منهم إيمان وإذعان بالفداء ؟ فاذا حرموا من ملكوت السموات فأين العدل وأين الرحمة ؟

٢ — كما يلزم الجهل والبداء على الله تعالى — إذا قيل بنظرية الفداء ، لأنه بهذا الزعم يكون البارى جاهلا بطبيعة آدم قبل خلقه ولم يعرف أنه سيتحقق منه اتجاه إلى الشر بعد خلقه ، ففوجىء به متلبساً بالمعصية ، ثم كان منه البداء إذا ابتدأ يفكر فى طريقة خلاص الإنسان من خطيئته بعد ما أصابه من الهم والحزن ماأصابه بسبب خلقه الإنسان كما قالوا(٢)، والجهل والبداء على الله تعالى محال ، لأنه نقص لا يليق بذات البارى عز سلطانه ، بل يلزم عليه أن تكون الملائكة أعلم وأعرف بعواقب الأمور منه — تعالى علوا كبيراً — حيث إنهم تنبأوا بما سيئول إليه أمر ذلك المخلوق الجديد الذى سيكون خليفة لله فى الأرض ، وكان ذلك قبل خلقه فقد قالوا فى خطابهم لذى الجلال مستوضحين حقيقة أمره (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)(٣) ولكن الله أعلم منهم وأعرف إذ قال لهم (إنى أعلم ما لا تعلمون ...إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ...)(٤) فبطل ما ترتب عليه الجهل والبداء وثبت له تعالى العلم المحيط أزلا وأبدا .

---

(١) اقرأ لوقا ١٨ : ٣١ — ٢٤

(٢) اقرأ تكوين ٦ : ٥—٦ (٣) البقرة : ٣٠

(٤) البقرة / ٣٠ ، ٣٣

٣ — على فرض التسليم بأن المسيح الإبن تجسد ليمحوا الخطيئة الأولى للبشر، وهى لاتعدوا أن تكون مخالفة الرب فى الأكل من الشجرة المحرمة، فما بال سائر الخطايا مثل الزنا، والسرقة، والقتل، وهى جرائم أشد وأعتى من جريمة الأكل من الشجرة ، فمن ياترى يتوسط للزناة ، والسارقين ، والقتلة ، والطغاة ، والجبارين ، عنـــد الآب لكى يضع عنهم إصرهم وجرائمهم ويكون كفارة لهم ؟ بل هناك خطيئة لا تعدلها خطيئة أخرى هى خطيئة الإشراك بالله تعالى، أو إنكار وجوده ، فهناك من لم يعتقد بوجود إله مبدع للكون ومدبره ، بل هناك من يستهزىء به ويسخر منه ، فأى فداء لهذه الخطيئة ؟ ولكن الكلمة المتجسدة الفادية التى صلبت وقتلت من أجل خطيئة واحدة هى فى عداد الخطايا أهونها، ولا يتعدى أثرها الآخرين قد تركت سائر الخطايا وما أعظمها فى باب الجريمة من غير فدية ولا تكفير .

ألا ما أرخصها فدية فى ذهابها فى مثل هذه الخطيئة وهى ما هى ؟ الكلمة الإلهية التى زعموا أنها ابن الله الطاهر المقدس الذى فاق حـــد التصور فى قدسيته وطهارته .

٤ — ثم إن القيام بدور الفداء ملحوظ فيه التشفى والإنتقام من الجانب الإلهى — تعالى وتنزه — فهل لم يكن هناك طريقة أخرى يسترضى بها الإبن أباه ؟ وهلا توسل ابنه إليه باسم الضعف البشرى أمام النفس والشيطان أن يعفو عنهم ، ويصفح عن زلاتهم وخطيئاتهم ؟

ومن يدرى فلعل المسيح قد توسل إليه بكافة التوسلات فلم يقبل أبوه منه إلا أن يرى دمه مسفوحا ، لأنه متعطش إلى دم ابنه من أجل معصية أبيه البشرى آدم الذى انفلت من العقاب ، ثم إن قتل الإنسان قربانا يثير فى النفوس الحزن والهم والكآبة والألم الذى يتخلل العلاقة بين الآب وابنه ؛ لأنه لم يأخذه بالرحمة والحنان ، بل أخذه بالقسوة وعنف الجبار

وعنف الجبار ، وإنه لمما يثير العجب أن يأنف عبدة البقر وسائر عباد الطواطم من الأمم الهمجية من ذبح أبقارهم وسائر حيواناتهم المعبودة ، محرمين ذلك لتقديسها عندهم . ولا يأنف المسيحيون ولا يشمئزون من قولهم واعتقادهم بأن إلههم قتل من أجلهم فداء وتكفيرا .

٥ — يلزم على ذلك أيضاً أن يكون الله خيراً وشريرا وهذا محال ، فهو خير لأنه يريد خلاص البشر من الهلاك والعذاب بالفداء والمحبة . والنعمة والرحمة ، وشرير لأنه عذب ذاته فأوجب عليها الإهانة بالسب ، والشتم ، والبصق عليه ، والتهكم به أمام الناس ، والضرب ، والصلب ، والاستهزاء ، ثم وجوب اللعنة عليه ، لأنه قتل مصلوباً مثل قتل الأشرار والمجرمين فإن من علق على خشبة يكون ملعونا .

وإذا كان المسيح يستبعد أن ينقسم الشيطان على نفسه فيتحقق منه الخير والشر معاً فى قوله للفريسيين (فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فيوجب عليها ماقد زعموا حصوله ؟

هذا إذا كان المعذب المصلوب هو اللاهوت فى المسيح ، أو هو مع الناسوت ، أما إذا قيل بأن المعذب المصلوب هو الناسوت فقد افتدى الإنسان الخاطىء بمثله خاطئاً ، وعلى ذلك لايكون هناك معنى للنزول المتجسد والموت الصليبي ، لأنه لافداء ولا افتداء ، ويكون الحق والصواب فى قوله تعالى : «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما »

الفصل الثامن

اختلاف الأناجيل وتناقضها
فى رواية قصة الصلب والقيام*

قال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

[سورة النساء / ٨٢]

إن تناقض الأناجيل فى رواياتها سيرة المسيح وسيرة رسالته ظاهرة تتميز بها ، ولوضوح ذلك فيها صارت مشهورة لدى جميع المحققين ، والذى يعنينا هنا هو إثباتنا للقارىء ملاحظاتنا على بعض من هذه الإختلافات والتناقضات فى حكاية الصلب وملابساته فى الأناجيل ، وما أعقب ذلك من قيام المصلوب بعد موته ، وظهوره للتلاميذ ، فنقول :

(ا) الإختلاف والتناقض فى رواية الصلب :

١ ــ قال متى يحدد المكان الذى كان فيه مع تلاميذه ليلة القبض عليه بأنه كان معهم فى قرية اسمها (جثيمانى) وهناك جاء يهوذا مع خدام اليهود ليدلهم على يسوع(١) .

(*) راجع فى هذا الفصل الأناجيل مع الإستعانة بكتاب الفارق بين المخلوق والخالق ــ عبد الرحمن باجه جى زاده .

(١) إقرأ متى ٢٦ : ٣٧ ، ٤٧

وقال لوقا : بأن يسوع وتلاميذه فى تلك الليلة فى جبل الزيتون(١) .

وقال يوحنا : بل كانوا فى بستان عند وادى قـدرون حيث كان فى بستان دخله هو وتلاميذه(٢) ،

فالثلاثة قد اختلفوا فى تعيين الموضع الذى ألقى القبض عليه فيه .

٢ — قال متى : إن يهوذا حين أخذ خدام اليهود والشعب ليدلهم على يسوع أعطاهم علامة قائلا: «الذى أقبله هو هو فأمسكوه ، وأنه لما وصل بهم إلى يسوع تقدم وقبله فألقوا عليه القبض(٣) .

أما فى يوحنا : فإن يهوذا لما وصل معهم إلى يسوع وقف صامتا ولم تبد منه حركة ولا قبله ، وأن يسوع هو الذى تعرض لهم وكلهم فسقطوا على الأرض(٤) .

٣ — قال مرقس . إن الذين جاءوا مع يهوذا ليمسكوا يسوع هم خدام من طرف رؤساء الكهنة ومعهم الشيوخ والكتبة(٥) وزاد لوقا بأنه كان معهم قواد جند الهيكل(٦) .

أما يوحنا فيقول : إنهم خدام الرؤساء ومعهم عسكر وقائد .

وبذلك اختلفت روايات الأقوال الثلاثة .

٤ — قال لوقا : إن يسوع فى تلك الليلة كان يصلى بخوف شديد

---

(١) إقرأ لوقا ٢٢ : ٣٩ ، ٤٧

(٢) إقرأ يوحنا ١٨ : ١ — ٣ ، ١٢

(٣) إقرأ متى ٢٦: ٤٨ — ٥٠

(٤) إقرأ يوحنا ١٨ : ٣ — ٨

(٥) مرقس ١٤ : ٤٣

(٦) لوقا ٢٢ : ٥٢

(٧) إقرأ يوحنا : ١٨ : ١٢

وأشد لجاجة ، فجاءه ملاك من السماء يقويه ، ويشد من عزمه ، ويطمئن نفسه(١) .

وحكاية تقوية الملاك هذه لم يذكرها أحد من الثلاثة الباقين، وفى هذه العبارة رد مفحم على من يدعى ألوهية المسيح — عليه السلام — لأن احتياجه إلى ملاك يقويه مناف لدعوى الألوهية فيه .

٥ — قال متى : إن الذين جاءوا مع يهوذا كان معهم سيوف وعصى .

وقال يوحنا : بل كان معهم مشاعل ومصابيح ، وسلاح، فلماذا أغفل متى ومرقس ، ولوقا ذكر المشاعل والمصابيح ، وبأى القولين ياترى يكون الصدق ؟

٦ — قال متى . إنهم حين أمسكوا المصلوب مضوا به إلى بيت رئيس الكهنة فوراً .

وقال يوحنا : بل مضوا به أولا إلى حنان صهر رئيس الكهنة ، وهنا تعارض بين القولين ، مع ملاحظة أنهم يعتبرون متى ويوحنا من تلاميذ المسيح الخصوصيين الذين كانوا حاضرين فى تلك الليـــلة ، وشاهدوا الواقعة بأنفسهم ، فلو كانت هذه الملابسات صحيحة لما اختلفوا فى وصفها .

٧ — قال متى : إن الذين قبضوا على يسوع مضوا به إلى بيت رئيس الكهنة، وفى تلك الليلة اجتمع الشيوخ والرؤساء، وعقدوا مجمعاً، وأخذوا يحققون مع يسوع ويسألونه .

وقال لوقا: بل فى تلك الليلة بقى يسوع مع الخدام يضربونه ويستهزئون

---

(١) إقرأ لوقا ٢٢ : ٤٢ — ٤٤

به، ثم لما أصبح الصباح اجتمعت مشيخة الشعب وعقدوا المجمع، وأخذوا يحققون معه .

فالملاحظ فى الإختلاف هنا أن متى يقول : اجتمعوا للتحقيق فى الليل ، ولوقا يقول : بل بالنهار .

٨ — قال مرقس : إنهم حين قبضوا على المصلوب ومضوا به كان بطرس يتبعهم من بعيد حتى دخلوا به بيت رئيس الكهنة ، فدخل بطرس أيضاً، وإن الخدام أضرموا ناراً فى وسط الدار وجلسوا حولها يستدفىء معهم أيضاً .

يقول الناقدون لهذه المقولة : إن هذه الحكاية لا تنطبق على الواقع ، لأن حادثة الصلب جرت فى أيام عيد الفصح لليهود ، وعيد الفصح عادة يكون فى شهر أبريل من كل عام ، وبلاد فلسطين فى شهر ابريل لا يكون طقسها بارداً، فكيف يصح أنهم أضرموا ناراً ليستدفئوا بها، فلعل مرقس حين صنف إنجيله كان فى رومة ، فقاس طقس فلسطين على طقسها .

٩ — قال لوقا : إن الوالى حين جاءوه بيسوع ليحكم عليه أرسله أولا إلى هيرودس حاكم اليهود ، وأن هيرودس بعد أن سخر من يسوع أعاده إلى الوالى ، مع أن متى كان قد أخبرنا من قبل أن هيرودس هذا كان قد مات منذ حداثة يسوع ، أى قبل حادثة الصلب بثلاثين سنة ، فلا ندرى هل هيرودس هذا هو الذى مات منذ طفولة المسيح ثم بعث خصيصاً لهذه المحاكمة أم هو هيرودس آخر .؟

١٠ — قال متى ومرقس ولوقا : إن الذى حمل الصليب ومشى خلف يسوع رجل أسمه سمعان القيروانى.

وقال يوحنا : بل يسوع نفسه خرج وهو حامل صليبه ، فتناقض القولان .

١١ — تتوافق الأناجيل الأربعة على أن المصلوب صلب معه اثنان غيره محكوم عليهما بالموت، فعلقوا واحداً منهما عن يمينه والآخر عن يساره، إلا أن لوقا انفرد وحده بقول لم يذكره غيره من الثلاثة الباقين، وهذا القول هو أن واحداً من الإثنين المعلقين معه كان يستهزىء به ويقول، «إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا، فانتهره المصلوب الآخر وقال: ألا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه، أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله، ثم قال ليسوع: أذكرني يا سيد متى جئت في ملكوتك، فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس»(١).

والذي نلاحظه على المقالة الواردة في لوقا أنها ليست واردة في المكتوبات التي استمد منها مكتوبات إنجيله، فقد ذكر لنا في فاتحة إنجيله أنه استمد تأليفه من أخبار الذين كانوا يخدمون يسوع ويعرفون أخباره من أولها إلى نهايتها، وخدامه هؤلاء هم الحواريون الذين منهم متى ويوحنا وبطرس ويهوذا أخو يعقوب وغيرهم، وإذا تصفحنا ما كتبوه في أناجيلهم لم نجد لهذا الحوارين المسيح ومن صلب معه أصلا في كتبهم، فهل يصح أن يتخلى لوقا عن مبدئه فيكتب عن الذين كانوا يخدمون يسوع شيئاً لم يكتبوه؟ وفي النهاية لقد خالفهم وخالفوه، وفي هذا ما فيه.

ثم إن يسوع قال للمصلوب: «إنك تكون معي اليوم في الفردوس» أي في يوم الصلب، مع أن المسيح على زعمهم لم يصعد للفردوس في تلك الليلة، بل أخبارهم تقول: إن المسيح بعدما أنزل من على الصليب كفن ودفن وقبر ومكث في القبر ثلاثة أيام، ثم قام، ومعلوم من إنجيل يوحنا أنه ظل يظهر للتلاميذ بعد قيامه أياماً، فكيف يصح أن يقول المسيح للمصلوب «اليوم تكون معي في الفردوس؟» وهو نفسه لم يصعد إلى الفردوس إلا بعد أكثر من عشرة أيام، أم أنه كان يقصد بالفردوس القبر، أم ماذا؟

---

(١) لوقا ٢٣ : ٣٩ — ٤٣

(ب) الإختلاف والتناقض فى رواية القيام بعد الموت:

١ — قال متى ومرقس ولوقا :إن رجلا غنياً ذا مكانة واحترام لدى الجميع اسمه يوسف،أنزل الجثة من على الصليب ، وكفنها بكتان ،ودفنها فى قبر منحوت فى صخرة ، وسد باب القبر بحجر كبير ، وكان إذ ذاك امرأتان حضرتا عملية الدفن معه ، وعرفا مكان القبر.

ونقول : إن رواية إنجيل يوحنا خالفت رواية الثلاثة فى أمور ثلاثة :

١ — إن يوسف المذكور لم يكن وحده فى ذلك ، بل كان معه رجل آخر يعاونه فى هذه العملية اسمه « نيقوديموس» .

٢ — إن « نيقوديموس » حضر قبل «يوسف» وقاما بتحنيط الجثة بالمر والعود .

٣ — إن القبر الجديد الذى دفنت فيه الجثة كان فى بستان ، وأنه هو البستان الذى جرى فيه الصلب والموت .

٢ — قال متى : « وفى الغد اجتمع رؤساء الكهنة إلى الوالى قائلين : ياسيد قد تذكرنا أن المصلوب قال وهو حى : إنى بعد ثلاثة أيام أقوم ، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث، لئلا يأتى تلاميذه ليلا ويسرقوه،ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات ، فقال لهم الوالى «بيلاطس» عندكم حراس اذهبوا واضبطوا القبر كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر»(١) .

---

(١) إقرأ متى ٢٧ : ٦٢ — ٦٦

ونقول : إن هذه المقولة إنفرد بها متى وحده دون الثلاثة الآخرين ، وهذا يدل على أنها وضعية إلحاقية من نسخ النساخ ، لأنه لا يجوز أن يذهب رؤساء الكهنة إلى الوالى فى ذلك اليوم ، لأنه كان يوم سبت . ويحرم عليهم فيه مقابلة الحاكم الوثنى لئلا يتنجسوا (١) ، وبناء عليه فلم يقيموا حراساً على القبر ولم يختموا الحجر ، لأنه يحرم عليهم شرعاً مثل هذه الأعمال يوم السبت ، خاصة وأن ذلك كان فى عيد الفصح الذى يجب تقديسه عندهم كيوم السبت تماما .

٣ — قال إنجيل متى : إن مريم المجدلية وامرأة أخرى جاءتا فى فجر الأحد لتنظرا القبر ، فنظرتا ملكا قد دحرج الحجر عن باب القبر وجلس عليه ، فقال لهما : لا تخافا ، أنتما تطلبان يسوع المصلوب ، ليس هو ههنا ، إذهبا قولا لتلاميذه إنه قام من الأموات (٢) .

نقول : بالنظر فى هذه المقولة ومقارنتها بروايات الأناجيل الأخرى نجد بينها الاختلافات الآتية :

١ — قال مرقس : إن النسوة كن ثلاثا وليس اثنتين (أى مريم وامرأتان) .

وأنهن دخلن القبر فرأين شابا جالساً عن اليمين فقال لهن : إذهبن وقولا لتلاميذه إنه قام (٣) .

٢ — وقال لوقا : بل كن نساء كثيرات دخلن القبر فوجدنه خالياً فخرجن ، وإذا رجلان وقفا بهن وقالا لهن : لماذا تطلبن الحى بين الأموات ، ليس هو ههنا لكنه قام (٤) .

---

(١) إقرأ يوحنا ١٨ : ٢٨
(٢) أنظر متى ٢٨ : ١ — ٧
(٣) إقرأ مرقس ٢٦ : ١ — ٦
(٤) لوقا ٢٤ : ١ — ٦

٣ — وقال يوحنا : بل مريم وحدها جاءت إلى القبر، ونظرت إلى داخله، فرأت ملكين بثياب بيض، جالسين واحداً عند الرأس، وآخر عند الرجلين ، فقالا لها : يا امرأة لماذا تبكين ، قالت لهما : إنهم أخذوا سيدى ولست أعلم أين وضعوه(١)؟ .

فالاختلاف بين أقوال الجميع واضح فى كون مريم وحدها ؛ أم معها امرأة أخرى ، أم معها امرأتان أخريان ، أم نساء كثيرات . وكونها رأت عند القبر ملكا فى الخارج جالساً على حجر، أم شابا فى الداخل جالساً عن اليمين ، أم أنها رأت رجلين واقفين فى الخارج ، أم ملكين جالسين فى الداخل ؟

فهذه الاختلافات متباعدة لا يمكن جمعها فى معنى واحد ، ولا يؤخذ منها حقيقة تعتمد ، كما يؤخذ من قول المجدلية : « إنهم أخـــذوا سيدى ولست أعلم أين وضعوه » أن الجثة أخذت من القبر بيد آخذ — أى بيد فاعل — وليست بفعل القيام ، ويعين لوقا أن هناك رجلين وأتهما مريم عند القبر ، ولابد أنهما الرجلان اللذان سرقا الجثة من القبر ، ولم تميزهما لأن الوقت كان وقت ظلام كما قال يوحنا(٢) .

٤ — إن هناك أمرا هاما فى رواية مرقس ولوقا لهذه الحلقة القصصية ، ذلك أنهما اتفقا على شىء هو أن مريم المجدلية ومن معها حين ذهبن إلى التلاميذ وأخبرتهم بأنه قام لم يصدقوهن ، بل تراءى كلامهن لهم كالهذيان ، وينتج عن رفضهم لتصديقهن أمران على غاية من الأهمية :

الأمر الأول : أن يسوع لم يقل لتلاميذه من قبل إنى سأموت ثم أقوم فى اليوم الثالث ، إذ لو صح أنه قال ذلك لهم ، لكانوا يصدقون

---

(١) يوحنا ٢٠ : ١١ — ٢٤ (٢) يوحنا ٢٠ : ١

النسوة حين أخبرتهم بخبر قيامه ، بل لكانوا على أحر من الجمر فى انتظار اليوم الثالث ، يرتقبونه بفارغ الصبر ، ولكانوا على أحسن استعداد وابتهاج للقاء سيدهم ، وليفرحوا بذلك فرحا شديداً ، ويذهب عنهم ما ألم بهم من الهم والحزن لفراقه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، فعلم من ذلك أن مسألة الموت والقيام لم تؤسس على أصل واقع ، ولكنها بنيت على الوهم والإشاعة التى لم يكن لها رصيد من الواقع .

الأمر الثانى : هو أن الإثنين اللذين وأتهما مريم المجدلية عند القبر قبل شروع الفجر ليسا إلا التلميذين — يوسف ونيقوديموس — اللذين رفعا جثة المصلوب من القبر ونقلاها إلى موضع آخر ، وقد تركا القبر خالياً إلا من بعض الكفن ، والظاهر أن مريم المجدلية وصلت إلى القبر قبل أن يفرغا من العمل ، وكان الظلام سائداً كما يقول يوحنا ، فتوهمت أنهما ملكان وأخبراها بأن المصلوب قد قام من الأموات ، ثم أمراها أن تذهب وتخبر التلاميذ بذلك ففعلت وانتشر الخبر وشاع على هذه الصورة ، خاصة وأن فكرة القيام من القبر كانت متداولة قبل صلب المصلوب .

٥ — قال متى : « وفى فجر يوم الأحد جاءت مريم المجدلية وامرأة لتنظرا القبر وإذا زلزلة عظيمة حدثت ، لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن باب القبر ، وجلس عليه، وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض كالثلج(١) »

ونقول : ١ — إن القول بحدوث زلزلة عظيمة حدثت فى الوقت المشار إليه لم يقل بها أحد غير متى ، مما يدل على عدم حدوثها ، إذ لو حدثت لما سكتت عن ذكرها الأناجيل الأخرى، بل لو حدثت لدونها المؤرخون

(١) متى ٢٨ : ١ — ٣

فى كتبهم ، لأنها من العجائب الجديرة بالذكر، ولذكرها يوحنا الذى ذكر أنه كان حاضرا مع المجدلية .

٢ — إن نزول الملك من السماء ودحرجته للحجر وجلوسه عليه مردود وغير مقبول ، إذ يفهم من وصفه إياه بأن « منظره كالبرق ، ولباسه أبيض كالثلج » أن تكون مريم رأته « مع أن مريم لم تقل شيئاً من ذلك ، بل قالت الأناجيل إنها حين جاءت وجدت الحجر مدحرجا .

٦ — قال لوقا : « إن نساء جئن إلى القبر ومعهن أناس فدخلن القبر(١) » .

ونقول : قوله : « فدخلن القبر » غير معقول، لأن القبر فى العادة لا يسع إلا جسما واحداً فكيف بعدة نساء يدخلنه ؟ إنه أمر يثير العجب .

٧ — قال مرقس : وبعد مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطا ليأتين ويدهنه(٢) » .

ونقول : لقد علمنا من رواية يوحنا : أن الرجلان اللذان باشرا تكفين المصلوب ودفنه حنطاه بمقدار كبير من المر والعود ، وإذن فلا يصح القول بأن النسوة اشترين حنوطا ليدهنه ، ولا يقال : إن النسوة لا علم لهن بالحنوط والطيب الأول ، لأن الإنجيل يذكر أن مريم المجدلية كانت حاضرة شاهدة بنفسها تكفينه وتحنيطه ودفنه .

٨ — قال يوحنا : « إن مريم المجدلية بينما كانت واقفة عند القبر

---

(١) لوقا ٢٤ : ١ ، ٢ (٢) مرقس ١٦ : ١

تبكى ظهر لها يسوع وكلمها ، وقال لها : إذهبى واخبرى التلاميذ«١»» .

وهذا القول مخالف لما ذكره متى ولوقا لأن متى لم يقل بظهور يسوع لها عند القبر ، بل قال إنها لقيته فى الطريق ، وهى عائدة ، ولوقا ، لم يقل بظهور يسوع لمريم لا عند القبر ولا فى الطريق ، بل قال إنه ظهر للتلاميذ وهم مجتمعون فى أورشليم .

ومن كل ما تقدم نرى أن الاختلاف فى قصة الصلب والموت والقيام وقع بين الجميع ، ومن هنا يثبت أن قصة قيام المصلوب من القبر مختلفة ومتناقضة ومتباينة . وأنها شاعت بأساليب مختلفة كما هو الشأن فى الحوادث الخيالية التى يكتبها كل راو على قدر ما يناسب قدرته وخياله .

تناقض الأناجيل فى التسلسل التاريخى للأحداث :

لقد كانت محاولات التنسيق بين النصوص المتناقضة شغل الكثير من المهتمين بتحرير الأناجيل قبل نهاية القرن الأول ، ولكنهم لم يستطيعوا تنقيتها والوصول بها إلى حد الإنسجام ، فقد كان من العسير عليهم التفريق بين الحدث التاريخى الحقيقى وبين إضافات وحى الروح وتهيؤات الرؤى ذات النشوة الإيمانية . يقول جينيبير :

وقد حاول المحررون المتتابعون لتلك الأناجيل خلال الثلث الأخير من القرن الأول المسيحى أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئاً من الانسجام ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب التوفيق بينها فضلا عن شبه استحالة تحقيق الواقع وتخليصه من الإضافات الخيالية التى كانت فى طيات الروايات المتوارثة ولقد كان من العسير التمييز بين الأحداث

---

(١) يوحنا ٢٠ : ١٥ — ١٧

التاريخية وبين تلك التي افرض الإيمان وقوعها . . . أى بين الذكريات الحقيقية الحية وبين وحى الروح ، ولم يكن هناك إلى جانب ذلك دافع يدفعهم إلى الجد فى طلب هذا التحقيق وهذا التمييز »(١) .

ومن هنا كان تفسير هذه النصوص صعبا ، والجمع بين أطراف معانيها عسير عند قراءتها ، مما جعل الحيرة تستولى على جمهور قرائها ، لما يجدونه من التنافر والغموض بين طياتها ، لأنها جمعت من أصول قد اختلفت كلها فى اتجاهات كتاباتها ، مما جعل الكثير بل الجمهور يعجز عن حل غموضها والتوفيق بين محتملاتها .

يقول فؤاد حسنين : « والواقع أنه لا يوجد كتاب قديم يتطلب مجهوداً شاقاً لدراسته كما يتطلب العهد الجديد ، وذلك بسبب تعدد رواياته واختلاف مصادره ، بجمعه ، وقراءته ، ومقارنة أسفاره المختلفة ، كل ذلك يتطلب قدرة جبارة ومجهوداً عظيما ، فهذا العمل يتطلب قبل كل شيء إتقانا تاما للمخطوط ، ثم تاريخ دور الكتب إلى جانب اللغات والآداب »(٢) .

« وكذلك كان الأمر بالنسبة لما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة ذاتها ، فهى لا تحكى سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح لا رابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف الرواة ، فكان على محررى الأناجيل أن يغربلوا ، ثم يختاروا ، ثم ينسقوا سيرة متكاملة من هذه المتناثرات المشوشة »(٣) .

ولما كان من الصعب بمكان بعد ذلك على الشارحين والمفسرين

---

(١) نشأة المسيحية وتطورها ص ٢٨

(٢) اليهودية واليهودية المسيحية ص ١٥٢

(٣) نشأة المسيحية ص ٢٨

لنصوص الأناجيل جمع المتناقضات فى إطار من الانسجام المتناغم . . أغفلوا التوفيق بين هذه النصوص وتنقيتها وتنسيقها فى إطار متكامل إلى أن جاء وقت تقدم النقد العلمى ليسدد لها سهام نقده العلمى من حيث مضامينها ، ونقده التاريخى من حيث تاريخيتها .

وهنا نرى من المحققين من يلتمس السبب فى إحداث الاضطراب والتناقض فى النصوص « بأن هذا قد نتج عن أخطاء غير إرادية : إما أن يكون الناسخ قد أسقط كلمة، وإما أن يكون قد كتبها مرتين متتاليتين ، وإما أن يكون قد حذف سهواً جزءاً من الجملة كان موضوعا فى النص المطلوب نسخه بين كلمتين متماثلتين . وقد يكون المقصود به أيضا تصحيحات إرادية : إما لأن الناسخ قد سمح لنفسه بتصحيح النص حسب أفكاره الشخصية ، وإما أنه يبحث عن التوفيق بين النص ونص آخر مواز حتى يقلل الاختلاف بينهما بشكل قد يقل أو يزيد مهارة ، وبهذا التدرج إزداد تردد النساخ فى إجراء مثل هذه التصحيحات التى كان يقوم بها من سلفهم » وبهذا اعتقدوا أنهم ينقلون النص الصحيح وبهذا ثبتوا النقاط التفصيلية المختلفة ، أحياناً أخرى يكتب الناسخ تعليقا على هامش النص ليشرح عبارة مبهمة ، ويأتى الناسخ التالى ويظن أن العبارة المكتوبة على هامش النص قد سقطت عند ناسخ آخر ، ويرى ضرورياً إدخال التعليق الهامشى على النص ، وبهذا يصبح النص الجديد المنقول أكثر غموضاً»(١).

ويقول فؤاد حسنين : « وقد أدت مقارنة النصوص بعضها إلى اكتشاف اختلاط بينها ، وأصبحت التفرقة بينها من حيث قيمتها وحجتها متعذرة جداً حتى إن الباحث ليعجز عن إدراك أى النصين يجب أن يكون هو الأصل الذى يعتمد عليه وأيها هو المحرف الدخيل »(٢) .

---

(١) موريس بوكاى / دراسة الكتب المقدسة ص ١٠٢

(٢) اليهودية واليهودية المسيحية ص ١٥٣

إن الفوارق والمخالفات بين أسفار العهد الجديد وأجزائه جاءت بسبب إعطاء الكاتب لنفسه حرية التعديل والحذف والإضافة فى النصوص من غير اعتماد على خطة مسلسلة مرتبة مترابطة الأحداث الحقيقية عن المسيح ورسالته ، فقد كتب كل كاتب أحداث سفره حسب هواه وترتيبه الخاص ، بعيداً عن تقفى الآثار الواقعية ، كأنما كل همه أن يدون من المرويات ما ينمو إلى علمه دون مراعاة لتناسق هذه المرويات . أو ملاحظة لمتناقضاتها . يقول جينيبير :

« وتصفح الأناجيل وحده يكفى لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ، ولم يستلهموا تاريخا ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك : إتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه ، ولا شك أيضا فى أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الواقع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح ، فلم يكن عملهم إذن سوى أن يربطوا — فى كثير أو قليل من المهارة — بين أطراف من المرويات ، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة فى إطار مصطنع ، ومن الواضح ألا يربط أيا منها بالواقع التاريخى علاقة تذكر ، وإنا لنلحظ فى ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصاً كثيراً وفجوات خطيرة »(١) .

إن التناقض فى نصوص الأناجيل موضوعيا وتاريخيا أصبح أمراً متعارفا عليه بين المحققين والمعلقين من المسيحيين ينطق به القاصى والدانى، وقد جرى ذلك على ألسنة نقادها .

يقول ول ديورانت : « وملاك القول أن ثمة تناقضا كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وإن فيها نقطا تاريخية مشكوكا فى صحتها ،

---

(١) نشأة المسيحية ص ٢٨ ، ٢٩

وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة، أو طقس متأخر من طقوسها، لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى [شيشرون] [وسالست] [وتاستس] أن التاريخ وسيلة لنشر المبادىء السامية، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب، ولما يرتكبه النساخ من من أخطاء أو تصحيح»(١).

ومع ذلك فإن الثابت من التاريخ لدى المحققين أن مضامين هذه المكتوبات الإنجيلية قد غير فيه كثيراً بالتعديل الذى لم يكن ليقره كاتبوه الأولون. وكان ذلك خلال فترة زمنية ليست بالقصيرة، يقر سلسس(٢): بأن التحريف أصاب الأناجيل منذ وجودها المبكر فيقول: «بدل النصارى أناجيلهم ثلاث أو أربع مرات. بل أكثر من هذا تبديلا كأن مضامينها بدلت»(٣).

متلخص من هذا أن الذى يتفق عليه الناقدون والمحققون هو أن الأناجيل مكتوبات تعرضت لأخطاء كتابها، وتعرضت بعدهم لأخطاء النساخ والشراح، والمعلقين، والمصححين، والمبدلين، مما أدى بها إلى ما قرره الباحثون من اختلاف وتناقض وهو أمر حتمى ملازم لكتابات البشر.

قال تعالى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً»(٤).

---

(١) قصة الحضارة جـ ٣ م ٢ ص ٢١٠

(٢) سلسس أحد العلماء الوثنيين فى القرن الثانى الميلادى،

(٤) أنظر عقيدة الصلب والفداء، للسيد رشيد رضا ص ٤١

(٤) النساء /٨٢

الباب الرابع

موقف الإسلام من عقيدة الصلب ونهاية المسيح

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم » [النساء / ١٥٧]

أقدم لهذا الباب بتذكير القارىء بأصل القضية فى المسيحية ، ذلك أن عقيدة صلب المسيح عندهم مرتبطة ارتباطا لازما بخطيئة آدم — عليه السلام — فى الجنة ، أى أن العلاقة بين الحادثتين علاقة تلازمية ، تلازم العلة لمعلولها ، ومعلوم أن هذه الخطيئة هى أكل آدم من الشجرة المحرمة عليه مخالفا بذلك أمر ربه ، وأرباب هذا الدين قد استبقوا هذه الخطيئة فى دم آدم ليرثها منه بنوه وراثة فطرية ، وجزاء هذه الخطيئة الخلود فى الجحيم لآدم المخطىء وبنيه الوارثين لخطيئته ، وقالوا بأنه لا منجى للجميع إلا بتقديم فدية تكون كفارة لهم أمام الرب حتى يمكن أن يعفو عنهم ، وأن الله اختار ابنه يسوع المسيح (عيسى ابن مريم عليهما السلام) ليكون القائم بهذا الفداء ، فنزل الإبن ، وتجسد ، وقتل صلبا ، وتم المراد هكذا زعموا وهكذا اعتقدوا .

وأقول : بأنه لم يرد نص إلهى فى التوراة على لسان أنبيائها أو فى الإنجيل على لسان عيسى يفيد لزوم الفدية لخطيئة آدم ، أو أن الله أوقف عتق المخطئين من النار على صلب المسيح عليه السلام ، وعلى كل فقد بينت بالتفصيل هذه العقيدة ، وإسهامات طوائفهم فى تكوين وترتيب

تصوراتها، ومفاهيمها فى الباب الأول من هذا الكتاب الذى جعلته أساسًا لعرض مواقف النقد العلمى والكتب المقدسة عليه فارجع إليه إن شئت .

وبعد : فما موقف الإسلام مما زعموه من الربط التلازمى بين خطيئة آدم وفرية صلب المسيح ، التى فندناها فى البابين السابقين حسب المنهج الذى التزمنه ؟ ، ثم ما مصير المسيح بعد المكر به والتآمر على قتله ، هذا ما سنعرفه فى هذا الباب والله المستعان .



الفصل الأول

خطيئة آدم شخصية لا توارثية

(وعصى آدم ربه فغوى ثم
اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)
[طه / ١٢١، ١٢٢]
(ولا تزر وازرة وزر أخرى)
[الإسراء / ١٥]

خلق الله آدم من سلالة من طين، وأمر الملائكة بالسجود له، تعظيما لله تعالى، وتحية وتكريما لآدم بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه، فأطاع المأمورون أمر ربهم لهم بالسجود فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، فقضى الله عليه بالطرد واللعنة من أجل استكباره وعصيانه. فطلب اللعين من رب العزة أن يؤخر له فى عمره، وأن ينظره إلى يوم الدين ليوقع بآدم وذريته فى الشرور والآثام انتقاما من آدم وذريته، لزعمه أنه كان السبب فى طرده ولعنته، وقال متوعدا: «لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين»[1] فأمهله الله تعالى، ثم قضى الله سبحانه أن العقاب على من كذب وتولى وعصى أمر ربه فاتبعه فى غوايته، أما من خالفه وأطاع ربه فله جزاء الحسنى[2].

ثم خلق الله لآدم زوجا من نفس طبيعة آدم التى خلق عليها، وأسكن

---

(١) الحجر / ٣٩، ٤٠

(٢) إقرأ من سورة الأعراف / ١١ — ١٨ ومن سورة الحجر / ٢٨ — ٤٨ ومن سورة ص / ٧١ — ٨٥ ومن سورة البقرة / ٣٤

الله آدم وزوجه الجنة ،وأوصاهما أن يأ كلا من جميع شجر الجنة إلا شجرة معينة نهاهما عن الأكل منها ، قال تعالى : ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين[1].

وهنا بدأت مرحلة أخرى من مراحل وجود آدم وزوجه ، هذه المرحلة هى التعرف على الطاعة والمعصية ، والتدريب على تلق الأمر والنهى من رب العزة .

وكأن الغرض من إسكان آدم وزوجه الجنة بمثابة المعهد الذى يقوم فيه بالتدريب والتلقى من الله، كما كان الغرض أيضا إيقاظ الإنسان وتبيان ما فيه من خير إذا هو أطاع وامتثل أمر ربه ، ومن شر إذا هو أضاع ولم يمتثل، اقتضاء لما ألهمه ربه من فجور نفسه وتقواها ، كما يصح أن تكون هذه الفترة أيضا بدء احتكاكه بعدوه المبين ، وخصمه اللدود ، وتعرفه عليه ، وهو الشيطان الرجيم .

الغواية :

لقد بين الله لآدم عداوة إبليس البينة والمتحدية له ، وحذره منه ، ووضح له أنه لا يمكنه من أن يكون سببا فى إخراجه من الجنة فيشقى فى سبيل تحصيل ما به يسد جوعه وظمأه ، ويتقى به مهلكة الحر والقر ، من مسكن وكساء وماء وغذاء ، فقال تعالى : « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »[2] .

ولكن الشيطان اللعين أخذ يتحين الفرص للاحتيال على آدم وزوجه حتى أوقع بهما فى شراك الخطيئة ومعصية الله تعالى ، فوسوس لهما بأنه لهما لمن الناصحين فى الأكل من الشجرة المنهى عنها ، فدلاهما بغرور عن

---

(١) الأعراف / ١٩ واقرأ من البقرة / ٣٥

(٢) سورة طه / ١١٧ — ١١٩

طريق ما ركب فيهما من شهوة ركزت فى طبيعتهما ، هى شهوة الملك والإدارة ، وشهوة البقاء والخلود ، سواء أراد بقاء ذاته أم بقاءه ببقاء نسله «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى [(١)] «وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» [(٢)].

فدخل عليهما من هذين الجانبين فأطاعا تضليله وغوايته لهما ، لأنه أكد لهما ذلك الإغواء بالقسم ، فأكلا من الشجرة اتباعاً لما مناهما به من شهوات ، وتصديقاً له فى قسمه ، إذ لم يكن معلوماً أن أحداً يقسم بالله تعالى كذباً ، وبمجرد أكلهما من الشجرة المحرمة لف آدم وزوجه برداء الخطيئة والمعصية ، وبدت لهما سوآتهما التى لم يعهداها من قبل ، فأخذا يخيطان لهما ستاراً من ورق الجنة ليوارياها بها إستحياء وندماً ، «وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» [(٣)] «وعصى آدم ربه فغوى» [(٤)] فكان نسيانه أمر ربه واستجابته لغواية الشيطان ناشئاً من ضعفه البشرى الذى ركبه الله فى جنس بنى آدم قال تعالى : «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما» [(٥)].

التوبة من آدم وزوجه والقبول والعفو من الله تعالى :

إن آدم — عليه السلام — قد عصى من غير شك ربه باتباعه غواية الشيطان ، ولكنه لم يصر على معصيته ، بل تاب واستغفر ربه وأناب إليه بعد أن أقر هو وزوجه بظلمها لأنفسهما ، وبعد أن أعاد الله لهما ذكرى

---

(١) طه / ١٢٠ ، ١٢١
(٢) الأعراف / ٢٠
(٣) الأعراف / ٢١ ، ٢٢
(٤) طه / ١٢١
(٥) طـه / ١١٥

مانهاهما عنه من قبل ، ناداهما نداء الحانى الرحيم فقال تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[١] .

والله سبحانه فتح لآدم باب القبول والعودة إليه بالتوبة فتاب هو وزوجته وقبل الله توبتهما وتاب الله عليهما « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »[٢] ،

وذلك بعد أن اجتباه ربه وقربه إليه « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[٣] .

والتوبة والإنابة من العبد والعفو والقبول من الله أمر مقرر فى العدل الإلهى والرحمة الإلهية من غير تنافر أو منافاة ، فهو سبحانه ولى العفو ، كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات لمن ندم وتاب من قريب قال تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون »[٤] « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا »[٥] .

وهكذا تقرر العفو والرحمة فى الجانب الإلهى حين وجب العدل ، وتقررت المغفرة والتوبة إذا وقعت المعصية وأعقبتها توبة العاصى وندمه، كما أن العفو من القادر كرم وإحسان .

هذا ، وبما تقرر من توبة آدم وزوجه وقبول الله لها ، ودخولها فى رحاب عفوه ورحمته لم يكن لزعم بقاء الخطيئة فى دآم وذريته ، وموجباتها أثر ولا وجود ، وبذلك تكون فكرة الفداء قد تلاشت تماما لتلاشى

---

(١) الأعراف /٢٢ ، ٢٤ (٢) البقرة /٣٧

(٣) طه /١٢٢ (٤) الشورى /٢٥ (٥) الفرقان /٧٠ ، ٧١

أساسها ، فآدم غفر الله له ، وجاءت ذريته بريئة نقية حين ولادتها ، وليس على أحد منهم خطيئة إلا بمقدار ما تكسبه يده بعد ولادته بل بعد بلوغه مبلغ التكليف . وما كان خروج آدم وزوجه من الجنة وإهباطهما إلى الأرض سخطا عليهما وتحقيراً من شأنهما ، ولكن ذلك كان تشريفا لهما وتكريما حيث باشرا بذلك مهمتهما التى خلقا من أجلها ، وهى مهمة استخلافهما فى الأرض كما وعد الله من قبل فى قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] فالخلافة فى الأرض هى المقصد الأول والأسمى من خلق الإنسان . وبعد الذى تقدم نستطيع أن نقول :

١ — إن حياة آدم وزوجه فى الجنة كانت من أجل تدريبه وتعريفه منهجى الحق والباطل والصواب والخطأ ، وتذوق ثمرة كل منهما ، وإبراز ما فى الإنسان من خير أو شر ، ولم تكن إقامتهما فى الجنة للخلود فيها كما زعم النصارى ، وذلك لأن الله قد شرح للملائكة الحكمة من خلق آدم من قبل خلقه ، وهى أن مقره فى الأرض خليفة للعدل والحق ، واستشراف عظمة الله فيما خلق من شىء .

٢ — إن إهباط آدم وزوجه وعدوهما الشيطان الرجيم إلى الأرض إنما كان لبدء المعركة بين الفريقين ، والتجاذب بين الطريقين ، فإما إلى خير لآدم وإما إلى شر يحيق به ، وبالتالى إما إلى جنة وإما إلى نار ، كما أن ذلك الإهباط كان إلى مجال الإنسان الحقيقى كخليفة لله فى أرضه ، يعمرها بسيره على منهج الحق والخير ، والطريق المستقيم ويكتشف أسرار عظمة الخالق فيما خلق وقدر ، فإذا انحرف فإنما هو فى النار مع الداخلين ، ومع قرينه الشيطان الرجيم . « قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »[2] .

---

(١) البقرة / ٣٠ (٢) الأعراف / ٢٤ ، ٢٥

وقال تعالى : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنى جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »[١] .

وما دام أن إهباط آدم وزوجه إلى الأرض كان تكريما لهما وتشريفا وليس عقوبة وتنكيلا، وذلك بعد أن محيت آثار خطيئته بالتوبة وحسن القبول ، فقد أصبحت كل نفس تحمل وزر نفسها ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، كما أصبحت المسئولية شخصية والخطيئة فردية يحاسب عليها صاحبها دون مسئولية الآخرين عنها كما أثبت القرآن أن : (كل نفس بما كسبت رهينة)[٢] وكذلك أثبت التوراة (أن الآباء لا يقتلون عن الأبناء ولا الأبناء يقتلون عن الآباء بل كل إنسان بخطيئته يقتل ..)[٣] وأول ما كان من ذلك على الأرض ما كان من أمر ابنى آدم حيث أخذ الله الشرير بذنبه دون مسئولية الآخر، كما عامل الخير بإحسانه دون مشاركة الآخر له فى جزاء إحسانه ، مما دفعه إلى الحقد عليه وقتله فزاده الله مقتا على مقته، فتقرر بذلك أنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، بل(كل امرىء بما كسب رهين)[٤] وكل نفس (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[٥] ولقد تعاقب على البشرية أمم وأقوام عصوا رسول ربهم فأخذهم الله أخذة رابية ،وكلا أخذه بذنبه وأبقى المؤمنين الصالحين فى النعمة والرضا، فثبت أن الخطيئة شخصية ،وأن الجناية فردية ليست وراثية ، وليست فطرية كما هو زعم المسيحيين فى عقيدتهم .

---

(١) الأعراف / ٢٧ (٢) المدثر : ٣٨

(٣) إقرأ سفر الملوك الثانى ١٤ : ٦ وحزقيال / ١٨ : ٥ والتثنية ٢٤ : والرسالة إلى رومية ٢ : ٦

(٤) الطور : ٢١ (٥) البقرة : ٢٨٦

الفصل الثاني

ورفع الله عيسى إلى حيث شاء

« وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله
عزيزاً حكيما » [النساء /١٥٨ ، ١٥٨]

ذهب جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ، والأئمة والفقهاء ، والعلماء إلى القول برفع المسيح حياً إنقاذاً له من القتل والصلب بناء على مايدل عليه ظاهر الآية التى سيقت لإظهار قدرة الله تعالى وغلبة قوته وتدبيره قوة اليهود وتدبيرهم قتل المسيح — عليه السلام — فقال جل شأنه : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا »(١) .

كما أخبر الله سبحانه بأنه حقق فعلا ماوعد به نبيه ، فكذب الذين زعموا أنه قتل ، وذلك بعد ستة قرون ونيف من الزمان من ذلك الحدث العظيم ، فقال تعالى : « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم »(٢) وقال تعالى : « وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما »(٣) فالله سبحانه وتعالى قوى عزيز ، لايغلبه إنسان ، ولا يقهره مخلوق ، بل « الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٤) .

أما كيفية الرفع وحقيقته فعليه مدار اختلاف العلماء ، فقيل إنه بالروح والجسد معاً ، وقيل بالروح فقط ، وقيل إنه رفع مكانة .

---

(١) آل عمران /٥٥
(٢) النساء / ١٥٧
(٣) النساء / ١٥٧ ، ١٥٨
(٤) يوسف / ٢١

ونهاية الفصل فى هذه القضية يتوقف على الوقوف على المعنى المراد من التوفى الوارد فى الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وفى الآية الواردة على لسان عيسى فى سورة المائدة : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » كما يترتب عليه أيضاً مدى مايراد من معانى الأحاديث النبوية فى نزول عيسى فى آخر الزمان ، وإليك العرض والبيان .

معنى التوفى :

التوفى معناه فى اللغة : أخذ الشيء وافياً تاماً . وقال الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن : إن توفية الشيء بذله وافياً ، واستيفاؤه تناوله وافياً . وللتوفى عند العلماء معان ، فقال ابن زيد : إنه بمعنى القبض ، فمتوفيك قابضك من الأرض ، ومعناه : إنى قابضك ورافعك إلى من غير موت ، من قولهم : توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاماً ، فالمعنى إنى متوفيك من الدنيا ببدنك وروحك وليس بوفاة موت .

وقال ابن جرير (توفيه هو رفعه) كما حكى هذا أيضاً عن مطر الوراق .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : إنه بمعنى إبقائه لأجله المقدر له والإماتة بعده ، أى إنى متوفيك أجلك ، ومعناه إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخراً أجلك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم . ووافقه الفراء فى أن معناه : الإماته فى المستقبل .

وقال أبو بكر الواسطى معناه : إنى متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ، وإنى رافعك إلى ، وذلك أن عيسى — عليه السلام — لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة فى زوال الشهوة .

وقيل : إن المراد بالتوفى ، النوم ، وهو رأى جمهور المفسرين ،

فقد اجمعوا على أن المراد بالوفاة النوم ، فهما صنوان . ويطلق كل منهما على الآخر كما هو معلوم من قوله تعالى: « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى »[١] ومن قوله تعالى أيضاً : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها »[٢] فجعل الله الموت هنا وفاة ، وفى الآية السابقة جعل الاستيقاظ من النوم بعثاً ، وربما كان عيسى نائماً فرفعه الله إليه وهو نائم ، فيكون معنى الآية موضوع البحث : « إنى منيمك ورافعك إلى » .

وذكر الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهــــذه الآية أن رسول الله — ﷺ — كان إذا قام من النوم قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ... الحديث » . فالرسول قد سمى النوم إماتة ، واليقظة إحياء وبعثاً .

ويعضد هذا الحديث حديث آخر عن رسول الله ﷺ حيث قال : « والله لتموتن كما تناموون ولتبعثن كما تستيقظون » ... الحديث .

وقيل بأن الواو فى قوله « ... ورافعك إلى .. » لمطلق الجمع فلا تفيد ترتيباً ، (فمتوفيك ورافعك — مثل رافعك ومتوفيك) والمعنى أن الله يفعل به ماذكره .

أما كيف ومتى ، فالأمر موقوف على الدليل ، وقد ثبت فى الحديث الشريف أن عيسى سينزل فى آخر الزمان ، ويقتل الدجال ، وأخرج ابن أبى حاتم بسنده عن الحسن أنه قال فى قوله تعالى « إنى متوفيك » يعنى وفاة المنام ، رفعه الله فى منامه ، قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود : « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل القيامة » وقوله تعالى : « ومطهرك من الذين كفروا » أى برفعى إياك إلى السماء »

---

(١) الأنعام/٦٠ (٢) الزمر/٤٢

وفى إحدى روايتين عن ابن عباس أن المراد بالتوفى حقيقة الموت ، رواه عنه ابن أبى طلحة . أما من يقول بأن الله أماته ثم أحياه بعد ساعات أو أيام ثم رفعه فهو زعم أصيل فى منبعه النصرانى .

وهناك قول بأن فى الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض ، وهو رأى قتادة . أخرجه ابن أبى حاتم .

هذه هى الآراء فى معنى التوفى التى قال بها العلماء والمفسرون ، وكلها تلتقى على معنى الرفع بالحياة جسداً وروحاً باستثناء الرواية التى وردت عن ابن عباس — رضى الله عنه — والآراء لا تخرج فى جملتها عن كون التوفى فى الآية معناه النوم أو القبض ، وهو معناه اللغوى ، وهو وإن كان يحتمل النوم والإماتة فهو يحتمل الاستيفاء قبضاً من غير نوم أو موت ، إذ قبض الشىء وافياً تاماً يشمل قبض النفس ، والأجرة ، والكسب ، قال تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون »(١) « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »(٢) ويشمل النوم من غير موت كما فى آيتى الأنعام والزمر السابقتين ، كما يشمل الموت فى آية الزمر أيضاً وكما فى قوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون »(٣) وقوله : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم »(٤) إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى القرآن عن التوفى وكلها تؤول إلى المعنى اللغوى المذكور .

والتوفى من المشترك اللفظى ، وهو فى اصطلاح علماء الأصول : لفظ وضع وضعاً شخصياً لمعنيين فأكثر بأوضاع متعددة ابتداء بلا نقل من معنى إلى آخر سواء كان بينهما مناسبة أو لا .

---

(١) النحل / ١١١
(٢) آل عمران / ١٨٥
(٣) الأنعام / ٦١
(٤) السجدة / ١١

وفائدة المشترك: العزم والامتثال للمراد منه إذا بين، والاجتهاد في استعلام المراد منه فينال ثواب كل منهما.

وحكمه: التوقف من غير اعتقاد حكم معلوم، غير أن الثابت به حق حتى يقوم مرجح للمعنى المراد، ويجب التأمل لإدراك المعنى بالقرائن المرجحة فلا يقعد عن طلبه.

وقال الإمام الشافعي: يجوز أن يراد من المشترك كلا معنييه عند التجرد عن القرائن ولا يحمل على أحدهما إلا بقرينة.

فإذا تقرر هذا كان في الوسع أن نقول:

إن حمل التوفي هنا في غير الموت أظهر بقرينة الرفع المذكور بجانبه، إذ ليس في القرآن موت ذكر معه الرفع، لأن الميت يدفن ولا يرفع كما قال تعالى في شأن الإنسان: (ثم أماته فأقبره).

وذكر الآلوسي أن الصحيح ما قاله القرطبي من أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو إخبار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس، كما هو رأي ابن زيد كما تقدم، وهو الذي نختاره وهو المعول عليه في الباب، والله أعلم بمراده أولا وأخيرا.

أما حقيقة الرفع اللغوية: فهي النقلة من سفل إلى علو كما قال أبو حيان وأئمة اللغة.

إبطال القول بحمل الرفع على رفع الروح أو المكانة:

إن القول بحمل رفع عيسى — عليه السلام — على رفع المكانة أو رفع الروح يبطله أمور:

الأول: إنه معنى مجازي، ولا يصار إليه إلا بقرينة، ولا قرينة على ذلك، ولا داعي إليه، وليس في العقل ما يحيل حمله على المعنى الحقيقي حتى يحتاج إليه.

الثانى : أن حرف (إلى) فى قوله (إليه) يدل على أن الرفع إلى مكان محسوس ، قال النيسابورى فى تفسيره : الرفع إلى السماء يتمسك به المشبهة والمجسمة ، والله سبحانه متعال عن الحيز والجهة ، فوجب حمل هذا الظاهر على التأويل بأن المراد : إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى ، والمعنى من إسناده إلى الله التفخيم والتعظيم ، والمراد إلى مكان لا يملك الحكم عليه هناك غير الله .. ا هـ .

أما رفعة المكانة فليس لها مكان تنتهى إليه فلا يذكر معها لفظ (إلى) ، إقرأ قوله تعالى : « ورفعنا لك ذكرك »[1] ، « فى بيوت أذن الله أن ترفع »[2] ، « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذى أوتوا العلم درجات »[3] « والعمل الصالح يرفعه »[4] « نرفع درجات من نشاء »[5] .

فهذه أمور أريد بها الرفع المعنوى ، أما تلك فهى للرفع الحسى .

الثالث : أن رفع المكانة حاصلة لعيسى على أكمل وجه ، فقال الله فيه إنه « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »[6] فلا معنى لأن يعطى شيئا حاصلا له ، كما أنه ليس بأفضل من الرسل حتى يقال : يجوز أن يعطى من الرفعة قدرا لا يشاركه فيه بقيتهم ، وكذلك رفع الروح لا معنى له ، لأنه — مع كونه مجازا أيضا — لا يمنع عنه ضر المؤذين ، ولا عسف الظالمين ، على أن هناك من الأنبياء من أوذى أكثر من عيسى وأحكم أمر قتله وأنجاه الله من أعدائه كإبراهيم — عليه السلام — ومع ذلك فلم يذكر الله فى شأن نجاته أنه رفعه مع كونه أبا الأنبياء ، ولم يزد الله فى

---

(١) الشرح ٤
(٢) النور ٣٦
(٣) المجادلة / ١١
(٤) فاطر ١٠
(٥) الأنعام / ٨٣
(٦) آل عمران ٤٥

إخباره عن إنجائه عن قوله : « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه »[1] .

الرابع : أن الله سبحانه نفى القتل والصلب عن عيسى ثم عطف بـ (بل) مثبتا له الرفع . ومعلوم فى اللغة أن (بل) إذا تلت نفيا أو نهيا كانت للإضراب عما قبلها وإثبات نقيضه لما بعدها ، ولذلك كانت إحدى أدوات القصر عند علماء المعانى ، بل هى أقوى طرقه ، وهى فى الآية لقصر القلب لترد على اليهود والنصارى ما اعتقدوه من قتل عيسى وصلبه ، وتثبت نقيضه وهو حياته ورفعه . هذا هو صريح اللغة والبلاغة :

الخامس : أن الله سبحانه ذكر لنا من التعسف والاضطهاد الذى لاقاه الرسل والأنبياء ألوانا وأنواعا كثيرة ، وذكر لنا طرق إنجائه لهم حسبما اقتضته سنته وحكمته مع كل وما يناسبه فى إنقاذه من أعدائه ، ولم يذكر الرفع طريقا للإنقاذ إلا فى عيسى — عليه السلام — فلا جائز أن يكون المراد به رفع المكانة لأنه مشترك بين جميعهم ، ولا رفع الروح لأنه عام فى جميع المؤمنين ، مع ضرورة العلم بأن رفع المكانة حقيقيا فى نجاة عيسى بهذا الطريق كما أنجى غيره بطرق أخرى وهو الفعال لما يريد .

السادس : أن الله جعل الرفع مبطلا لدعوى أنهم قتلوه ، وهذا يوجب أن الرفع حقيقى إذ لو كان كناية عن رفع المكانة أو الروح لم يكن مبطلا لدعوى اليهود ، بل هذا الرفع المجازى يجامع الصلب والقتل ولا يمنعه وإذا أماته إماتة عادية كان لجوءا إلى أضعف الحيل مما يثبت العجز المحال عليه تعالى مع بلوغهم المراد منه ، وإذن لكان من الحق أن يقول الله تعالى : « بل أماته ورفعه إليه » كما لم يتحقق بذلك دفع مكرهم وإبطال كيدهم ، ولا يقتصر على ذكر الرفع المراد به رفع المكانة والروح لأنه

---

(١) الأنبياء ٦٩ — ٧١

لا يستلزمه ولا يدل عليه ، ولا يقال بأن قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى » قرينة على رفع المكانة ، وكذلك التقدير فى آية « بل رفعه الله إليه »

لأنا نقول : هذا — على ما فيه — إنما يفيد تقدير التوفى ، ولا يلزم من التوفى الإماتة كما تبين . فمن أين يأتى تعيين معناها بالموت وأى دليل عليه ؟

وإذن فالمراد بالرفع قبض البدن من الأرض حيا وليس المراد به الموت على وجه القطع لكونه مبطلا لزعم اليهود ، على أن بعضهم أضاف بأن عيسى أعطى استعدادا لذلك بأن قطعت عنه علائق الشهوة وعلائق المادة .

السابع : تعقيب آية الرفع من سورة النساء بختمها باسمين كريمين من أسمائه تعالى وهما — العزيز الحكيم — فالعزيز ، هو القوى الذى لا يقهر ولا يغلب على أمره ، والحكيم ، هو الذى يفسد بتدبيره وحكمته كل كيد ويدمر كل مكر ، والفائدة فى التعقيب بذكر الإسمين الكريمين هو الإفادة بأن الله أنجى عيسى — عليه السلام — من مكرهم ، وخلصه من سوء تدبيرهم برفعه إليه مكرما ، وهذا دليل على رفعه بجسده وروحه ، حيث إنه لو مات ورفعت روحه لقال : بل رفعت روحه إليه ، ولقال : « إنى متوفيك ورافع روحك إلى » ولو كان ذلك كذلك لم يكن لذكر الإسمين الجليلين محل ، فما دام الحديث فى رفع أرواح المؤمنين الصالحين والأنبياء بعد الموت لم يحتج فى ذلك إلى أمور زائدة ، ولا إلى زيادة إحكام وتدبير ، بل إن ذلك مقتضى عدله تعالى ورحمته .

الثامن : إن القرآن الكريم قد قص علينا أن المسيح قد أخبر فى كلامه فى المهد : أن السلام عليه فى يوم مولده ، وفى يوم موته ، وفى يوم

بعثه ، فقال تعالى : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا »[١] .

وهذا الكلام نبوءة منه فى مهده فلابد أن يتحقق له ذلك فى يوم موته كما كان السلام عليه يوم مولده ، فإذا قلنا بقتله وصلبه بيد أعدائه على ما كان عليه من حزن واضطراب واكتئاب — كما تحكى ذلك الأناجيل — فأى سلام هناك ، وأى أمن لقيه عيسى عند موته . . ؟

إنه لكى يتحقق ذلك لابد من تحقق نجاته ورفعه بشخصه وجسده آمنا سالما مطمئنا ، ومسرورا ، لامهانا ولامقتولا ، وإلا لكان حديث القرآن لغوا وعبثا .

تقدست كلمات الله عن اللغو والعبث .

التاسع : أن رفع عيسى ونزوله لقتل الدجال ليس فى العقل ولا فى الشرع ما يحيله أو يبطله ، ولا فى العلم ما يصدمه أو يصادره ، فوجب إثباته لتواتر معناه فى الأحاديث الصحيحة وإن كانت آحاداً إلا أنها متواترة المعنى فأصبحت مشهورة .

وقال الأصوليون : إن المثبت مقدم على النافى ، لأن المثبت معه زيادة علم ، ولهذا يقول الإمام ابن تيمية : إن أكثر الجهل إنما يقع فى النفى لا فى الإثبات ، لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه .

هذا ماتيسر لنا من الفهم والتحقيق فى هذه المسألة وإلى الله وحده يرجع تعيين علم مرداه .

---

(١) مريم / ٣٣

الفصل الثالث

نزول عيسى فى آخر الزمان

« وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها » :
[الزخرف/ ٦١]

يتفق جمهور المسلمين وتجمع رواياتهم على أن عيسى — عليه السلام — نجا من أيدى من أرادوا قتله من اليهود ، وأنهم قتلوا شخصا آخر ظانين أنه المسيح .

وذهب الجمهور إلى أن نجاته كانت برفعه جسداً وروحاً إلى حيث شاء الله، بحيث لاتصل إليه فى مكانه المرفوع إليه يد إنسان ، وهذا هو رأينا المختار وعقدناه — بما يرفع عنه الاحتمال بما ذكرناه — فى الباب الثانى والثالث من هذا الكتاب خلافا لمن ذهب إلى أن المراد بالرفع رفع الروح فقط (١) ، ، ، ، ، ، ، ، ،

---

(١) الذى ذهب إلى أن الرفع بالروح فقط هو الأستاذ الإمام الشيخ (محمد عبده) ومن تابعه ، وذلك بحمله معنى التوفى فى آية آل عمران فى قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى » على معنى الموت ، ويؤول نزوله فى آخر الزمان وحكمه فى الأرض بغلبة روحه ، وسر رسالته على الناس ، وهو ما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم ، والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف على ظواهرها ، والتمسك بقشورها ، فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقييد بالرسوم والظواهر . =

أو رفع المكانة[١] ، وقد بينا أنه بعيد الاحتمال .

أما القول بنزول عيسى فى آخر الزمان[٢] فهو مذهب الجمهور أيضا من العلماء المفسرين والمحدثين والمتكلمين والمتصوفة ، وقد قرروا بأنه يمكث بعد

= هذا ، وقد عقب صاحب المنار على ذلك بقوله : هذا ماقاله الأستاذ الإمام ولكن ظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك تأباه .

ثم قال الإمام فى شأن الأحاديث الواردة فى الرفع والنزول آخر الزمان بأنها أحاديث آحاد متعلقة بأمر اعتقادى ، لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطع ، لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس فى الباب حديث متواتر .

وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له، فقال: إن الدجال رمز الدجل، والخرافات. والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها .

(١) الذى قال بأن الرفع مراد به رفع المكانة هو الشيخ محمود شلتوت فى فتاويه حاملا معنى التوفى على الموت أيضا كما ذهب الإمام محمد عبده ، لأن التوفى قد اشتهر فى معنى الموت ، ويقول بأن الأحاديث لا تقرر الرفع بل تقرر النزول ، وهو ما يمكن بحياة جديدة .

وقد سبق الشيخ شلتوت فى ذلك بما قرره الإمام محمد بن حزم قائلا إن التوفى هو الموت الحقيق ، وصرف الظاهر عن حقيقته لا معنى له ، وأن عيسى مات ولكنه سيعود قبل القيامة فى آخر الزمان بعد إحيائه بحياة جديدة وهو ما رآه ابن عباس فى إحدى روايتين عنه .

(٢) المراد بالنزول هو مجيئه من حيث أقامه الله ، ولا يلزم من النزول الهبوط من مكان عال ، لأنه قد ورد بمعنى الجعل مثل قوله تعالى «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» [الحديد / ٢٥] وقوله «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» [الزمر / ٦] .

النزول مدة فى الأرض تتأرجح الروايات فى تحديدها ما بين سبع سنين إلى أربعين سنة ، وأن الهدف من نزوله هو قتل مسيح الفتنة والضلالة المسمى بالدجال ، وكسر الصليب وقتل الخنزير .

والمعنى : هو تحقيق شريعة الإسلام حتى تسود مبادئه ، وينتشر العدل حتى يعم الأمن والرخاء ، وإبطال ما زعمه اليهود من قتل عيسى وما اعتقده النصارى من تأليهه وإبطال عقيدة الصلب بجميع أركانها .

ويستند أصحاب هذه العقيدة إلى آيات من القرآن الكريم وكثير من أحاديث السنة المطهرة ، والآثار الإسلامية ، فقد قال الله فى سورة آل عمران فى مقام البشرى لمريم بعيسى : « ... ويكلم الناس فى المهد وكهلا »[1] .

وفى خطاب الله لعيسى فى القيامة وهو يعدد نعمه عليه قال تعالى : «إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ... »[2]

فقد قيل لبعضهم : هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن .. ؟ قال : نعم ، قوله تعالى : « وكهلا » وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا ، وإنما معناه : وكهلا بعد نزوله إلى الأرض من السماء ، ومعنى الآية : أن عيسى كلم الناس فى المهد ثم رفع قبل أن يكون كهلا ، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل[3] .

---

(١) آل عمران / ٤٦ .

(٢) المائدة / ١١٠ .

(٣) قاله ابن جرير فى تفسيره بسنده عن ابن زيد ، وقاله الحسن بن الفضل البجلى .

ويمكن القول بأنه سينزل فى سنه الذى رفع عليه ، ثم يستمر فى تبليغ رسالة ربه وحديثه للناس حتى يصير كهلا بعد النزول ، حيث إن الكهل من جاوز الثلاثين عاماً إلى نحو الخمسين[١] ، والمسيح — عليه السلام — رفع وهو فى أوائل سنى الكهولة أو يستمر حتى يوغل فى سن الكهولة أو يستكملها .

هذا ، وإن عامة المفسرين يجعلون الآية دليلا على نزول عيسى، وذلك لأن كهلا معطوف على متعلق الظرف قبله ، وأنه أخذ حكمه ، والتقدير : ويكلم الناس فى المهد ويكلمهم كهلا .

فإذا كان كلامه عقب ولادته مباشرة آية ومعجزة، فإنه لابد أن يكون المعطوف عليه وهو كلامه فى حال الكهولة آية كذلك ومعجزة ، وإلا لم يحتج إلى التنصيص عليه ، حيث إن الكلام من الكهل أمر معتاد مألوف ، فلا يكون فى الإخبار به فائدة، أما وأنه قد نص عليه، وكان التنصيص فى مقام البشارة مرة ، وفى مقام تعداد النعم أخرى، فلابد أن يكون لهذا الإخبار السماوى امتياز زائد فى معناه عن المألوف ، وهو كون كلامه كهلا آية ومعجزة ككلامه وهو طفل ، ولا معنى لذلك إلا أنه رفع قبل أن يكتهل، أو على الأقل قبل أن يوغل فى الكهولة ، ثم ينزل إلى الأرض ويمكث حتى يكتهل ، والثابت فى إنجيل لوقا[٢] أن المسيح بعث وهو ابن ثلاثين سنة ، ومارس وظيفة الرسالة أشهراً معدودة على قول بعض المحققين ، وإن المشهور لدى بعض الباحثين أنه مارس الرسالة ثلاث سنين . ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين[٣]، وبعضهم يرى أكثر من هذا بقليل[٤] ، وعلى أى حال

---

(١) راجع القاموس الوسيط مادة (كهل) .

(٢) إقرأ لوقا ٣ : ٢٣ .

(٣) يرى الشهر ستانى فى الملل والنحل أنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

(٤) نقله ابن جرير عن كعب الأحبار .

فتقدير سنه وقت الرفع مختلف فيه بين الباحثين والمحققين ، وعند بعض المفسرين والمؤرخين والمحدثين بأن مكثه بعد النزول سيكون أربعين سنة، وهو مدلول حديث النزول، وقيل أربعا وعشرين ، وقيل يمكث سبع سنين لأنها تتمة الأربعين ، والمختار عندهم أنه يمكث أربعين .

كما أشار القرآن أيضاً إلى نزول عيسى فى قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »(١) .

فذهب الجمهور إلى أن الضمير فى (موته) يعود على عيسى — عليه السلام — فى أصح الأقوال وأشهرها كما روى ابن جرير وغيره ، والآية مراعى فيها معنى العموم فى كل الذين يشاهدون ذلك النزول ويدركونه فيؤمنون به ، ويكون معنى الآية : وما من أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك النزول فى ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله — أى إلا آمن به من كفر، وآمن بعبوديته لله ونبوته من ادعى بنوته لله وإلهيته — وصحح الطبرى هذا القول وقال إنه أصح الأقوال .

وبناء عليه فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين فى زمان نزوله آخر الدنيا إلا آمن به وصدقه .

وإذا كان الضمير فى (موته) عائداً على المسيح فإن أهل الكتاب لن يصعدوا إليه فى محل رفعه ليؤمنوا به ويصدقوه، ولكنه ينزل إليهم كما أشارت الأحاديث المقررة بأنه سوف يضع الجزية بعد نزوله ، ولا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة — رضى الله

---

(١) النساء / ١٥٠

عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال: « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ..

ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة تنيف رواياتها عن الأربعين .

على أن القرآن قد جعل عيسى — عليه السلام — مما يعلم به أمر الساعة ، فقال تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها»[1] .

فقد فسرت الآية الكريمة بأن عيسى علم للساعة ، وهى القيامة ، أى هو أحد علاماتها الكبرى ، وقرىء (وإنه لعلم للساعة) بفتح العين واللام ، أى علامة لها .

وقد وردت أحاديث كثيرة بأسانيد صحيحة فى صحيح ابن حبان ، وعند ابن جرير تتصل بالنبي ﷺ بأنه فسر الآية بأنها فى نزول عيسى فى آخر الزمان قبل قيام الساعة . وذلك عن طريق ابن عباس ، والحسن، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن مالك ، وابن زيد وغيرهم .

وما قيل من أن الضمير فى هذه الآية يعود على القرآن أو على محمد — ﷺ — أو على ما أتى به عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه

---

(١) الزخرف / ٦١

والأبرص وغير ذلك من معجزاته فبعيد وغير مستقيم ، لأن السياق في شأن ابن مريم فقط والتأويل لا دليل عليه.

هل المسيح حي باق ؟

إن القول بنزول عيسى — عليه السلام — في آخر الزمان ثابت بالكتاب كما تقدم ، وهو ثابت بالسنة في حديث الشيخين الوارد عن أبي هريرة — رضي الله عنه — المتقدم ، كما أخرجه ابن جرير في تفسيره حيث قال : [حدثنا ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته » قال قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون] .

فقد جزم الحسن بحياة عسى وأكده بالقسم ، كما قال وكيع حدثنا أسامة عن عوف عن الحسن في قوله تعالى : « إلا ليؤمن به » ، قال عيسى ولم يمت بعد .

ثم إننا لو نظرنا في هذه الآية لوجدناها أعقبت مباشرة قول الله تعالى : « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما » ، ومعنى ذلك أنه رفع بحياته التي لا يموت بعدها إلا أن يؤمن به أهل الكتاب قبل ذلك وهو ما بينه الحديث، فإنه يكون بعد نزوله في آخر الدنيا .

وقد قال الحسن : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —(إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة).

فالحسن قد رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم — وهو وإن كان مرسلا إلا أنه في حكم الموصول المسند ، وقد صرح الأصوليون بأن المرسل الحسن مقدم على المسانيد .

وهذا الحديث وإن كان خبر آحاد إلا أنه وقع بيانا للإجمال بعد الآية لوجود الاحتمال فى ضميرى (به ، وموته) فقد عين الحديث أن المراد بهما هو عيسى — عليه السلام — وحديث الآحاد يصلح تفسيراً للمجمل ، ومتى وقع تفسيراً للمجمل القطعى كما هنا كان الدليل هو المجمل القطعى المبين بذلك الخبر لا الخبر الذى وقع بيانا له كما هو مقرر عند علماء الأصول ، فوجب العمل به إذن .

وأيضاً قد انعقد الإجماع على نزول عيسى — عليه السلام — ولا معنى لصحة ذلك إلا لأن حياته الدنيوية باقية ومستمرة ، ولم تنقطع بالموت[1] ، وهناك من الاعتقاد ما نستطيع معه أن نقول بأن الله أذهب عن حياته كل الرغبات الدنيوية ، والشهوات والحاجات التى بها تقويم حياته بحيث تكون هذه الحياة خليقة بحياة الملائكة .

أما القول بنزوله بحياة جديدة فهذا يتنافى مع قوله تعالى : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل[2] » وقوله تعالى « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون[3] » .

لأنه يكون قد مات وأحيي أكثر من مرتين ، وليس هناك من تخصيص أو استثناء لحياة عيسى من هذا العموم السائر على كل البشر حتى يمكن القول به .

---

(١) وقال أحمد شلبى فى كتابه (المسيحية) بأن عيسى عاش بعد نجاته حتى استوفى أجله إلى أن مات ميتة عادية ، ثم رفعت روحه إلى السماء مع النبيين والصديقين والشهداء .
وقوله هذا يعوزه الدليل ولا دليل .

(٢) المؤمن/١١   (٣) البقرة / ٢٨

ثم إننا لو نظرنا إلى الملابسات التى صاحبت وجود نبى الله عيسى وحياته — عليه السلام — من خلقه من غير أب ، وكلامه فى المهــد ، وإحيائه الموتى بإذن الله ، وشفائه المرضى بإذن الله، وكف أيدى أعدائه عنه فلم يقربوه بسوء ، وإخباره عما يدخر فى بيوت بنى إسرائيل من غير أن يره — إذا نظرنا إلى هذه الملابسات لأيقنا بأن رفــع عيسى حيا ونزوله آخر الزمان بنفس هذه الحياة التى رفع بها من غير سابقة موت أهون على الله من تلك الخوارق والعجائب — ولله المثل الأعلى — كما أننا لو نظرنا إلى هذه العجائب على أنها عمل الإرادة العليا غير المقيدة بالنواميس لزال كل غرابة فى الأمر وانحسم الحوار والجدل .

فإذا قيل : ولمــاذا وما الحكمة فى رفعه ونزوله ؟

نقول : ولمــاذا كانت كل هذه العجائب السابقة على رفعه ونزوله ؟

فما هو الجواب هناك يكون الجواب هنا .

أما جواب الحسم فهو الإيمان والتسليم بما قدرته وأرادته حكمة الخالق العظيم العزيز ، « وكان الله عزيزا حكيما » ، ولهذه الحكمة من الأفعال والعجائب الطايقة عن النواميس الكونية مالا نستطيع حصر مافى علمه تعالى منها ، كما لا نستطيع سبر غور مراده تعالى منها .

إن هذه المشيئة العليا هى التى رفعت الحرارة من النار التى أضرمت لحرق إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — وذلك حين توجهت إليها تلك المشيئة بأن تكون برداً وسلاماً ، كما أنها هى التى جعلت من الشجر الأخضر نارا ، فوجد الشيء من ضده ، كما أنها التى قلبت الحقائق والطبائع فى عصا موسى ، إذ قلبت طبيعة الجماد إلى حيوان ، ثم قلبته إلى جماد فى ثلاث مواطن ، وهذه العصا التى قلبت طبيعة ماء البحر إلى جبل شاهق (فانفلق فكان

كل فرق كالطور العظيم)[1] وهى التى فجرت الماء من الصخر الأصم ، وهى هى عصا موسى الذى يتوكل عليها ويهش بها على غنمه ، أليست هذه أفعال المشيئة العليا؟ وغيرها كثير وكثير ، فعلام العجب إذن فى رفع عيسى ونزوله ؟

يجب أن يتأدب العقل البشرى وينحسر فى حيزه المحدود الضيق حياء أمام قدرة من خلقه وأمام عظمة من جعله يفكر ويعقل : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[2] على أن بقاء عيسى حيا بعد الرفع وحفظ جسده بتلك الحياة إلى وقت نزوله . ليس بأعظم فى مجال القدرة العليا من حياة أصحاب الكهف وبقائهم نائمين فى كهفهم ومعهم كلبهم مدة تسع وثلاثمائة سنة، من غير أن تخرج أجسادهم عن طبيعتها الحية الغضة الطرية مع المكث الطويل ، وانقطاعها عن الزاد ، وكل مايقوم حياتها ، وقد وردت قصتهم فى التوراة ، كما وردت فى القرآن الكريم ، ألم تكلؤهم عناية المشيئة العليا ؟ بلى ، لقد كلأتهم من غير توقف على ما به قوام الأجساد مع وقايتهم من التحلل والفساد .

وهذا نبى الإسلام — ﷺ — قد جاب بجسده وروحه الملكوت الأعلى ليلة المعراج على الصحيح ثم نزل على ما كان عليه قبل عروجه من غير خروج عن طبيعته البشرية .

ولعل هذا أنموذج لهذه الأمة المحمدية لتتصور على مداه موضوع رفع عيسى بجسده وروحه ، ثم نزوله كما كان ، ومكثه على الارض زمنا، ثم يموت، لأن كل حي إلى التراب يعود كما قال الله فى كتابه العزيز .

كما أن نزول عيسي من الملأ الأعلى فى آخر الدنيا ليس بأغرب فى بابه من نزول جبريل — عليه السلام — فى صورة الأعرابى (دحية الكلبى) كما ورد فى حديث الإيمان عن النبي ﷺ .

---

(١) الشعراء / ٦٣ (٢) الإسراء / ٨٥

وأنه ليس بأغرب أيضاً من نزول الملكين (هاروت وماروت) ببابل ، فى صورة إنسانين يعلمان الناس السحر فتنة لهم واختباراً ، ثم رجوعهما كما كانا ، كما هو وارد فى سورة البقرة [1] .

فهل هذا أغرب من ذاك ؟ أم أنه الإلف والعادة التى إذا أخرقت وخالفت مألوفها أثار العقل كل شكوكه ووساوسه ؟

ومالنا وكل هذه المبررات — أليس عيسى نفسه يعتبر معجزة الخلق فى خرق النواميس من حيث مولده وكلامه فى المهد . وإحيائه الموتى ، وشفائه المرضى بإذن الله ، وعلمه ببعض الغيب ، وقدرته على التغيير والاختفاء بإذن الله .. إلى آخر ما أعطاه الله من خوارق جعلته فى عموم ملابساته معجزة الأحياء التى تعجز العقول عن تكييف مظاهرها فضلا عن مكامنها ؟ أفلا يكون رفعه حيا ونزوله آخر الزمان بتلك الحياة أمراً ميسوراً مألوفا إلى جانب ما حباه الله به من نعم وفضائل ؟

ثم لماذا إنكار الدجال وهو عقيدة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — التى دان الله عليها ، فقد روت الأحاديث بأنه رأى رجلا يدعى ابن صياد ، تنطبق عليه أوصاف الدجال التى نعته الرسول بها وسمعها منه عمر ، فهم عمر أن يقتل ذلك الذى تنطبق عليه أوصاف الدجال ، واستأذن الرسول فى ذلك ، ولكن الرسول — ﷺ — نهى عمر فقال : «إن يكنه فلن تسلط عليه — وفى رواية : فلست صاحبه — أى الذى يقتله لان صاحبه عيسى بن مريم — وإلا يكنه فلا خير لك فى قتله» .

وبعد : فلعله قد وضح من كل هذه المرجحات أن عيسى — عليه السلام — رفع حيا بروحه وجسده ، وسينزل بهذه الحياة المستمرة الباقية ليقتل الدجال فى آخر الزمان ، حيث إن مناط ذلك كله مشيئة القادر غير المقيدة بالنواميس الطبيعية وإن قيدت هى النواميس ، واتباعا للنصوص الظاهرة الدلالة على ذلك ، والله أعلم .

---

(١) اقرأ الآية / ١٠٢

الباب الخامس

المسيح ورسالته فى القرآن الكريم

[قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . . . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه تمترون] . [مريم / ٣٩ ، ٣٤]

تمهيد :

لقد ورد الحديث عن ابن مريم عليهما السلام فى الأناجيل والقرآن الكريم . وتعتبر الأناجيل المصدر الأول فى المسيحية فى تقرير كل ما يتعلق بالمسيح — عليه السلام — :

ونظراً لما رأيناه فيها من عدم التحرى للحق والتاريخ فضلا عما فيها من التهاون والقصور فى استيفاء الأحداث المتعلقة بالمسيح كما أخبرنا بذلك يوحنا فى إنجيله حيث قال : «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب»(١) وقال فى ختام إنجيله : « وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة »(٢) فالذى يفهم من هذين النصين أن الأناجيل لم تستوعب كل ما قال المسيح وما صنع .

وإذن فلم تصبح الأناجيل المصدر الذى يعول عليه فى نظر الإسلام لقصورها عن استيعاب كل ما يتصل بأحداث حياة المسيح ورسالته كما أنبأنا يوحنا فى إنجيله ، وعليه فلم يكن هناك مصدر يستأهل تمام الاعتماد عليه فى تقرير الحقيقة عن كلمة الله وروحه (عيسى ابن مريم) ووظيفته إلا القرآن الكريم لحفظ الله له من أدنى تحريف أو تبديل . ولولاه لما كشف للبشرية عن حقيقة عيسى وما لحقه ولحق دينه من انحراف وضلال فى التصور والعقيدة .

---

(١) يوحنا ٢٠ : ٣٠ (٢) نهاية يوحنا ٢١ : ٢٤

أما ماقررته المجامع الموسومة بالمقدسة من الضلال فى التصور الذى انتهى إلى يقينهم بتأليه المسيح وتثليث الإله فهى قرارات بشرية بشهادة التاريخ فلا يعول عليها فى باب العقائد ، وبسبب هذه القرارات البشرية المجمعية صارت مفاهيم الأناجيل فى واد وتصورات المسيحية للمسيح وللآله فى واد آخر ، مما عمق الهوة بين مفاهيم الأناجيل والواقع العقدى للمؤمنين بهذا الدين ، ينبؤك عن هذا مارأيناه فى الأبواب السابقة من من عدم قدرة التصور على إثبات اليقين فى قصة صلب المسيح لتتمشى مع واقعهم العقدى .

ولهذا وجب الرجوع إلى المصدر الأخير والكتاب السماوى الخاتم وهو القرآن الكريم لمعرفة طبيعة المسيح، وماتشير إليه ملابسات وجوده المعجز ومنهج رسالته ، ليحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل ، فلا كلام بعد كلام الله ، ولا التباس بعد بيانه ، ولا حق غير إحقاق الحق سبحانه وتعالى كما قال : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا »[1]، وقال تعالى : « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم .. »[2]

هذا ، وإن ملابسات الوجود اليسوعى لتمتد فى أغوار الماضى إلى ماقبل مولد أمه مريم ، — عليهما السلام — وهذا ماتتبعه القرآن فى حديثه عنه ، فقد أخذت المشيئة الإلهية والإرادة الموجهة تعد السبيل وتمهد الطريق إعداداً واستعداداً لوجود الكلمة المعجزة : عيسى ابن مريم

وسيكون الحديث فى هذا الباب عن حديث القرآن عن عيسى وأمه عليهما السلام وملابسات حياتهما .

---

(١) الإسراء ١٠٥ — ١٠٧ (٢) آل عمران / ١١٠

الفصل الأول

معالم الطريق إلى ولادة المعجزة عيسى ابن مريم

١ – مريم أم المسيح وقصة النذر :

قد يبدو الحديث عن مريم بعيداً عن موضوع البحث الذى التزمنا أن يكون عن قصة الموت صلبا والقيام فى المسيحية ، بل إن الحديث عن أم مريم لاينبغى أن يهمل أو يفارق الكلام عن المسيح لما بينهما من تكامل يختل توازنه إذا انعدم اتصال الحديث بينهما .

والبحث يقتضينا أن نأخذ بمجامع الأطراف المتصلة بجوهر الموضوع الواحد وحقائقه حتى تكون الصورة واضحة ومتكاملة ، ومن هنا نرى أن القرآن الكريم قد ربط بين الشخصيتين وأحداثهما فى موضوع واحد وقصص واحد.

فالقرآن قد بين ان الله سبحانه قد بارك بعض السلالات ونفحها بركات بفضل ماحباها من اصطفاء وتطهير ، ثم كلفها بالقيام بدعوة الإيمان بالله الواحد ، وهذه السلالات الطاهرة المطهرة اختارها الله لتحمل فى ظهور رجالها وأرحام نسائها صفوة نسل يكون له فى الحياة الدنيا شأن خطير ، حيث إنه سيقوم بتحويل مجريات العقائد الباطلة والسلوك المنحرف إلى صحيح الاعتقاد فى الله، وجمال السلوك ،وبهاء الحياة وجلالها، ثم رضوان من الله ونعيم فى الآخرة .

ومن ذلك الاصطفاء ماذكره الله فى سورة آل عمران فى قوله

تعالى : «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم »[1] .

ثم يأخذ الحديث القرآنى فى تضييق مضمونه على الكلام عن آل عمران وإن كان عمران وآله داخلين فى آل إبراهيم ، إلا أن ذلك كان بمثابة التمهيد للحديث عن مريم وما تبعه من أمور تتابعت فى الزمان ، فانتقل الحديث عن آل عمران إلى أم مريم ، وهى امرأة عمران التى نذرت ما فى بطنها محررا لخدمة الهيكل ، وهو المعبد الإسرائيلى المقدس .

وقصة النذر عن أم مريم تكشف لنا عما يعمر به قلبها من إيمان كامل بالله ، وتوجه إليه بالتقرب بأعز ما تملك ، وهو جنينها الذى بين أحشائها فتهبه خالصا لربها محررا من كل قيد وحق وتبعة لغير الله تعالى ، والتحرر على هذا المنوال فرار إليه تعالى ، كما دعا قائلا : « ففروا إلى الله »[2] ، فلا عبودية إلى له وحده .

كما أن الدعاء من امرأة عمران فى خضوع ورغبة فى أن يتقبل ربها منها نذرها — وهو فلذة كبدها — ينم عن إسلام الوجه الخالص لله ، والتوجه إليه بالكلية ابتغاء قبول المنعم ورضاه ، وتفاجأ امرأة عمران ساعة الوضع بأن مولودها أنثى وليس ذكرا ، والأنثى لا تنهض بما ينهض به الذكر فى هذا المجال ، فتتوجه إلى ربها معتذرة إليه فى نغمة أسيفة : « قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مـــريم » ومعناها : العابدة ، « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »[3] ، فهذه كلمة قلبها الخالص ، فهى تقدم هديتها وتدعها

---

(١) آل عمران / ٣٣ ، ٣٤

(٢) الذاريات / ٥٠

(٣) آل عمران / ٣٦

لعنايته ، ورعايته ، وحفظه ، ثم تعيذها به وذريتها من الشيطان الرجيم ، وهذا غاية مأمولها ، وتقبل الله الرجاء ، فحفظها من نوازع الهوى والشيطان ، « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا »[1] .

وهي من قبل في زمن الحمل مطهرة من الشيطان ، حيث إنها هبة الله لتكون مصدر المعجزة الخالدة ، وكذلك هي مطهرة لأنها نذر الله ، فهو متولى أمرها بعد ولادتها ، ثم حملتها أمها ودفعت بها إلى الهيكل وليدة وفاء لنذرها ، وهناك يتحتم الكافل الذى يرعى حياة مريم ، ويلحظها بعنايته ، أمينا حانيا عليها ، فمن يكون الكافل وفى الهيكل كبار الكهنة ومنهم نبي الله زكريا رئيس الهيكل ، وهو من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل ، ولقد تسابق سدنة الهيكل إلى كفالتها ، ويشير القرآن إلى هذا التسابق .

وهذه الإشارة القرآنية إلى ما كان من تنازعهم فى كفالتها لم يذكر حادثها « العهد القديم » ولا (العهد الجديد) المتداولان ، والنبى محمد — ﷺ — لم يكن حاضره ، فهو إذن من إنباء الغيب ، ووقوفا لهذا التسابق ألقوا الأقلام لمعرفة من تكون مريم من نصيبه فى حق الكفالة ، وإلقاء الأقلام حادث لم يذكر القرآن تفصيلا له ، وربما تركه لأنه كان معروفا لسامعيه ، أو أن هذا كان لا يزيد فى الحقيقة المعروضة شيئا ، ولم يشرح حقيقتها المفسرون ، وإذن فى الوسع أن نفهم أنهم تعارفوا على طريقة خاصة بواسطة إلقاء الأقلام ربما تشبه عمل « القرعة » فى عرف العصر ، لكن ذلك كان علامة اصطلاحية فانتهى بها الأمر إلى نبى الله زكريا فسلمت إليه « وكفلها زكريا »[2] وكل هذه الملابسات من أنباء الغيب التى لم يحضرها الرسول — ﷺ — ولم يصل علم أمرها إليه ، وربما كان ذلك سرا خاصا من أسرار الهيكل تحرم إذاعته

---

(١) آل عمران / ٣٧

(٢) آل عمران / ٣٧

وإفشاء أمره فاتخذها القرآن فى مواجهة أهل الكتاب فى وقت الكشف عن هذا الغيب المستور دليلا على وحى الله لرسوله ، وصدقه فى أخباره، وأمانته فى إعلامه ، وأن هذا الوحى تدليل على صدقه و نبوته : «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون »[1] .

ويبدو أنهم لم ينكروا على النبي ذكره لهذه الحادثة ولم يردوها عليه، فكانت حجة عليهم فى صدق نبوته ، لأن التاريخ لم يذكر أنهم ردوها ولم يتخذوها مجالا لجدالهم مع حرصهم على الجدال والمناظرة .

٢ — رزق مريم :

لقد كان هناك إعداد لتهيئة الأذهان من قبل الله لقبول معجزة الميلاد اليسوعى الخارق ، فقد أرادت المشيئة العليا أن تسبقه خوارق أخرى للناموس الطبيعى حتى يمكن للعقول أن تتقبل إمكان وجود المسببات من غير شرط تحتم الأسباب فى جانب الإرادة الإلهية والقدرة العظيمة ، فتكون هذه الخوارق شارات على طريق الميلاد اليسوعى ، ومن هذه الإرهاصات رزق الله لمريم من غير حساب أو عادة ، وإنما بالأمر الخارق لكل عادة ، وهى خليقة بذلك لأنها مباركة طاهرة ، نقية من كل ما يتصل بالهوى والشيطان ، وهى جديرة بهبة الله ونعمته، فهيأ لها فيضا من فيوضاته الجلية ، فما صفة هذا الرزق ؟ .

لقد أفاض المفسرون فى بيانه ، وكان مما قالوا أنه كانت تأتيها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف، وأنه كان كثيراً إلى غير ذلك من روايات ليس هنا محل ذكرها أو تقييمها ، ويكفينا أن نتيقن أن مريم

(١) آل عمران / ٤٤

كانت مباركة ، فهى ابنة عمران ، وكان يفيض من حولها الخير والبركة ، والرزق المختلف ألوانه ، والمتعدد الأشكال من كل ما يسمى رزقا حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض رزقها العظيم ، فيسألها : من أين يأتيك كل هذا وكيف السبيل؟ فلا تزيد على أن تجيب فى خشوع المؤمن المعترف بنعمة الله وفضله ، وتفويض كل أمر إلى قدرته : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »[1] .

وهذه الحادثة غير المألوفة إحدى الشارات التى قدمت لأخرى لاحقة، وكانت مقدمة لإثارة العجب فى نفس نبى الله (زكريا) حتى لقد أثارت فيه الرغبة فى أن يكون له ذرية طيبة مثل مريم .

٣ ــ معجزة الحمل بيحيى بن زكريا ومغزاها :

عندما رأى نبى الله زكريا وشاهد الفيوضات الإلهية التى خص الله بها مريم تحركت فى نفس زكريا الرغبة والحنين إلى ذرية طيبة تنطوى على مثل ما ينطوى عليه باطن مكفولته الذى بسببه انفتح لها مغاليق الخير ، فأمدها الله بالمدد الروحى ثم بالمدد المادى المثير للعجب والدهشة ، وعلى منوال هذا العطاء توجه الشيخ النبى إلى ربه :

« قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »[2] .

وهنا نجد أنفسنا أمام حادث غير عادى ، وخارق للناموس كذلك ، إنه يحمل مظهرا من مظاهر المشيئة الإلهية فى عدم تقييدها بالمألوف للبشر الذى يسميه البشر قانونا لا سبيل إلى إخلافه ، ومن ثم يشكون فى كل حادث يرونه لا يجىء فى حدود القانون الطبيعى العام، فإذا لم يستطيعوا تكذيبه لأنه واقع لا محالة نسجوا حوله الخرافات والأساطير .

---

(١) آل عمران / ٣٧ (٢) آل عمران / ٣٨

فها هو (زكريا) شيخ طاعن فى السن قد بلغ منه الكبر عتيا ، ووهن عظمه ، واشتعل شيبه ، ولم يعد من المتوقع أن ينضب دمه ولحمه بنطفة الحياة من أجل أن تكون سبباً لمولود جديد فى هذه الآونة المتأخرة من العمر ، فبعد أن يبس العود وجف الجسد تجيش فى صدره رغبة الفطرة العميقة إلى الذرية الطيبة التى تقوم بالدعوة إلى الله، وكفالة أهله ومنهم مريم، وقيامه على أمر مال الهيكل بالعدل ، وكان يخشى أن يرث ذلك منه الموالى فلا يحسنون القيام بكل ذلك ، وما إجراء الخارق عليه من الله يبعيد ، فقد عوده الله استجابته له فى كل مطلوب . هذا هو حال نبى الله (زكريا). أما زوجه فقد كان حالها مثل حاله ، فقد بلغت من الكبر مثل مبلغه ، ومن الهرم ووهن العظم حالة بالغة الأثر ، حتى لم يعد فى مقدورها تحمل مشاق الحمل وآلامه ، وآلام الولادة ، وتزيد هى عليه أنها من الذين جعلهم الله عقيما ، فهى عاقر لم ينشق منها الرحم عن مولود قبل ذلك قط كما تلد النساء .

ولكنه حين يستجيب الله دعاءه بتحقيق مطلبه يتقدم بكل هذه المعوقات إلى ربه معتذرا كيف يتم هذا الحادث الخارق المألوف البشر ، فإن الناس يحسبون أن للطبيعة قانوناً سيرها الله بمقتضاه ، ثم يحسبون أن مشيئته — سبحانه — مقيدة بهذا القانون ، ولقد نسى الإنسان أن كل ما يراه قانوناً لا يخرج فى حقيقته عن أن يكون أمرا نسبيا - لا مطلقا ولا نهائياً - فلا يستطيع الإنسان ، ولا يملك العقل أن يصل إلى قانون نهائى ، أو أن يدرك حقيقة مطلقة مع كونه محدود العمر والمعرفة ، ومحكوما بطبيعته الإنسانية ، فكان حرياً بذلك الإنسان أن يتأدب فى جناب ربه ، وأن يلتزم حدود طبيعته ومجاله ، فلا ينبغى أن يتيه فى ضلاله ، وغروره وهو يتحدث عن ممكنات الأمور ومستحيلاتها وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطارا من تجاربه هو ، ومن مقرراته هو ، ومن علمه القليل ، وما أوتيت الإنسانية عامة من العلم إلا قليلا .

وفى حديثنا عن نبى الله زكريا نرى أنه إنسان على كل حال — فلما كانت استجابة الله له مفاجئة ، ثم ما كان عما يراه معوقا يخرج بالقضية عن الطريق المألوف بالقياس إلى البشر — أراد أن يطمئن قلبه ويعرف الوسيلة ، فهو الإنسان، لا يعقل إلا أمر الواقع المألوف ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله ، ومع ذلك يمتلىء وثوقاً بوعد الله له : « قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر »[١] . وكان الجواب أن ذلك هين على الله تعالى : « قال ربك هو على هين »[٢] . ثم يذكره بمثل قريب من نفسه فى خلقه هو وإيجاده بعد أن لم يكن ، وهو مثل لكل هذا الوجود « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً »[٣] ، ثم يخبره أن الأمر فى يسره هذا وسهولته أمر عادى إذا وضع فى الاعتبار مشيئة الله المطلقة وأمره الغالب ، فلا مألوف فى جانب الله ، ولا غريب ، ولا هين ، ولا أهون ، ولا سهل ، ولا صعب ، بل كل شىء مرده إلى توجه الإرادة العليا ، والمشيئة المطلقة « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »[٤] ، « قال كذلك الله يفعل مايشاء »[٥] .

فالله هو الذى جعل العاقر لا تلد ، وجعل الشيخ الفانى لا ينسل ، وهو قادر على إصلاح العاقر ، وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل ، وهو أهون عليه فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء ، وإن كان كل شىء هيناً فى جانب القدرة إعادة أو إنشاء بل لا يقال هين وأهون فى جانب المشيئة العليا

ولكن لشدة تلهف زكريا على تحقيق البشرى اندفع يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة تسكن إليها نفسه : « قال رب اجعل لى آية » ، وهنا يخرجه الله سبحانه عن مألوف ذات نفسه ، فكان آيته أن يحتبس لسانه

---

(١) آل عمران /٤٠ (٢) مريم /٩ (٣) مريم / ٩
(٤) ياسين /٨٢ (٥) آل عمران / ٤٠

ثلاثة أيام أو ثلاث ليال إذا هو اتجه إلى الناس يكلمهم ، وينطلق لسانه إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه ، وهو بعد إنسان سوى معافى فى جميع جوارحه ، فليس به ألم ولا آفة ، فهذه آية أخرى فى ذات زكريا — فحين يكلم الناس يحتبس لسانه ، وحين يخلو لمناجاة ربه ينطلق لسانه ، ولسانه هو لسانه ، وشخصه هو شخصه — فأى قانون يحكم هذه الظاهرة هى الأخرى ؟

ليس هناك إذن إلا قانون المشيئة الكاملة والإرادة العليا الموجهة وبدون ذلك لا يمكن تفسيرها ، وبمثل ذلك رزقه الله تعالى (يحي) بعد بلوغه من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، وبمثل كل هذا يكون التمهيد للخارقة الأخرى الآتية ، خارقة الحمل بعيسى - عليه السلام - وهكذا نجدنا أمام القرآن الكريم وهو يقدم لنا سياق قصة الحمل بعيسى مصدرة دائما بقصة الحمل بيحي ،متضافرة فى جميع الأحداث الملابسة على التمهيد بحمل المسيح وولادته، وإعداد العدة لاستقبال خرق الناموس الطبيعى فى ذلك الحمل وتلك الولادة ، ولم يعرض القرآن قصة حمل عيسى إلا مقرونة بقصة يحي فى ذلك فى سورتى آل عمران ومريم ، ولعل ذلك كله كان يلاحظه بعض المعاصرين لعيسى ، بل لعله كان ذائعا مشهورا مما دفع لوقا أن يعرض قصة الحمل بعيسى مسبوقة مقرونة بقصة يحي مصدرا بذلك إنجيله الذى أخذه عن الذين كانوا معاينين وخداما لكلمة الله عيسى عليه السلام ، فارجع إليه إن شئت .



الفصل الثانى

ملابسات الحمل بعيسى وولادته

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »
المؤمنون / ٥٠

(ا) إعداد مريم :

ينساب الذكر الحكيم فى بيان قصة المسيح — عليه السلام — وإعداد مريم لتلقى النفحة الإلهية ، وذلك بالطهارة والقنوت ، والذكر والعبادة . « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين »[1] .

فهذا الاصطفاء من الله لمريم تنفرد به فى تاريخ البشرية دون نساء العالمين من غير شك ولا مراء ، فهو يختارها لتلقى النفحة المباشرة كما تلقاها من قبلها أول الخليقة (آدم) ولكن الله يعيدها الآن صورة أجل وأعظم حيث لم تشهد البشرية خلق آدم من غير أب وأم ، أما هذه فأمرها له خطره ، إذ هى خارجة عن مألوف البشر .

وإشارة القرآن إلى طهر مريم له مغزاه العميق كما أن له أثراً بعيداً ، فقد لابس مولد عيسى — عليه السلام — ظنون وشبهات أثارها اليهود ولم يتورعوا أن يلصقوها بمريم الطاهرة البتول ، وبنوا ظنونهم وشكوكهم على أن هذا المولد لا مثال له فى عالم الإنسانية ، لذلك فقد زعموا أن وراءه سر غير شريف ، لعنهم الله أنى يؤفكون .

---

(١) آل عمران / ٤٢ ، ٤٣

ولا ننسى وقفة التعظيم والإجلال لدين الإسلام فى بهائه وجلاله ،

فهذا رسول الله محمد — ﷺ — يأتى الناس برسالته ، ومن الناس أهل الكتاب يهود ونصارى ، ويلقى النبى فيهم الكثير من التكذيب ، والعنت والتشنيع ، وبث الشبهات ، ثم يأتى الرسول ليبلغ عن ربه حقيقة مريم فى وقارها وتفضيلها على نساء العالمين ، ويرتفع بمكانتها إلى أسمى التصورات ، وهو فى الوقت نفسه فى معرض المناظرة مع الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها ورفعتها مبررا لعدم إيمانهم بمحمد وبدينه الجديد ، فلو لم يكن رسولا من الله حقاً لما أعان هذا القول الحق فى مجال العناد وانفلات قومها من دينه بتقديسها .

ولكن هذا يبين بحق صدق صاحبه في نبوته ، وتبليغه عن ربه . وإعلانه الحق بأن مريم كانت فى هذه الآونة فى إعداد بالطاعة والعبادة والخشوع والركوع ، وأن حياتها موصولة بالله تمهيدا للأمر العظيم ذى الشأن الخطير .

٢ — البشرى :

بعد أن تأهلت مريم بالطهر والقنوت والعبادة .. هاهى تتلق لأول مرة بلاغا وبشرى عن طريق الملائكة بالأمر العظيم ، إذ بشرتها بكلمة من الله تحمل به . اسمه المسيح عيسى بن مريم ، فتضمنت البشارة نوعه واسمه ونسبه ، فقد نسبته إلى أم ، وبينت صفته ومكانته من ربه ، إنه : «وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين»[1].

---

(١) آل عمران / ٤٥

وذكرت البشارة بأنه سوف تصحبه معجزة فى مولده : «ويكلم الناس فى المهد» ثم إشارة أخرى إلى بعض مستقبله «... وكهلا» ، وتثبت كذلك سمته ومن ينتمى إليهم من عباد الرحمن «ومن الصالحين»[1].

هذا . وسياق قصص البشرى فى سورة مريم يتخذ الإثارة والانفعال فى تصوير يهز المشاعر كأن الإنسان يشهده اللحظة ، فيصورها بأنها الفتاة العذراء القديسة التى لم تشهد من قبل اقترانا بالرجال ولا يعرف عنها إلا الطهر والعفاف ، وأسرتها أهل الصلاح والتقوى ، وأن مريم تنتسب إلى هارون أبى سدنة المعبد التوابين المتطهرين، وهاهى مريم تخلو إلى نفسها لبعض شئونها الخاصة بها كفتاة فانتبذت من أهلها مكانا بعيدا شرقيا ، واتخذت حجابا من دونهم ، وبينما هى مطمئنة فى خلوتها ، إذ تفاجأ مفاجأة عنيفة برجل قوى سوى مكتمل «فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا»[2] فتنتفض انتفاضة العذراء المذعورة ، وتلجأ إلى ربها كما يلجأ المقربون إليه ، مستغيثة به ، مثيرة فى نفس مفاجئها الرحمة ، والتقوى ، والخوف من الله فى هــــذا المكان البعيد عن كل مغيث ومجير ، «قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا»[3] فإن كل تقى حين يسمع ذكر الرحمن يهتز قلبه رحمة وشفقة ، وتذهب منه جفوة الشهوة والشيطان ، وحينئذ قال : «قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا»[4].

وكانت فى قولته هذه هزة ثانية بعد هزة المفاجأة فى الخلوة ، فماذا تقول وهى لم تتأكد لديها أنه رسول ، وقد تكون قولته حيلة أريب

---

(١) آل عمران / ٤٦ (٢) مريم / ١٧

(٣) مريم / ١٨ (٤) مريم / ١٩

يستغل بها طيبتها وحياءها ، وإنها لقولة مروعة إذ يصارحها بأنه يهب لها غلاما ، ولكنها تتمسك بأهداب الشجاعة برهة فتتساءل مستنطقة الكيفية «قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا»[1] فكيف يكون الغلام إذن مادامت كذلك ؟ ويلوح أنها لم تتصور حتى هذه اللحظة وسيلة يكون منها غلام غير وسيلة اتصال الذكر بالأنثى ، فهذا هو التصور البشرى ، فأجابها الروح الأمين بأن ذلك هين على الله ، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس جميعا ليشهدها البشر ، ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة تتلفت إليها الأجيال إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدها الإنسان ، وهى عجيبة خلق الإنسان الأول (آدم) عليه السلام ، وذلك لتدرك هاتيك الأجيال يد القدرة الطليقة التى تخلق النواميس ، ولكن لاتحتبس داخل النواميس ، وتضمنت إجابته لها أيضا أن الله يريده علامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته .

وليكون كذلك رحمة لبنى إسرائيل ثم للبشر جميعا حيث يدفع الناس إلى معرفة ربهم ، وابتغاء مرضاته ، وها هى إجابته : «قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا»[2] .

ولكون البشارة قد حققت أهدافها بقدرة العلى الأعلى وأصبح الهدف محقق الوقوع «وكان أمرا مقضيا» «قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»[3] .

وبهذا اليسر والسهولة لحقيقة الخلق بالنسبة إلى الإرادة العليا ، يصور القرآن هذه الحقائق ويجلى الشبهات التى تعقدها الفلسفات الغامضة المعقدة ويقر الأمر فى العقول والقلوب معا . ونظرا لغرابة الحادث عن المألوف

---

(١) مريم / ٢٠ (٢) مريم / ٢١
(٣) آل عمران / ٤٠

عز على بعض فئات من البشر أن تتصوره على حسب طبعته التى تدرك من خلالها حكمة الله فى إبرازه ، فجعلت هذه الفئات تعطى عيسى بن مريم تصورات الألوهية ، وتنسج من حوله أساطير وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، فعكست الحكمة من خلقه بقدرة الله غير المقيدة بالقوانين لتشوه بمغالاتها عقيدة التوحيد الخالصة .

وأخيرا رضيت مريم أن تتقبل ماقضت به قدرة الله العظيمة ، فنفخ فيها الملك من روحه كما أخبر القرآن فى سورة التحريم : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين »[١] .

٣ — من الحمل إلى الوضع :

يمضى الحديث القرآنى فى رحلة أخرى تواجهها العذراء مريم، ويحكى ما ألم بها من ملابسات عنيفة هزت كيانها ووجدانها للمرة الثالثة، ويصورها فى موقف أشد هولا من ذى قبل .

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »[٢] .

وقصص القرآن لاينبئنا عن مدة الحمل ولا كيفيته ، وقد يحتمل الأمران فتكون مريم قد سارت فى حملها سيرا عاديا وطبيعيا اكتمل فيه حملها تسعة أشهر قمرية ، وما على النفخة إلا أنها أدت دور التلقيح فقط ، فهذا احتمال جائز ، وقد يكون فى الأمر أيضا خرق للعادة فلم تأخذ فى حملها مأخذ العادة والطبيعة فتختصر المدة وتضع فى مدة وجيزة أقل من المدة الطبيعية ، وهذا احتمال جائز أيضا مادام النص لم يقطع فى القضية

(١) التحريم / ١٢ (٢) مريم / ٢٢ ، ٢٣

بقول فصل ، والمهم أننا نحس مريم بعد الحمل تنتبذ مكانا قصيا بعيدا عن أهلها فى ذلك الموقف الحرج ، فهى الآن وشيكة أن تواجه مجتمعها بوجه الفضيحة ، وفى الوقت ذاته تغمرها آلام جسدية مع ما يصحبها من آلام نفسية ، إنها تواجه المخاض الذى ألجأها مضطرة إلى أن تستند إلى جذع النخلة ، وهى فريدة وحيدة ، ليس معها من يعينها فى حالة لا تعلم عنها شيئا كعذراء تعانى حيرة فى أول مخاض لها ، فإذا لسانها ينساب « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فتتمنى أن لو كانت (نسيا) أى خرقة اتخذتها المرأة لاعتلالها فى دم حيضها تلقى وتترك بعد ذلك فى طى النسيان والإهمال .

وفى حالة من الهول المفزع والآلام المروعة تفاجأ أذنها بصوت على غير العادة : « فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا »[1] .

ويرى المفسرون فيمن يناديها أنه جبريل عليه السلام ، أو هو وليدها الحديث ، وكون المنادى لها عيسى أرجح ، حيث إن مساق الضمائر السابقة تشير إليه ، فهو يناديها ليطمئن قلبها ، ويذكرها بربها ، ويرشدها إلى مطعمها ومشربها . ويلقنها حجتها فى مواجهتها لقومها ، فيسرى عنها قائلا : « لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » فلم يهملك ربك بل أجرى جدولا ساريا تحت قدميك ، وأغلب الظن أنه جرى للحظته ، وهو إما ينبوع جديد ، أو سيل ماء من الجبل ، ثم هذه النخلة التى تستندين إليها ، هزيها فتساقط عليك رطبا جنيا ، فهذا طعام وذاك شراب ، والطعام الحلو

---

(١) مريم / ٢٤ — ٢٦

ونوع الرطب والتمر منه من أحسن الطعام للنفساء « فكلى واشربى وقرى عينا » ولهدأ روعك ، فإذا واجهت أو واجهك أحد من الناس فأعلنى أنك نذرت للرحمن صوما ، وانقطعت إلى الله بالعبادة عن حديث البشر ، وأغلب الظن كما يشير حديث القرآن أنها قد أفاقت من رعدتها ، وانقشع عنها هول الموقف بحديث الوليد لها ، فهو أكبر حجة لها على إحتمال المواجهة لقومها ، وبحديثه فى المهد قد انكشف كل إبهام يخيم على الحادثة من أولها إلى منتهاها .

٤ — معجزة المهد :

وتقبل مريم إلى قومها بعد أن اطمأنت نفسها وهدأ بالها ، أليس الملاك قد قال لها فى لحظات البشرى بأنه : « يكلم الناس فى المهد » ؟ « فأتت به قومها تحمله » [١] ويلوح أن الذين قابلتهم هم عشيرتها الأقربون ، فحين رأوا ابنتهم الطاهرة المتبتلة المنقطعة للعبادة تأتيهم وتحمل طفلا . . « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا [٢] » .

إنه خطاب تقريع وتوبيخ ، ثم ينتقل الخطاب إلى التبكيت والتحقير والتهكم المرير ، « يا أخت هارون » [٣] ذلك النبى الطاهر الذى من سلالته كان الأنبياء والصالحون من سدنة الهيكل وعباده ، فهل يليق أن تنتسبى إلى ذلك النبى الصالح وتقترفى ما قترفت ؟ « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » [٤] فكيف تفعلين فعل البغايا وبنات السوء ؟ فإذا هى تقوم بتنفيذ ما أوصاها به وليدها « فأشارت إليه » [٥] وهى إشارة تهيج العاطفة ، وتثير الحنق والغيظ ، إذ كيف يرونها على ما بها ثم تتبجح وتسخر منهم مع إستنكارهم لأمرها ، فتصمت وتشير إلى الطفل ليسألوه عن سر ذلك الحدث العجيب ، « قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » [٦] ؟

---

(١) مريم / ٢٧ (٢) مريم ٢٧

(٣) و (٤) مريم / ٢٨ (٥) و (٦) / مريم / ٢٩

ولكن الخوارق تأتى متتابعة ، فينطق الوليد الحدث : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا »[1] .

ويعلن عيسى بذلك عن نفسه بأنه [عبدالله] فليس [ابنا له] ولا [إلها] ولاهو [ثالث ثلاثة] هم إله واحد ، وفى الوقت نفسه ثلاثة،على اختلاف بين طوائف النصارى ، بل يعلن أنه [نبى الله] ، لا [ولدا] ولا [شريكا] وأنه بارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وأوصاه كذلك بالبر بوالدته ، والتواضع لقومه .

والنص يشير إلى أن له حياة محدودة تنتهى إلى أمد ، فهو يموت ويبعث ، وقدر الله له الأمن والسلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

وعلى مشهد هذه المعجزة العظيمة يسدل الستار ، فلا يذكر القرآن كيف واجه قوم مريم هذه المعجزة ، ولم يبين مدى أثرها فى نفوسهم ، كما توقف الحديث عن بيان نشأة عيسى ، أو حال أمه حتى بلوغه مبلغ الرسالة والنبوة المشار إليها بقوله « آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » ولعل ذلك لما لحادث عيسى من أهمية قصد إبرازها مع ما سبقها أو صاحبها من خوارق مثيرة ومدهشة ، وإن كان التاريخ المسيحى يثبت أنه نشأ نجارا على صنعة يوسف خطيب مريم ، وأنه كان فى طفولته وصباه يترددون به كل سنة إلى الهيكل على عادة اليهود ، وكان يحضر مجالس العلم والدين ، كما كان يتردد بنفسه بعد ذلك ، ومهما يكن من الأمر فإن الذكر الحكيم يعقب على ما أبانه بتقرير قوى لاذع « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق

---

(١) مريم / ٣٠ — ٣٣

الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وأن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »(١) .

فهذه حقيقة ابن مريم ، ينطق بها لسانه ولسان حال قصته ، إنه عبد مربوب لرب العالمين ، فليس إلها كما يدعى المغالون له والمؤلهون ، وهذه أمه يوقفها القرآن على مشارف الطهارة فى ساحة العفاف والنقاء ، وهذا قول الحق الذى فيه يمترون ، أى يشكون ، فما كان لله أن يتخذ من ولد تعالى وتعظم ، فليس فى حاجة إلى ولد ، لأن الولد يتخذه الفانون غير الباقين إمتدادا لذكراهم ، وتكريرا لأشخاصهم ، ويتخذه كذلك الضعاف من الخلق للنصرة .

أما الله العلى العظيم : فهو باق ولا يفنى ، قوى قادر ، لا يحتاج إلى معين ، وكل الكائنات توجد بقوة العلى وقدرته ، وتحقيق إستمرارية إيجادها إنما يكون بتوجه الإرادة العلية ، لا بالولد والمعين ، بل بقوله « كن فيكون » حين يقضى بها أمرا . وحديث الحال لعيسى ينطق بتأكيد أن الله ربه ورب جميع الناس والخلائق ، ويزيد ذلك تأكيدا وتثبيتا بالدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد بلا معين ولا شريك « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .



(١) مريم / ٣٤ — ٣٦

الفصل الثالث

موجز رسالة المسيح وموقف بني إسرائيل منها

قال تعالى : « ومصدقا لما بين يديه
من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى
ونور » المائدة / ٤٦

موجز الرسالة :

إن من كمال رحمة الله وعميم لطفه بعباده أن بعث فيهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكانت رسله تترى إلى البشر من لدن آدم — عليه السلام — إلى أن جاء زمان بعث نبيه عيسى فأرسله إلى بنى إسرائيل دون سواهم من الأمم ، يقول متى عن المسيح : « لم أسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة [١] » وقال تعالى « ورسولا إلى بنى إسرائيل[٢] » والقرآن بذلك مصدق لما بين يديه من الإنجيل فالمسيح إنسان كرمه الله بالنبوة كسائر الأنبياء وأيده بالمعجزات ، فكان وسيطا بين الله وخلقه بما أوحى إليه من كتاب : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا [٣] » هذا مما قاله وهو فى المهد مفصحا — عليه السلام — عن حقيقته ، طبيعة ووظيفة ، وقال عنه لوقا أيضا : « يسوع الناصرى الذى كان إنسانا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب» [٤] وقال بولس: «يوجد إله واحد

---

(١) متى ١٥ :٢٤ واقرأ متى ١٠ : ٥ ، ٦

(٢) آل عمران ٤٩ (٣) مريم ٣٠ (٤) لوقا ٢٤ : ٢٩

ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح [١] ، وقد أخبر الأمين جبريل مريم بما سينعم الله به على كلمة الله عيسى حين بشرها بالحمل به ، فقال تعالى : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »[٢]

فالكتاب المعطى له : فى قول البشير جبريل ، وفى قول عيسى فى المهد ، قد يراد به الكتابة ، وقد يراد به التوراة والإنجيل معا ، ويكون العطف للبيان .

أما الحكمة فهى : حالة فى النفس يتأتى معها وضع الأمور فى نصابها ، والإحكام فى إدراك الحق والصواب ، ومعرفة الباطل والخطأ ، وبالجملة : هى معرفة منهج الخير فى أصالته وأبعاده .

أما التوراة : فهى الكتاب الذى أنزله الله على نبيه موسى ، وقد تضمنت الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية وفق حاجة زمانهم وملابسات حياتهم بعد تقريرها توحيد الخالق جل وعلا .

وحين بعث عيسى — عليه السلام — بالرسالة كانت التوراة بهذا الاعتبار قاعدة دينه ، وأساس دعوته ، يقول متى عن المسيح — عليه السلام — : « ماجئت لأنقض الناموس[٣] أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل »[٤] .

أما الإنجيل : فهو الكتاب الذى أنزل على عيسى — عليه السلام — وهو تكملة وإحياء لروح التوراة — كما هو النص السابق — وهو إحياء لروح الدين التى طمست فى قلوب بنى إسرائيل ، فهو نفحة إحياء وتجديد وتهذيب لضمير الإنسانية يوصله بالله مباشرة ، من غير وساطة كائن من كان .

---

(١) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ٥
(٢) آل عمران ٤٩
(٣) الناموس هو شريعة التوارة
(٤) متى ١٥ : ١٧

ولقد جاهد عيسى فى سبيل كل ذلك حتى مكر به بنوا إسرائيل .

ومن هنا كانت التوراة والإنجيل وحدة متوحده لا ينفك أحدهما عن الآخر فى نظر المسيح واعتباره ، ولذلك كان رسولا لبنى إسرائيل خاصة، ورسالته مصدقة لهذه التوراة مع بعض تعديلات، منها ما يتعلق بالسلوك الأخلاقى والاجتماعى ، ومنها ما يتعلق بالعلاقة بين المواطن الإسرائيلى والسلطان ، وبين الفرد والكهنوت ، وبين المرء وأهله وعشيرته ، كما أن منها ما يتعلق بتعديل بعض ما يحل وما يحرم مما كان بعضه تحريما فى صورة عقوبات حلت ببنى إسرائيل على معاص وانحرافات ، تأديبا لهم وتهذيبا لنفوسهم ، فكان المسيح رحمة لهم بتحليله بعض ما حرم عليهم ، جاء فى القرآن حكاية عن عيسى : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »[1]

فهذا هو دين عيسى فى مجمله وخطوطه العريضة ، والذى لم يخرج فى حقيقته عن الأديان التى لا تتبدل من حيث الجوهر بين رسول ورسول ، إذ طبيعة الدين فى مفهومه العام هو منهج حياة أراده الله للبشر ، ونظام عام يربط بين حياة الناس بذلك المنهج ، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية ، ولا عن القيم الأخلاقية ، والشرائع التنظيمية فى أى دين يصرف حياة الناس وفق المنهج الالهى .

ولكن المسيحية لم تستطع أن تقوم بذلك المنهج الذى جاءهم به عيسى من لدن ربه ، فقد تداخلتها عوامل تاريخية ، صاحبتها تيارات عقدية ذات سلطة زمنية فصلت بسببها الجانب التشريعى التنظيمى الذى تضمنته التوراة عن الجانب الروحانى التعبدنى التهذيبى الذى جاء به الإنجيل ، وكانت نتيجة ذلك أن انتهت المسيحية إلى أن أصبحت نحلة بغير شريعة ، وهذا ما حققه أتباع مسيحية اليوم من أتباع مدرسة القديس (بولس)

---

(١) آل عمران ٤٩

واضع أسس اللاهوت المسيحى بعقائده، وشرائعه، وتعاليمه السلوكية والاجتماعية، والسياسية، فقد رسم لهم أن جوهر الدين هو الإيمان بتجسيد ابن الله — المسيح — ليصير بعد هذا التجسيد إلها خلقه الله، مؤلفا من لاهوت وناسوت، وأن موته على الصليب هو كفارة وفداء عن خطية آدم المزعوم أن ذريته المتعاقبة قد ورثتها، ثم قيامه من ذلك الموت ليأخذ المؤمنين بذلك فى ملكوته، كما جعل ذلك كافيا فى الإيمان، أما الأعمال التعبدية فلا لزوم لها، خاصة إذا كان مصدرها التشريعى هو التوراة، وادعوا فى الدين دعاوى بينها وبين ما جاء به المسيح تمام انقطاع، ووضعوا دينا ذا مبادىء ما أنزل الله بها من سلطان، فانحرفوا بذلك عن الدين الحق الذى لا عوج فيه ولا أمتا.

وظل الحال على ذلك إلى أن نزل القرآن على نبى الإسلام محمد — ﷺ — فكشف القرآن عن منهج رسالته — عليه السلام — وفضح أمر المزيغين فى دين الله فقال تعالى «ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»[1].

فهذه الفقرات من الذكر الحكيم تشرح الحقيقة التى جاء بها عيسى — عليه السلام — كما تبين حقيقة عيسى نفسه، فعيسى نبى جاء بالبينات الواضحات إلى بنى إسرائيل، ومن هذه البينات آيات وخوارق أجراها الله على يديه، ومنها كذلك منهج توجيهى إلى طريق الهدى والصراط المستقيم.

---

(١) سورة الزخرف ٦٣، ٦٤

موقف بنى إسرائيل من دعوة المسيح :

تبين لنا مما سبق أن المسيح قد ربطت رسالته بين منهج التشريع الاجتماعي العملي بالتصديق على كل ماجاء فى التوراة ، كما ربطت بين تقوى الله وعبادته ، وطاعة الله وطاعته فى توحيد الرب وعبادته / وأنها ربطت بين المنهجين الروحى والعملى ، وأن ذلك هو الصراط المستقيم ، وماعداه فهو انحراف وعوج غير قويم

ولكن بنى إسرائيل لا يتناهون عن منكر فعلوه ،وكلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم استكبروا وعتوا عما نهوا عنه ، فلما جاءهم عيسى وجدهم قد اختلفوا من قبله ، ولما توفاه الله اختلفوا كذلك من بعده ، « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة » « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ، ومن الحكمة الهادية بيانه لهم بعض الذى يختلفون، وكان اليهود قد اختلفوا فى كثير من شريعة موسى — عليه السلام — وتفرقوا حولها شيعا وأحزابا فدعاهم :

أولا : إلى تقوى الله وطاعته طاعـــة خالصة فى كل ماجاء به من عند الله .

كما دعاهم :

ثانيا : إلى تعميق معنى التوحيد فى القلوب فى غير لبس أو شكوك : « فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

والقرآن الكريم قد أشار إلى نوعين من الاختلاف ، أحدهما بين

---

(١) البقرة / ٢٦٩

بنى إسرائيل حين جاءهم ، والآخر : هو اختلاف أتباع المسيح إلى أحزاب وشيع .

فاليهود من بنى إسرائيل فى عمومهم كانوا ينتظرون المسيح ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل والاستعباد تحت نير الحكم الرومانى وظلمه . وكانوا يرون فيه تحقيق ملكهم الذى طالما كانوا يحلمون بوجوده ، وهو إقامة مملكة الرب فوق جبل صهيون ، وعاصمتها أورشليم . فكانوا ينتظرونه ملكا سياسيا فلما جاء المسيح آمن به بعضهم ، ورماه بعضهم بأنه غير شرعى وعتوا وأعرضوا عنه ، خاصة وأنه لم يتحقق على يديه أحلام يهود ، فنكروه ، وشاقوا عصا طاعته ، وقد وجدهم المسيح شيعاً وأحزابا أهمها طائفة الصدوقيين ، وطائفة الفريسيين ، وطائفة السامريين ، وطائفة : الكتبة ، وطائفة الآسيين ، ويعبر عنها أحيانا بالآسينيين .

فلذلك جاء المسيح — عليه السلام — ليبين لهم الذى اختلفوا فيه يسمعهم ويصيح فيهم صيحة التوحيد الخالص : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » « وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »[1] .

فكان جوهر الدين الذى جاء به — بعد الرجوع إلى التوحيد الخالص . وتبيان الشريعة الموسوية — تهذيب القلب البشرى ، والعفو ، والتسامح . ورفض المماحكة بشكليات الشريعة وحرفياتها ، ولكن المحترفين الذين ينعمون فى ظلال التشدد ، وفى تطبيق الشريعة الشكلية وطقوسها ، قاموا فى وجهه . وردوا دعوته ، ورموه بالإثم ، وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، وكان أن أبرز المسيح عيوبهم وانحرافهم عن حقيقة الشريعة وأصولها ، وكان من ذلك ماورد فى الإصحاح الثالث والعشرين من

---

(١) المائدة / ٧٢

(إنجيل متى) من خطاب التقريع والتقريع لهذه الطوائف. ولكن هذا لم يحل دون تفتح القلوب والآذان من بعض الذين أرسل إليهم ، فيؤمنون بدعوته ، ويصدقون برسالته ، فهو من غير شك أعلن دعوته وقال : « من أنصارى إلى الله »[1] . أى من أنصارى لأبلغ عن الله دينه ، وأؤدى عنه رسالة الدين ومنهجه ونظامه ، وطبيعى أن يكون لكل صاحب دعوة أنصار ، وأصحاب يحملون دعوته ، ويدفعون عنها أعداءها ، ويبلغونها إلى غيرهم ، ويقومون عليها من بعده ، وحين أعلن ذلك نكره جمهور بنى إسرائيل ، واستجاب قوم هم حواريوه وتلاميذه الخصوصيون وقالوا : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »[2]

فهؤلاء الحواريون استجابوا لدعوة عيسى وآمنوا به ، ونصروه ، وأشهدوا على أنفسهم بأنهم مسلمون .

والإسلام هو المعنى الحقيقى للدين ، فإن معناه : الخضوع والانقياد لأمر الله تعالى :

« إن الدين عند الله الإسلام »[3] ، « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »[4]

ثم أشهدوا عيسى على هذا الإسلام ، وأنهم أنصاره لتحمل أعباء دين الله منهجا وتشريعا للحياة ، ونصرة رسوله كذلك . ثم توجهوا مباشرة إلى ربهم بالمبايعة على القيام بكل ذلك : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين »[5]

---

(١) سورة آل عمران الآية / ٥٢
(٢) سورة آل عمران الآية / ٥٢
(٣) سورة آل عمران الآية / ١٩
(٤) سورة آل عمران الآيه / ٨٥
(٥) سورة آل عمران الآية / ٥٣

وفى هذه البيعة لمحتان. الأولى: أن الرسول حين ينتهى من مهمة إبلاغ العقيدة يكون العهد بين المؤمن بها وربه ابتداء، والعهد باق فى عنق المؤمن بعد الرسول.

الثانية: أن فيها تعهداً آخر باتباع الرسول، فليس الأمر مجرد عقيدة وقرت فى القلب والضمير. ولكنه تطبيق لمنهج مقتدى فيه بالرسول

وفى البيعة أيضاً لفتة أخرى هى قول الحواريين «فاكتبنا مع الشاهدين» فما هى هذه الشهادة ومن هم الشاهدون ؟؟

إن كل مسلم يدين بدين الله لابد أن يؤدى شهادة لهذا الدين، فيجعل من نفسه صورته المتحركة فى خلقه، وحياته، وسلوكه، إحقاقا وإبقاء عليه. سواء منه فى العقيدة، أو التنظيم والتشريع، ثم يعرض إيمانه بنصرته فى حالة انحراف مجتمعه عن منهجه، وتكون نصرته، والجهاد من أجله أعز عليه من حياته، ومن هنا يدعى شهيدا، لأن الشهيد من شهدم.

والحواريون هم تلاميذ المسيح — عليه السلام — قيل هم الإثنا عشر الذين هم خاصته الخصوصيون الذين لازموه فى كل زمان ومكان، وهؤلاء الحواريون قد انقطعوا إلى السماع لعيسى، يتلقون عنه أمور الدعوة. وهم الذين قاموا من بعده بنشر تعاليمه، وتبليغ وصاياه. أما أسماؤهم فلم يوردها القرآن الكريم، وما على أتباع محمد — ﷺ — إلا الإيمان بهم كما ذكرهم القرآن الكريم من غير لزوم معرفة أسمائهم، وإن كانت الأناجيل قد ذكرت أسماء لهم، وقد انتدبهم الله لهذا الأمر الخطير فقاموا به، ونالوا بوفائهم تكريم الله العظيم.

ولقد آمن بعيسى آخرون من بنى إسرائيل مع استمرار أملهم فى أن يحقق لهم أملهم فى إقامة مملكتهم المزعومة، وعتقهم من الذل والاستعباد،

والمسيح لم يعلن لهم أنه ملك سياسي، ولكنه بعد طول انتظارهم قال: «مملكتي ليست من هذا العالم»[1].

وحين توفى الله عيسى ورفعه إليه اختلف أتباعه من بعده شيعاً وأحزاباً كالذين اختلفوا من قبله، وهو الإختلاف الثاني الذي أشارت إليه الآية صدر هذه الفقرة، «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم عظيم»، وهو اختلافهم في تصور عيسى، حيث زعمه بعضهم إلها، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، حتى لم يعد للتوحيد الذي جاء به عيسى وجود بين أتباعه، والظاهر أن الآية شاملة لفرقهم وأحزابهم بدءاً من وفاة عيسى مباشرة، ولتحزبهم في مجمع نيقية مع تفريقهم وتحزبهم كذلك فيما بعد نيقية، وما تشهده هذه الجموع المتحزبة من خزي ونكال في مشهد اليوم العظيم الأليم يوم الدين.

معجزات المسيح ومغزاها:

لم يبعث الله نبياً برسالة إلى قوم إلا أيده بالخوارق والمعجزات تدليلا على أن ما جاء به هو الحق عند الله، وتكون المعجزة — وهي دليل الصدق لكل نبي جاء بها — بمثابة قول الله تعالى: «صدق عبدي فيما يبلغ عني».

وإن نبي الله عيسى — عليه السلام — يعتبر معجزة الأحياء جميعاً. إذ هو نفسه آية، كما أن أمه آية كذلك، قال سبحانه: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية»[2].

ولقد ذكر القرآن معجزات عيسى على لسان البشير جبريل — عليه

---

(١) يوحنا ١٨ : ٣٦ (٢) المؤمنون / ٥٠

السلام — تحقيقاً لوقوعها وإبرازها فى صورة الواقع المنظور، فقال عنه قبل مولده بأنه: رسول إلى بنى إسرائيل، وأنه يصور من الطين على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرىء الأكمه — وهو من ولد أعمى — ويبرىء الأبرص بالشفاء، ويحي الموتى من البشر بإذن الله تعالى، ويخبر بالغيب، وهو بالنسبة له المدخر فى بيوت بنى إسرائيل من طعام وخلافه، وهو بعيد عنه لم يره بعينه.

والناظر فى هذه المعجزات يتبين له أنها تتعلق فى عمومها بإنشاء الحياة فى الكائن، كالطير المصور من الطين، أو تتعلق برد الحيـــاة كإحيائه الموتى بإذن الله، أورد العافية كإبرائه الأكمه والأبرص بإذن الله، وكل هذه تتسق فى صميمها مع مولد عيسى، ومنح الله له الحياة والوجود على غير مثال إلا مثال آدم — عليه السلام — «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»[1].

ومعجزاته كذلك تبيان لقدرة الله غير المقيدة، فإنه إذا كان قادراً على إجراء هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال إذا اعتبر الإنسان أن الأمر مرده إلى مشيئة الله تعالى وقدرته وإرادته الطليقة غير المقيدة بمألوف الطبيعة والحياة.

ونظرة أخرى لما عقبت به هذه الآيات فى ورودها على لسان الملك البشير، أو فى تعداد نعم الله على عيسى فيما بعد ترى أن التعقيب ينص على أنها جيء بها من عند الله تعالى، وقد ذكر إذن الله بها وفيها عقب كل واحدة واحدة، ولم يدع النص ذكر المعجزات ليتم ثم يعقب بعد جميعها بأنها بإذن الله، وذلك احتياطا لما قد يحدث فى الذهن من انفكاك بين فعل المعجزة وإذن الله بها.

ولا محل إذن بعد هذا التبيان لما حيك حـــول عيسى من شبهات

(١) آل عمران / ٥٩

وأساطير وأوهام ادعوا فيها أنه الذى فعلها من عند نفسه لأنه إله، حيث لا يفعل ذلك إلا الإله ، وهو زعم من الشيطان ظاهر بطلانه : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين »[1].

وفى الختام لهذه الآيات المعجزات تتضح مهمة عيسى كنبى جاء بها من عند ربه، تصديقاً له فى دعوى النبوة : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »[2] « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »[3] .

وكان من قومه من صدقه فى هذه المعجزات وآمن برسالته ، ومنهم من قال بأن هذا سحر مبين ، ومنهم الذين فتنوا به ، وبمعجزاته فضلوا وأضلوا قومهم، وأحلوهم دار البوار « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »[4].

هذه بعض معجزات عيسى — عليه السلام — وهى غير معجزة كلامه فى المهد ، وكلامه كهلا ، ومعجزة اقتداره على التغير والإختفاء ، وهى التى بها كان إمكان رفعه ، وإلقاء شبهه على آخر صلب مكانه كما سبق بيانه .

وفى القيامة يتبرأ عيسى من الذين زعموه وأمه إلهين من دون الله :

لقد حق القول من الله بالويل والثبور على الذين اختلفوا بعد عيسى منحرفين عن عقيدة التوحيد صائرين إلى تأليهه وجعله ثالث ثلاثة ، ومن جعلوه وأمه إلهين من دون الله .

(١) سبأ / ٢٠
(٢) آل عمران / ٤٩
(٣) آل عمران / ٥٠ ، ٥١
(٤) ابراهيم / ٢٨ — ٣٠

فقال تعالى: «فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم»[1] ولم يتركنا القرآن الكريم وهو يدعو إلى عقيدة التوحيد دون أن يعرض علينا تصويراً لذلك المشهد فى اليوم العظيم الذى أشارت إليه الآية الكريمة، وذلك التصوير ورد فى سورة المائدة. وقد بين الله فيه مصير المنحرفين عن التوحيد إلى الشرك والتثليث من النصارى المعرضين عن التوحيد الذى جاء به عيسى عليه السلام، وذلك فى صورة استجواب مرهوب فى يوم الحشر، على مشهد من الملأ الأعلى والناس أجمعين، فى مواجهة البشرية برسلها، وخاصة المكذبين منهم والمنحرفين، وذلك ليعلنوا أنهم جاؤا من عند الله بدين الله، وذلك فى قوله تعالى: «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم»[2].

أما الرسل فيعلنون أن العلم والحق فى ذلك لله وحده تأدباً وحياء فى حضرة علام الغيوب، ويكتفى بذلك فى جانب جميع الرسل.

أما عيسى ابن مريم فيصور القرآن التفات الخطاب إليه من القاضى العادل، حيث قد فتن فيه قومه كثيراً وملىء الجو حوله بالشبهات، وحول ذاته وصفاته، فى نشأته ونهايته حيكت أساطير وخرافات لم تشهد البشرية لها مثيلا، لذلك كان التفات الخطاب إليه على ملأ العابدين له، والمؤلهين الذين تقاولوا عليه وعلى أمه الأقاويل، وفى مواجهتهم لكى يسمعوه وهو يتبرأ منهم إلى ربه، وقد أخذ بالدهشة والفزع من هذه الفرية العظيمة التى افتروها عليه وهو منها براء، ويبدأ جوابه بالتسبيح والتنزيه لله جل سلطانه، ثم يعجل بالتبرؤ المطلق متباعداً أن يكون من شأنه هذا القول على الإطلاق. ثم يستشهد بربه على براءته من هذه الفرية مع إظهار تصاغره وتضاؤله أمام الله، مبينا خصائص عبوديته، وخصائص ألوهية

---

(١) مريم/٣٧ (٢) المائدة/١٠٩

الكبير المتعال ، وهذا تصوير القرآن لذلك المشهد : « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب[1] » .

وبعد إثباته لله كل تنزيه وإعلان ضعفه أمام ربه يبدأ فى إثبات ما قاله لقومه ، وهو أنه عبد الله يدعوهم إلى عبادة الله « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم[2] » ثم يقول : إنى لا أدرى ما فعلوا بعد وفاتى ورفعى من بينهم ، وينفض يده منهم ، ويفوض أمرهم بعد ذلك إلى مراقبة الله لهم وعلمه بهم ، « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[3] » .

وهذا الاستجواب لعيسى ليحق القول على الكافرين وهم سامعون ومشاهدون « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين[4] » أى يكون الملحدون فى عيسى أسمع شىء وأبصره فى ذلك اليوم ، وهو يوم تكون أسماعهم وأبصارهم وسيلة للخزى والتبكيت : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[5] » وهو يوم حسرة ونكال على الكافرين الظالمين حين يشتد الندم والحسرات بعد انقضاء الأمر وإحقاق الحق ، « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون[6] » .

---

(١) المائدة / ١١٦

(٢) و (٣) المائدة / ١١٧ ، ١١٨

(٤) مريم / ٣٨ (٥) ق / ٢٢

(٦) مريم / ٤٩

إنه يوم يرجع فيه الميراث إلى وارثه الحق، وهو الله جل جلاله، فكل شيء يعود إليه، فإن المرجع إليه والمآل قال تعالى: «إنا نحن نرث الارض ومن عليها وإلينا يرجعون»[1]، «وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون»[2].

هذا قبس من الذكر الحكيم يعرض صورة واضحة لمشهد من مشاهد يوم القيامة فى ذلك اليوم العظيم، حين يبين عيسى عليه السلام موقفه ممن ادعوا ألوهيته، وعبدوه من دون الله، مستشهدا بأنه لم يدع ذلك بل إن الله عز وجل يعلم كل شيء: «تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك».

سبحانك ربى: «إنك أنت علام الغيوب»
والحمد لله فى البدء والختام



---

(١) مريم / ٤٠ (٢) الحجر/ ٢٣

المراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — العهد القديم

٣ — العهد الجديد

٤ — أدلة اليقين / عبد الرحمن الجزيرى

٥ — إظهار الحق / الشيخ رحمه الله الهندى

٦ — إنجيل المسيح — عليه السلام — بين وحى السماء ووضع البشر / المؤلف

٧ — بولس والمسيحية / المؤلف

٨ — تاريخ النساطرة / عادائى بشير

٩ — التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق / ابن البطريق

١٠ — دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاى

١١ — عيسى بشر بالإسلام / محمد عطا الرحيم

١٢ — الفارق بين المخلوق والخالق / عبد الرحمن باجه جى زاده

١٣ — قصة الحضارة / ول ديورانت

١٤ — قيامة المسيح / عوض سمعان

١٥ — الكنز الجليل فى تفسير الإنجيل وليم أدى الأمير كانى

١٦ — الله بين الفلسفة والمسيحية / عوض سمعان

١٧ — المسيحية فى الإسلام / إبراهيم لوقا

١٨ — المسيحية : نشأتها وتطورها / شارل جينيبير

١٩ — معاجم اللغة /

٢٠ — يسوع المسيح / بولس إلياس

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب

١٨١٤ /١٩٩١ م

I . S . B . N : 977 - 00 - 1117 - 7

